متابعات إسلامية

في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة

د. عماد الدين خليل

دار الحكمة
لندن

متابعات إسلامية

في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة

الطبعة الأولى

2002م 1423هـ

DAR AL-HIKMA
Publishing and Distribution



88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel.: 0207-3834037 Fax : 0207-3830116

متابعات إسلامية

في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة

د. عماد الدين خليل

دار الحكمة
لندن



بسم الله الرحمن الرحيم

حول النظام العالمي الجديد..
ونهاية التاريخ

[1]

يثير ما يسمّى بالنظام العالمي الموحّد أو الجديد، جملة من القضايا ذات البعد التاريخي، لا بدّ من الوقوف عندها قليلاً لمعرفة إلى أين يريد هذا النظام أن يذهب بالعالم؟ خاصة إذا تذكرنا عبارة كروتشه المعروفة: «أن التاريخ كله تاريخ معاصر»، وأنه ـ أي التاريخ ـ هو جِلْد الشعوب وملامحها وبصماتها.. وتذكرنا ـ كذلك ـ أنّ إحدى معطيات النظام الجديد هو إلغاء البعد التاريخي ووضع الأمم والجماعات كافة عراة قبالة الصنمية الاقتصادية التي تنزع إلى تسوية الجميع إزاء مطالبها، لكنها من وراء هذا تزيد أغنياء العالم وطواغيته غنىً وجبروتاً، وفقراءه ومستضعفيه فقراً واستعباداً..

إنها لعبة، أو مناورة فكرية أخرى إذا صحّ التعبير.. إعطاء خلفيات تنظيرية وأيديولوجية لممارسات تتجاوز ـ ابتداء ـ منظومة القيم الخلقية وثوابت العقائد والأديان.. والمطالب الأساسية للإنسان.

ومن وراء هذه المناورة تكمن الخبرة الصليبية والاستعمارية والرأسمالية.. ومن ورائها ـ أيضاً ـ يكمن حلم اليهودية.. ومشاريع حكماء صهيون.

إلغاء الذاكرة التاريخية، وتحكيم الصنمية الاقتصادية المتسلّحة بكل قوى العلم والتكنولوجيا والتفوّق العسكري وحتى السياسي للغرب.. لن يجعل الفقير غنياً، وينزل بالأغنياء لكي يقاربوا الفقراء..

إنها لعبة ستجعلنا، وكل المستضعفين في الأرض، ينسلخون عن تاريخهم وتميّزهم في الأرض.. ويزدادون ـ وقد تعرّوا من كل ما يحميهم ويمنحهم الدفء ـ التصاقاً بالقوى المتحكمة في آليات الاقتصاد العالمي فلا يزيدهم ذلك إلاّ عرياً وبرداً..

بهذا نكون قد خسرنا مرّتين..

[2]

والصنمية الاقتصادية ليست إلهاً جديداً تفرزه معطيات عصر الشيئية والتكاثر والنموّ الأسطوري في تقنيّات الإنتاج.. إنه قديم قدم الإنسان نفسه.. صحيح أن تغيّراً كبيراً لحق هذا الصنم فانفلت ـ وهو يتضخّم ـ لكي يتحكم بكل شيء في هذا العالم.. تماماً كما حدث مع «فرانكشتاين».. وأصبحت محاولة السيطرة عليه مستحيلة.. لكنه مع ذلك، ليس حالة جديدة في تاريخ الإنسان.

لقد غزت هذه الصنمية حتى رجال الدين والرهبان وأتباع الديانات السماوية من اليهود الذين (اشربوا في قلوبهم العجل) والنصارى (الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله...).. وغيرهم كثيرون..

والذي يحدث الآن.. محاولة جديدة لتغطية القبح الفرانكشتايني برداء جميل من التنظير..

هذه المرة تجيء المحاولة من قلب العالم الرأسمالي بصيغة نظرية جديدة يضعها مفكر يدعى «فرنسيس فوكوياما» باسم «نهاية التاريخ»..

وقبلها بقرن واحد نُفذت المحاولة على يد مؤسسي الماركسية الكبار: ماركس وأنكلز، وبزاوية مضادة تماماً تبلغ مائة وثمانين درجة!

من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين.. والنبض الديني الذي يتعبّد الاقتصاد ويتخذه إلهاً، هو نفسه هنا وهناك.. فرعان لحضارة مادية واحدة، كما يقول (جيو روجيو) في «الساعة الخامسة والعشرون».

سقطت المحاولة الأولى بعد قرن ونصف من محاولات التجربة والخطأ.. أما نظرية (نهاية التاريخ) فسوف تفترس ـ بالتأكيد ـ زمناً آخر من عمر الشعوب قبل أن ينكشف زيفها وضلالها.

إن تجريد العالم من بطانته الروحية.. والوجود من تجذّره في الغيب، ومنح السلطة المطلقة للاقتصاد، سوف يميل بالميزان للمرة العشرين أو الخمسين في تاريخ الإنسان، الذي سيكون في البدء والمنتهى الخاسر الوحيد..

أدرك هذا العديد من مفكري الغرب وفلاسفته وباحثيه.. ليوبولد ڤايس (محمد أسد) ـ مثلاً ـ يؤكد على أن عصرنا هذا «بحاجة إلى إيمان يجعلنا نفهم بطلان الرقيّ المادي من أجل الرقيّ نفسه، ومع ذلك يعطي الحياة الدنيا حقها. إيمان يبيّن لنا كيف نقيم توازناً بين حاجاتنا الروحية والجسدية وبذلك ينقذنا من الهلاك الذي نندفع إليه برعونة وتهوّر».. جورج سارتون الذي غرق في دراسة تاريخ العلوم حتى شحمة أذنيه، يحكم على «التقدّم المادي الخالص» بأنه أمر «مدمّر» وأنه «ليس تقدماً على الإطلاق بل تأخّر أساسي» ذلك «أن التقدم الصحيح ـ ومعناه تحسين صحيح لأحوال الحياة ـ لا يمكن أن يبنى على وثنية الآلات ولا على العتلات.. ولكن يجب أن يقوم على الدين.. على محبة الله..».. لقد سيطر على العالم ـ كما يقول روجيه كارودي في (وعود الإسلام): «نموذج جنوني من النموّ.. لا يمكن أن يعاش» وها هي ذي «الصنمية» ـ كما يسمّيها «تفرّخ وتكاثر في مجتمعاتنا: صنم النمو.. صنم التقنية العلموي.. صنم قوة الأسلحة

والجيوش، بمحذوراتها جميعاً ومحرّماتها وبرموزها المقدسة وبطقوسها».

ومن وراء هذه الأصنام جميعاً يتربّع إله الاقتصاد على جبل النظام العالمي الجديد.. أولمب القرن الحادي والعشرين، محاولاً أن يهيمن على كل شيء..

[3]

تعويم التاريخ، أو إلغاء الذاكرة التاريخية للأمم والشعوب ستقود ـ بالضرورة ـ إلى انزلاقات خطيرة قد تذهب بهذه الأمم والشعوب إلى غير ما كانت تودّ الذهاب إليه.. إنها أشبه بالتلويح بالحلوى للأطفال والصبيان لكي يتركوا آباءهم وأمّهاتهم ويندفعوا وراء الإغواء.. ثم ما يلبثوا أن يجدوا أنفسهم بلا آباء ولا أمّهات.. مرتجفين خائفين وراء الزمّار السحري الذي يقودهم إلى الضياع..

إن المناورة، بهذا المعنى، ستمنح الماسونية سلاحاً جديداً.. والماسونية لا تريد ـ هي الأخرى ـ سوى التحقّق بقدرٍ من التسوية قبالة الوهم الإنساني حيث ينزع ابن آدم جلده، ويتخلّى عن هويته، ويهرع لكي يندمج في واحدة من أكثر ممارسات العقل الجمعي غواية وضلالاً..

«نهاية التاريخ» تجيء أيضاً.. وكأنها قد وقّتت على عقارب ساعة محكمة الصنع.. زمن ما يسمى بالتطبيع مع العدوّ الصهيوني.

[4]

لنرجع سنوات قليلة إلى الوراء.. لقد بدأت أولى محاولات مسح الذاكرة التاريخية بإجراء تغييرات خفيفة في المعطيات التربوية والإعلامية والثقافية لشعوب الإسلام.. لمسة هنا وأخرى هناك.. تأكيد على عناصر الوفاق التاريخي والديني والحضاري بين المسلمين وعدوّهم.. وتجاوز

لحلقات الصراع، والغدر، والخيانة.. من أجل «نسيان الماضي» والانفلات من أسر الأحقاد المتأصلة، والوصول معاً إلى صعيد الإلفة والمحبة والقدرة على الاندماج الاجتماعي والثقافي والحضاري.

بين من؟

بين القاتل والقتيل!!

بين من لا يزال يخفي السكّين وراء ظهره ينتظر الفرصة.. وبين الضحية.

بمرور الوقت أخذت تتشكل لجان شتى لإعادة النظر في المناهج الدراسية في ديار العرب والمسلمين.. لجان ينضوي تحت غطائها العلمي المخادع خبراء يهود وأمريكان جنباً إلى جنب مع تربويين من أبناء العروبة والإسلام أنفسهم.

نقْض اليهود لعهدهم مع رسول الله ﷺ في سنوات الهجرة الأولى لا لزوم له.. فتنة سوق الصاغة في حيّ بني قينقاع خارجة عن المطلوب.. محاولة بني النضير اغتيال رسول الله ﷺ تثير الأحقاد.. غدر بني قريظة زمن حصار الأحزاب القاسي، حلقة محزنة.. اقتحام خيبر تجدّد الضغائن.. وفي كل الأحوال يفضّل إلغاء هذه الوقائع من مفردات المناهج التدريسية، ويفضّل أيضاً أن تحلّ محلّها كل الخبرات والتجارب التي تجعل الوجدان المسلم يتقبّل اليهودي ويربّت على كتفيه.

في إحدى البلدان العربية ـ على سبيل المثال ـ أُسس «مركز تطوير المناهج» سنة 1990 م بأموال معونة أمريكية وقد ضمّ هذا المركز 29 مستشاراً أمريكياً من الاختصاصيين الذين يعملون أصلاً في مركز تطوير التعليم في واشنطن. وبين هؤلاء المستشارين الأمريكيين اثنان من اليهود. وقد عمد المركز إلى إعادة النظر في تدريس مادة الحضارة الإسلامية ومادة التربية الدينية وعلوم القرآن والسيرة النبوية. وقد قلّصوا في التاريخ

الإسلامي فترة الفتوحات الإسلامية وحذفوا تدريس تاريخ الصراع العربي ـ اليهودي، كما حذفوا من علوم القرآن تدريس الآيات التي تلعن اليهود أو تشير إلى عداوتهم ومكرهم، وحذفوا من السيرة تدريس حروب الرسولﷺ مع اليهود.. وفي التربية العامة للشعب يتدخل هذا المركز لتوجيه المواد الإعلامية في الإذاعة والتلفزيون والصحف بحيث تنسجم مع ما تقرّر في منهج التعليم.

هذه كلها مجرد محاولات تدبّ على استحياء، وهي لا تعدو أن تكون رقعاً محدودة في نسيج التاريخ الكبير الذي لا أوّل له ولا انتهاء.

هنا تصير نظرية فوكوياما عن نهاية التاريخ، بقوّتها التنظيرية وإغوائها، وبالتحليلات المدعمة بالأدلة والوقائع التي اعتمدتها، فرصة لتجاوز مرحلة الترقيع في عملية التطبيع والتحوّل إلى الإجهاز الكامل على التاريخ، وفتح الطريق على مصراعيه للقاء المسلم واليهودي على صعيد واحد يستوي فيه في الظاهر هذا وذاك.. ولكن فيما وراء القشرة الخادعة تتشكل واحدة من أبشع عمليات القهر الجماعي في التاريخ.

لقد مارست الماسونية، بشكل من الأشكال، اللعبة نفسها، ومن خلال الإلحاح على التسوية نفِذ العقل اليهودي لكي يتمركز في المفاصل الحسّاسة ويحوّل المنتمين للحركة إلى أدوات صمّاء تنفّذ ولا تناقش حتى وهي تمارس الانتحار.

ومارستها الشيوعية.. ومن خلال إلحاحها على التسوية صعد الانتهازيون والأفّاقون، وضاع العمال.. ازداد الروس غنى وجبروتاً وجاهاً، واستعبدت عشرات الأمم والشعوب والجماعات.

ها هي نظرية (نهاية التاريخ) تضع (الرَّسن) بيد العقل الغربي هذه المرة متمثلاً بأمريكا، وهي بتنظيراتها للنظام العالمي الجديد.. بحكمها بالإعدام على كل ما يربط الإنسان بالعقيدة والأرض والتاريخ.. توظّف

خبرات الماسونية والشيوعية وتضيف إليها قيماً وأبعاداً أخرى. . وأيضاً، ومن خلال التسوية المطلقة للأمم والشعوب قبالة المطالب الاقتصادية، سيزداد القوي قوة والضعيف ضعفاً، وستشهد البشرية حلقة محزنة أخرى، من أشد الحلقات تعاسة وضلالاً. .

من سيكون خاسراً في لعبة فوكوياما، من سيخرج مهزوماً في زمن يتطلب من العربي المسلم استفزاز ذاكرته التاريخية، عمقه التاريخي. . حشد كل عناصر التأصيل والفاعلية التي تستمد نسغها من العقيدة والتاريخ لمجابهة محاولة الاحتواء الصهيوني الأمريكي التي تستهدف تسوية الأميين، كما يسميهم العهد القديم، من أجل سوقهم إلى المذبح كالأنعام؟

فليس عبثاً، وحاشا لله، أن يمنح القرآن الكريم المسألة التاريخية أكثر من ثلثي مساحته. . وليس عبثاً أن يقف عنده كبار الفلاسفة لكي يستمدوا من معطياته قوانين الحركة ونواميس السعي البشري في العالم.

وأمتنا في اللحظات الراهنة بأمس الحاجة لاستدعاء التاريخ من أجل أن تجد ذاتها وتعثر على هويتها الضائعة في هذا العالم. . من أجل أن تتجذّر في خصائصها وتعمّق ملامحها وتضع اليد على نقاط التألّق والمعطيات الإنسانية والرصيد الحضاري لكي تستعيد ثقتها بذاتها وتتبيّن ملامح دورها الأصيل عبر دوّمات الصراع الحضاري الراهن التي تتطلب ثقلاً نوعياً للأمم والشعوب وهي تجد نفسها قبالة مدنية الغرب الغالبة. . إزاء حالة من تخلخل الضغط وانعدام التوازن الجوّي الذي يسحب إلى المناطق المنخفضة رياح التشريق والتغريب وأعاصيرها المدمّرة.

[5]

إنّ «نهاية التاريخ» بما تنطوي عليه من إلغاء للتاريخ إنما هي رؤية خاطئة تتشكل على النقيض من قوانين التاريخ. .

إن التغاير والاختلاف والتدافع والتنوّع.. هي في صميم النشاط البشري عبر مسيرته التاريخية الطويلة: **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾** [البقرة: 251] **﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾** [هود: 119] **﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾** [الحجرات: 13].

إزاء هذا فإن أية محاولة لإلغاء الذاكرة التاريخية، بحجّة التسوية قبالة المطالب الاقتصادية، ومقولات التكنولوجيا، إنما هي قفزة في الفضاء.. تهميشات على سطح الجليد الذي لا يظهر منه للعيان سوى واحد من عشرة من عمقه الحقيقي والذي لن يلبث طويلاً حتى يتعرض للذوبان.

لقد جبلت النفس البشرية على الانتماء للتاريخ.. كل محاولات فك الارتباط بين الإنسان وتاريخه باءت بالفشل، وبقي العمق الزمني الذي ينطوي على الخصائص والمقومات، ماضياً لكي يعمل عمله في صميم الممارسات والخبرات.

باختصار.. إننا إذا أردنا أن نجد ذاتنا فإن علينا أن نتجذّر في اثنتين: العقيدة والتاريخ..

وليست نظرية «نهاية التاريخ» إزاء هذا كلّه سوى محاولة مترعة بالمخاطر لفك الارتباط بالجذور.. وتعويم الإنسان المسلم نفسه..

ملاحظات في وضع الأمة المسلمة
الجذور والاحتمالات الممكنة

ابتداءً.. علينا أن نتجاوز الرؤية أحادية الجانب، أو النظر إلى الظاهرة من زاوية واحدة، وحينذاك قد نجد في وضع الأمة المسلمة في القرن العشرين سياقات صاعدة وأخرى منحدرة، وبمتابعة عوامل الصعود والانحدار يمكن أن نضع أيدينا ـ وبشكل تقريبي ـ على خرائط هذه الأمة في القرن العشرين الذي يوشك على الانصرام.

وبالمنهج نفسه يمكن أن نتابع كل سياق وسنجد حينذاك أن حالة الانحدار لا ينفرد بها عامل واحد، وكذلك حالة الصعود. قد يطغى عامل أو أكثر في مرحلة أو بيئة ما ـ لسبب أو آخر ـ فتتضاءل إزاءه أو تغيب العوامل الأخرى، ولكن تبقى الظاهرة، في معظم الأحيان وليدة عوامل شتى.

إن ما وصلت إليه الأمة في لحظاتها الراهنة ينطوي على تراكم في الخبرة تعلّمت منه الكثير، لكنه يضمّ جناحيه في الوقت نفسه على وقر الأخطاء الكبيرة والممارسات المنحرفة عن سويّتها والتي مارست جميعاً إعاقة وشدّاً باتجاه ما يمكن تسميته بنقطة الصفر أو ما دونه، فجعلت الأمة ـ أحياناً ـ تتقدم خطوة وتتراجع اثنتين لكن هذا لم يكن القاعدة دائماً، سواء بمستواها التاريخي المنظور أو الجغرافي أو الغيبي (الميتافيزيقي)،

فقد يحدث صعود هنا وانحدار هناك في اللحظة الواحدة، وقد تتجاوز خطوات الصعود مديات الانحدار. فالتاريخ كما هو معروف لا يقاس بالمسطرة والفرجال.

ومهما يكن من أمر فإن الوضع الذي بلغته الأمة في النصف الثاني من القرن العشرين لا تحسدها عليه أمة أخرى في العالم، بمعنى أن عوامل السلب احتلّت فيه مساحات ليست بالهيّنة. هذه العوامل التي لم تتشكل في الفراغ أو تبرز على حين غفلة، وإنما تشكّلت على مكث وراحت تتنامى في الكمّ والنوع عبر عقود بل قرون من الزمن لكي تصل بالأمة إلى الوضع الذي تقبل فيه بلسان المقال أو الحال، الصلح مع إسرائيل مقابل فتات من الأرض المغتصبة لا تكاد ترى على الخارطة.

لا بدّ إذن من متابعة الخبرة التاريخية فقد يكون في عمقها الزمني ما يلقي الضوء على أسباب التخلّف والانهيار، ولذا فإن هذا المقال الموجز سيقف عند هذه النقطة بالذات.

فمنذ زمن بعيد قد يمتدّ إلى تسعة قرون أو عشرة فكّ الكثير من المسلمين الارتباط بين الإيمان ومقتضياته العملية وراحوا يتعاملون معه برؤية إرجائية تكتفي بالحدّ الأدنى وتعزل العبادة عن فاعليتها في الأرض، أي أنهم مارسوا حالة معكوسة، فبينما أراد الإيمان (الإسلامي) أن يضعهم في بؤرة الفاعلية.. أن يجعلهم حاضرين في دائرة الفعل والإبداع، أي متحضّرين، اختاروا أن ينسحبوا شيئاً فشيئاً وأن يتركوا الفاعلية لخصومهم (في الداخل والخارج) وأن يتحوّلوا بمرور الوقت إلى كمٍّ لا يملك قدرة حقيقية على الصيرورة والتنامي، وبالتالي لا يملك ثقله في مجابهة التحدّيات التي راحت تتداعىٰ عليه من كل جانب حتى وصلت بالأمة إلى الهزيمة المؤكدة على أكثر من مستوى فيما سبق وأن حذّر منه رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها)، فلما سأله أصحابه (رضوان الله عليهم): أمن قلّة نحن يومئذ

يا رسول الله؟ كان جوابه: (بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل).

ومع الموقف الإرجائي سادت روح التقليد والاتباع بدلاً من التجديد والاجتهاد والإبداع التي وضعت الأمة المسلمة في الصدارة بين الأمم بسبب قدرتها عبر القرون الإسلامية الأولى على الكشف والابتكار والإضافة النوعية والبحث عن الجديد في السياقات الحياتية والمعرفية كافة. ها نحن الآن في القرون التالية قبالة سيل من الحواشي والذيول والتهميشات التي لا يجد أصحابها في أنفسهم القدرة، أو الثقة، لتجاوز التعلّق بمعطيات السابقين وأن يقولوا ما عندهم ابتداء كما فعل الآباء والأجداد زمن تألّقهم الحضاري. ولطالما دعا القرآن الكريم ورسول الله ﷺ في حشود لا تكاد تحصى من الآيات والأحاديث إلى ضرورة العمل والإضافة والإبداع، وإلى عدم الالتفات إلى الوراء، إذا اقتضى الأمر، من أجل الاستجابة للّحظة التاريخية والإصغاء لنداءات المستقبل: **﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾** [البقرة: 134] **﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾** [الزخرف: 23] وبموازاة السلبية والتقليد كانت خيوط الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي يزداد نسيجها مساحة يوماً بعد يوم لكي يغطّي المدى الأوسع فيأكل كالمنشار قدرات الأمة واستعداداتها المتبقية ويقودها أكثر فأكثر صوب مواقع الانعزال والإتكالية والسكون.

ولقد تركت هذه العوامل الثلاثة فراغاً كبيراً في عقل الأمة وروحها وجعلتها تعاني مما يمكن تسميته بانخفاض الضغط الذي يسحب إليه بحكم قوانين الحركة التاريخية، الرياح المدمّرة التي تهبّ عليه من الداخل والخارج. فما لبثت أن طغت على الساحة حالات التوجّه الرهباني ـ الصوفي المنحرف عن سوّيته المعتدلة، المنسحب أكثر فأكثر من مواقع الفاعلية والحياة، وهبّت على العقول والنفوس سموم الخرافات والسحر والشعوذة والدجل والأوهام فيما سبق وأن حذّر منه كتاب الله وسنة

رسولهﷺ من أجل ألاّ يستأثر بالحياة الإسلامية فيسوقها إلى مواقع الشذوذ والانحراف.

وثمة الخطأ الذي لا يقل أهمية (والخطأ كما يقول السياسي الفرنسي تاليران أكبر من الجريمة) والذي مارسته القيادتان المتأخّرتان في تاريخنا: المماليك والعثمانيون، فهما على دورهما المؤكّد في مجابهة الخصم وملاحقته، أهملتا التصنيع بشكل ملحوظ ولم تستجيبا بالقدر المطلوب لتحديات التكنولوجيا الغربية وبخاصة تكنولوجيا التسليح، وراح الفارق يتزايد بمرور الوقت بين عالم الإسلام المتخلّف والغرب المتفوّق بحيث أصبح تخطّيه أو عبوره في القرن العشرين بحاجة إلى معجزة تصنع المستحيل.

هذا ـ بإيجاز شديد ـ ما كان يحدث في نسيج الحياة الإسلامية فيدمّر العقول والنفوس والأرواح ويصدّ الأمة عن التحقّق بمطالب المجابهة والقوّة وحماية الذات.

ومن الخارج هبّت أعاصير أخرى لا تقل ضراوة وعنفاً، لكنها ما كانت لتؤدّي مهمّتها المدمّرة لو أن الأمة امتلكت الحدّ الأدنى من مقتضيات البقاء التي أكّد عليها الإسلام ودعا إلى التحقّق بها صباح مساء.

لقد كان على عالم الإسلام أن يصارع الغزاة (الخارجيين) المحمّلين بكل حيثيات «الغزو» بدءً بتجاوز المطالب الأخلاقية والإنسانية التي يعرفها المسلم جيداً في لحظات الصراع، وانتهاء باستخدام السلاح الأكثر فاعلية لسحق الخصم. كان على عالم الإسلام أن يصارع الغزاة لمدى يقرب من ألف عام!! كانت الغزوات الخارجية تضربه خلالها الواحدة تلو الأخرى دون أن تترك له فرصة لالتقاط الأنفاس وإعادة ترتيب أوضاعه وقدراته بما يمكنه من حماية الأرض والذات. ولقد استنزف هذا من الأمة المسلمة الشيء الكثير وأعان عوامل الشدّ والتخلّف والإعاقة على أن تزداد فاعلية وامتداداً على حساب عوامل التقدّم والإبداع والصعود.

فمنذ أخريات القرن الخامس الهجري رمت أوروبا بثقلها تحت مظلّة الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمن، ثم ما لبثت الهجمات المغولية أن لحقت بها لكي ترمي بثقل آسيا الوسطى، بكل عنفه وقسوته وبربريته، عالم الإسلام على مدى يقرب من القرن. وتتابعت من بعدهما الغزوات: حركة الاسترداد الإسباني (الريكونكويستا) التي نفّذت، بعد انتصارها، واحدة من أبشع عمليات الاغتيال الديني والفكري والحضاري والجسدي في التاريخ.. حركة الالتفاف الإسباني ـ البرتغالي.. حركة الاستعمار القديم.. وصولاً إلى الاستعمار الجديد (الامبريالية) بجناحيه الرأسمالي والشيوعي وظهيره الصهيوني.

وعندما أطلّ ما يسمى خطأ بعصر النهضة، بسبب من ارتباطه بالغزو الفرنسي لمصر في أخريات القرن الثامن عشر، كان الفارق في المدنية، وبخاصة تكنولوجيا القوة، قد ازدادت هوّته اتساعاً بيننا وبين الغرب، الأمر الذي يفسّر، إلى جانب عوامل عديدة أخرى، فشل معظم محاولات الإصلاح والحركات الجهادية التي صُفيّت الواحدة تلو الأخرى.. لم يكن يعوزها الفكر ولا الإيمان ولا الفدائية، ولكن وببساطة تامة كان يعوزها السلاح!

لقد قامت حركات المقاومة كالسنوسية والمهدية كردّ فعل ضد الاستعمار وكان عليها أن تنوء بعبء الفارق الكبير في التسليح فضلاً عن زخم الاندفاع الستراتيجي للقوى الغالبة ورغبتها الأكيدة ـ المبطنة بالبعد الصليبي ـ في احتواء العالم الإسلامي وعدم إتاحة أية فرصة لاستعادته أيما قدر من الحيوية والنموّ والاستقلال تحت مظلّة الإسلام الذي تأكد للغرب كم أنه الجدار الأشد صلابة في مواجهة الخصم.

ثم أن أية حركة في التاريخ لا تتشكل ـ ابتداء ـ وفق شروط موضوعية، وإنما تجيء كرد فعل على حالة تاريخية، ستعاني من كثير من عناصر الخلل ونقاط الضعف التي ستكون بمثابة المقتل الذي تغوص فيه سكّين الغالب.

أما الدعوات الإصلاحية غير المسلّحة فإن مشكلتها أنها ـ في معظم الأحيان ـ لم تنتشر بين الجماهير وظلّت منعزلة عن الأمة الإسلامية ومطالبها الملحّة في التحقّق بالمقاومة والتحرّر وإعادة بناء الذات قبالة التفوق والاستعمار الغربي. لقد ظلت هذه الدعوات في معظم نسيجها أنشطة شبه أكاديمية.. مشاريع فكرية مطروحة على الساحة (دعوة الكواكبي مثلاً) قبالة تحديات التمزيق الغربي.. وزاد الأمر سوءاً تبنّي بعض هذه الحركات أو تعاطفها على الأقلّ، مع الأنشطة الإقليمية، وأحياناً اللادينيّة، ضد حركة الجامعة الإسلامية التي تبنّتها الدولة العثمانية قبل سقوطها الأوّل والحاسم على يد الاتحاديين.. وبالتالي فإن هذه الدعوات لم تجد لها سنداً في البيئة والجماهير الإسلامية لكي تتحوّل إلى فعل تاريخي مؤثّر. بل حدث ـ أحياناً ـ أن مارست هذه الدعوات، بدرجة أو أخرى، خطأين قاتلين أكّدا انفصالها عن الجماهير الإسلامية وعدم قدرتها ـ بالتالي ـ عن التحقّق التاريخي وتجاوز دفّتي (المؤلَّف) الذي أسرها، إلى الشارع والمؤسسة والمدينة والميدان، بل إنه عزلها ووضعها في بعض الحالات في دائرة التساؤل والشبهات.

فأما الخطأ الأوّل فهو إقامة جسور بشكل ما مع الخصم الغالب، إن على مستوى الفكر أو الممارسة السياسية، أو حتى العلاقات الشخصية (محمد عبده وبلنت مثلاً). وأما الخطأ الثاني فهو أنها عزلت نفسها عن حركة الجهاد المسلّح، بل ـ ربّما ـ افتت بعدم شرعيته أو على الأقل بعدم جدواه، فكأنها طعنت ظهر الجهاد الإسلامي من الخلف لصالح الخصوم.

❁ ❁ ❁

باختصار شديد.. إننا محمّلون بوقر التاريخ.. تراكم أخطاء الآباء والأجداد التي تمحورت عند خطيئة عدم الاستماع جيداً لنداءات القرآن، وتعاليم رسول الله ﷺ وما تنطويان عليه من كشف وإضاءة لقوانين الحركة التاريخية. لقد دعانا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى منظومة من الممارسات

والقيم الفاعلة في صميم العصر: تحرير العقل البشري والإرادة الإنسانية من الكوابت، التعامل الجاد مع الزمن والكتلة المادية (المكان)، رفض التشبث الأعمى بالماضي وتقليد الآباء والأجداد، إدانة الأوهام والظنون والأهواء والسحر والخرافة، التأكيد على أهمية العقل والحواس في التعامل مع العالم، الإعلان عن مبدأيْ (التسخير) و (الاستخلاف) اللذين لن يتاح لهما التحقّق دون الكشف عن الطاقات المادية وإدراك قوانينها والإفادة من قدراتها المذخورة. هذا إلى تأكيد القرآن الكريم الواضح، في مقاطع شتى، على ضرورة التطبيق الصناعي كشرط من شروط حماية الإيمان في العالم من مثل المقاطع الخاصة بإعداد القوة، واعتماد الحديد لأغراض السلم والحرب، وواقعة ذي القرنين لحماية المستضعفين في الأرض، والتطبيقات الصناعية المعروفة في ظلال نبوّة داود وسليمان عليهما السلام.

لم يستمع أجدادنا في العصور التالية للنداء، وعندما استيقظنا وبدأنا فاعليتنا في مواجهة تفوّق الآخر، كنّا قد غيّبنا الدين في معظم مساحات حياتنا فأصبح الفعل لا برنامج له، وضاعت البؤرة التي تستقطب الأفعال ففقدت قدرتها على التأثير وأفلتت من بين أيدينا فرصة الحضور المؤكد في قلب العالم والمشاركة في صياغة خرائطه.



والآن فإنني سأتجاوز مرحلة الصحوة الإسلامية الثانية بحلقاتها الثلاث التي غطت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وصولاً إلى مشارف القرن الجديد، والتي أفادت ـ بدرجة أو أخرى ـ من أخطاء وتناقضات الصحوة الأولى في القرن الماضي وبدايات هذا القرن.. سأتجاوزها لأنها ستكون مجالاً لأقلام العديد من الباحثين في هذه الحلقة الخاصة من «قضايا وآراء» وسأقف لحظات عندما يسمّى بالعصر الجديد الذي بدأت ملامحه تتشكّل عبر العقدين الأخيرين.. عصر النظام العالمي الموحّد الذي تكاد تتفرّد بقيادته دولة واحدة، حيث ينضاف إزاء المسلمين تحدٍّ جديد

قبالة كل المحاولات التي تسعى للنهوض بهم، خاصة وأن الإسلام أصبح ـ بعد انهيار الشيوعية ـ يمثّل خط المواجهة الأوّل، وحيث يبرز حشد من الأسئلة الملحّة التي تنتظر الجواب.

ولن يتّسع المجال للدخول في التفاصيل ولكنّي سأؤشّر في ختام هذه الصفحات على اثنتين ما دمنا بصدد قوانين الحركة التاريخية، أولاهما احتمالات دوام نظام موحّد تستقطبه قوة واحدة، وثانيتهما مجالات العمل الممكنة للأمة المسلمة قبالة هذه الصيغة الدولية الجديدة.

إن (التوحّد) الغربي قبالة الشرق ليس بالضرورة الوجه الأوحد للصورة، فهنالك ـ لحسن الحظ ـ الوجه الآخر: إنها الثنائية التي تخترق القاسم المشترك الواحد بقوّة المذهب أو الفكر أو المصلحة، وتحيله إلى تشرذمات ثنائية متصارعة داخل الساحة الغربية وفي مواجهة (الآخر).

وعبر التاريخ الغربي كانت دائماً هناك روما بمواجهة أثينا، والبابوية بمواجهة القسطنطينية، والرومانية المقدسة بمواجهة البابا، وفرنسا بمواجهة بريطانيا وألمانيا وروسيا، وبريطانيا بمواجهة القارة، والمحور بمواجهة المستعمرين القدماء، وأمريكا بمواجهة بريطانيا، والاتحاد السوفياتي، وأوروبا الغربية بمواجهة أمريكا.

ومعنى هذا أن تفرّد قوّة غربية واحدة بالسلطان أمرٌ يكاد يكون مستحيلاً على المديات الزمنية الطويلة نسبياً، وأن الثغرة التي قد ينفذ منها الإسلام المحاصر ستتشكل، أو هي قد تشكلت فعلاً بحكم قوانين الحركة التاريخية وسننها التي طالما حدثنا عنها كتاب الله: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم﴾** [هود: 118] **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾** [آل عمران: 140] **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾** [البقرة: 251].

ومعنى هذا أيضاً، أن على عالم الإسلام اليوم ألاّ تذهب به الهزيمة النفسية إزاء التفرّد الأمريكي إلى المدى، وأن يبذل جهده لكي يتماسك وينهض، مستفيداً من حالة الثنائيات الغربية المتولّدة باستمرار.. من الثغرات التي تفتحها في جدار الغالب. وقبل هذا، من قدرات الإسلام الذاتية على كل المستويات النفسية والفكرية والستراتيجية والاقتصادية، والحضارية في نهاية الأمر. وهي ـ بتميّزها العقدي وعمقها التاريخي ـ ليست كلاماً يقال ولا أنشودة يتسلّى بها المهزومون، ولكنها فاعلية في صميم الصيرورة التاريخية، قديرة في حالة اعتماد الصيغ المدروسة والمحسوب حسابها، على أن تحمي الوجود الإسلامي من التفكك والذوبان. بل ـ ولن يكون هذا من قبيل التفاؤل والتخمينات ـ أن تمضي ثانية باتجاه مواقع أكثر تقدّماً على خرائط العالم المعاصر، لكي تشارك في اتخاذ القرار وصياغة المصير.

إن ألفيْن من السنين تنسجان اليوم حيثيات الصراع بين الغرب والإسلام، ولكنْ في أيّ من هاتين الألفيْن قدر الغرب على أن ينتزع عن الشرق جلده المتميّز؛ في أيّ منها ألقى الإسلام السلاح وارتمى ـ مغلوباً على أمره ـ في أحضان الغالبين؟ إن ما سبق قد يكون من قبيل التعميمات التي لا رصيد لها في «الميدان» ولا بدّ ـ إذن ـ من الانتقال من العام إلى الخاص والتأشير بالإيجاز الذي يتطلّبه مقال كهذا على عدد من المقترحات، أو لنسمّها وجهات نظر أولية قد تضيء الأفق المعتم أو تشعل ناراً هنا وخبرة هناك:

أولاً: التحقّق بالمزيد من تحصين الذات العقدية والحضارية بمواجهة قوى الغزو والتفكيك الفكري، واعتماد المؤسسات الفكرية والاعلامية والتربوية والاكاديمية كنقاط ارتكاز لعملية التحصين، وتصعيد الاستفادة من الصحيفة والدورية والكتاب، والمسجد والندوة والمؤتمر في البناء النفسي والفكري.

ثانياً: التحقّق بالمزيد من الإعداد على مستوى تقنيات التسليح، وكسر الاعتماد على نظام المصدر الواحد، والإفادة من التناقضات الدولية القائمة والمحتملة للحصول على السلاح. ووقف هجرة العقول عن طريق منح الضمانات الكافية، وتهيئة البيئة العلمية المحفّزة للعطاء والإبداع، وتنفيذ برامج شاملة ودقيقة لتبادل الخبرة التقنية بين علماء المسلمين، وتأسيس دوافع جذب وإغراء للعلماء الغربيين للعمل داخل عالم الإسلام.

ثالثاً: الإفادة من التناقضات والمتغيرات السياسية والاقتصادية القائمة والمتشكّلة والمحتملة من مثل: أوروبا الموحدة قبالة أمريكا.. اليابان.. الصين.. دول العالم الثالث.. فضلاً عن العمق الإسلامي الذي ازداد امتداداً بانهيار الاتحاد السوفياتي.

رابعاً: استخدام الموقع الستراتيجي والخزين الاقتصادي الإسلامي كورقة ضغط ضد القوى العالمية المتسلّطة، والسعي للاحتفاظ بالخزين الاحتياطي (وبخاصة النفطي والمعدني) وعدم السماح بهدره أو استنزافه على مديات زمنية متقاربة وتحت غطاء أي مبرّر من المبرّرات.

خامساً: الاستفادة القصوى من القوى (الديموغرافية) الإسلامية داخل المجتمعات الغربية بتحويلها إلى نقاط ضغط إزاء مراكز اتخاذ القرار، أسوة بما فعلته الحركة الصهيونية، واستناداً إلى الارتباط الديني والفكري بين هؤلاء المسلمين وبين إخوانهم على مدى عالم الإسلام، وتفاعلهم الصميم مع قضاياهم المصيرية من جهة، وتمركز مساحات واسعة من المصالح الغربية في عالم الإسلام من جهة أخرى.

سادساً: التحقّق بصيغ مرنة للمّ الطاقات السياسية والعسكرية والاقتصادية الإسلامية بصيغة كومنولث إسلامي، أو اتحادات فدرالية إقليمية، أو وحدات نوعية متجانسة على مستويَيْ الجغرافيا السياسية والبشرية.

سابعاً: تنمية وتعميق القدرات الجهادية لدى القواعد الإسلامية على مستوى الجماهير العريضة بحيث يصعب توجيه ضربات قاتلة إليها، وتظل ـ بالتالي ـ بمثابة خطّ الرجعة المتجذّر في الأرض، القدير على حماية الذات الإسلامية بمواجهة محاولات التدمير والتفكيك والإبادة والاحتواء.

ثامناً: تصعيد وتائر تبادل الخبرة بين القوى الإسلامية الشعبية على مستوى عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه، وتشكيل علاقات اتحادية ذات مفاصل مرنة بين بعضها والبعض الآخر.

تاسعاً: إقامة المعابر والجسور مع القوى الحيادية أو المتعاطفة في العالم، والتي تجد في التفرّد الأمريكي نوعاً من التحدّي أو القلق الذي يزعج تطلّعاتها صوب المصير.

عاشراً: التأكيد المتزايد على هويّة الإسلام الحضارية وقدرته المتجدّدة على العطاء، وفاعليته العالية في طرح الحلول المناسبة لمشكلات العالم والإنسان المعاصر، والمشاركة المؤثّرة في المصير، فضلاً عن التأكيد على عوامل التماثل والتناغم بين المعطى الإسلامي ومعطيات الغير، وبالتالي تحفيز صيغ الحوار بين الطرفين بما يخفّف، بدرجة أو أخرى، من حدّة الرؤية العدائية بينهما، ويمكنّهما من التحقّق بقدر من التفاهم المشترك، حيث سيتاح للإسلام ـ يومها ـ أن يقول كل ما عنده، وأن يدخل، دونما عقد ولا حساسيات، صميم العقل والضمير الغربيين بما يقود إلى تشكّل صيغ ومعادلات جديدة في حوار الحضارات، ويمكّن هذا «الدين» من تنفيذ مشاركة أكبر في نسيج الحاضر والمستقبل البشري على السواء.



قد نرجع، في وقت آخر، للوقوف عند كل واحدة من هذه الإضاءات (العشر) للمّ مفرداتها، واستقصاء أبعادها، ووضع اليد على ما يمكن أن

تقدّمه في معركة الإسلام الراهنة قبالة تحدّيات التآكل والاحتواء والفناء.

ومن يدري؟ فلعلّ في صفحات العدد الذي بين يدي القراء والذي يسهم في نسجه عدد من الكتاب والمفكرين الإسلاميين، مقاطع تقف طويلاً عند واحدة أو أكثر من هذه الإضاءات.. ومن ثم فإن الخوض فيها في مقال كهذا قد يكون نوعاً من التكرار[1].

إن عالم الإسلامي ـ مرّة أخرى ـ يقف اليوم قبالة حالة تاريخية ليست جديدة بالكلية. قد تكون جدّتها في الزخم الكبير الذي تنطوي عليه، بما أنه حصيلة قرون طويلة من التشكّل التاريخي على مستويي الكمّ والنوع، ولكنها ـ في الأساس ـ حلقة في مسلسل طويل يبدأ في (أثينا) ولكنه لن ينتهي في (واشنطن).. فها هي المتغيّرات الأكثر حداثة تطلّ برأسها، ولم يصل النظام العالمي الجديد ـ بعد ـ إلى برّ الأمان: أوروبا الغربية تتوحد ـ ربّما ـ قبالة أمريكا.. الجمهوريات الأوروبية للاتحاد السوفياتي المنحلّ تتكتل، وقد تنضاف إلى أوروبا الموحدة... اليابان تواصل قفزاتها التقنية والاقتصادية بحساب متواليات هندسية قد تحدّ من قدرات التفرّد الأمريكي في المستقبل المنظور.. الصين ودول العالم الثالث قد تخزّ جملتها العصبية إبرة التحدّي الجديد لعالم تهيمن على مقدّراته إرادة واحدة، فتتحرك لتفعل شيئاً، على الأقلّ في سياق الردّ السلبي.. ثم عالم الإسلام الذي طالما دفعته التحدّيات إلى استعادة حيويته وفاعليته.. ليس هذا فحسب فهو فضلاً عن ذلك يكسب عبر سنوات معدودة، وفي أعقاب انحلال المعسكر السوفياتي: عمقاً عقدياً واستراتيجياً وبشرياً جديداً.. خزيناً من الطاقة الإسلامية الواعدة سواء في أفغانستان المحرّرة أم في الجمهوريات الإسلامية الست التي يمكن، إذا أُحسن التعامل السياسي والاقتصادي والعقدي معها أن تغني المجابهة بالمزيد من القدرات.

---

(1) كتبت هذه الصفحات تلبية لاستكتاب دورية (قضايا دولية) التي تصدر في إسلام آباد (باكستان) (كانون الثاني 1994م).

الجدار الأخير

[1]

ونحن نعترف بإسرائيل نكون قد أزلنا الجدار الأخير الذي يفصلنا «عنهم» ويحمينا «منهم»، وحينذاك ستمضي سنن التاريخ وقوانينه لكي تعمل عملها فيما يشبه قانون الأواني المستطرقة في عالم الفيزياء.. فإن المستويات العالية ستغمر بدفقها المستويات الأدنى، وقد يكون هذا الدفق مترعاً بالسموم، محمّلاً بالكدر والأوحال.

أيضاً فيما يشبه اندفاع جيوب الضغط العالي باتجاه مناطق الانخفاض الجوّي، واكتساحها.

فإذا كان بمقدور الفلسطيني والعربي والمسلم أن يتجاوز قوانين الطبيعة والتاريخ.. أن يتمرّد على سنن الله في العالم.. فله أن يقول «للاعتراف» نعم.. لأنه حينذاك سيجد نفسه ندّاً يملك القدرة على حماية ذاته من التآكل والفناء.. وإذْ كان ذلك مستحيلاً فإن الذي سيحدث هو إرغام المهزوم المتمركز في المستويات الدنيا، على التخلّي عن خصائصه ومقوماته شيئاً فشيئاً باسم التطبيع حيناً، وباسم قبول الأمر الواقع حيناً آخر، ومن خلال تلقّي الخبرة والمعونة حيناً ثالثاً، وعبر التلاقح بين الثقافات والأفكار حيناً رابعاً، وحتى تحت مظلة السياحة والترفيه وتناسي

وزر التاريخ حيناً خامساً. . وفي نهاية الأمر فإن نوعاً من (الستربتيز) الجماعي سيشهده العالم المعاصر، وسيؤول، بعد سلسلة من ممارسات التخلّي عن أغطيتنا وسواترنا، إلى أن نقف عراة تماماً قبالة المكر اليهودي الذي سيعرف ـ حينذاك ـ كيف يرغمنا على قبول ما يستر عوراتنا فيزيدنا تهتكاً وضياعاً. .

إننا نفتح أبوابنا ودورنا وعقولنا ووجداننا لأمة ليست كالأمم. . أمة وجدت نفسها محاصرة ـ عبر قرون طويلة ـ بالكراهية والبغضاء. . وبسبب من أفعالها الخاطئة حكم عليها بالنفي والتشرّد في الآفاق، وما لبث زعماؤها السياسيون وآباؤها الروحيّون ـ على السواء ـ أن سوّلوا لها فعل أي شيء من أجل أن تحمي نفسها من تحدّيات البلى والفناء، وأصبحت شعوب العالم وأديانه كلها قبالتهم كما لو كانوا قطيعاً من الخراف التي تستحق الذبح من أجل أن يشبع بنو إسرائيل، بعيداً عن أيّما ضابط أخلاقي أو وازع إنساني.

فمن أجل أن تستمرّ عليك أن تذبح «الآخر». . من أجل أن تشبع عليك أن تأكله. . إن المنظور اليهودي لغير اليهودي انطوى بمرور الوقت على أبشع صيغ العرقية التي برّرتها التوراة المحرّفة وهي ترسم صيغ التعامل مع «الأمميين».

وإذا كانت التلمودية قد خطّطت الملامح، ووضعت التأسيسات الأولى فإن الصهيونية مضت باليهود قدماً، بقوة التنظيم، وتوظيف المال والجنس، وتحفيز عقدة الكراهية، وممارسة الضغوط بكل أسلوب، لكي تتحقق بالمزيد من حماية الذات، والهيمنة على مقدرات الأمم والجماعات والشعوب. وبسببٍ من التزامن التاريخي بين هؤلاء وبين البيئات الحضارية الغربية، فإنهم اقتبسوا الكثير، فأخذوا وأعطوا، وصاروا بمرور الوقت يمثلون خلاصة الخبرة الحضارية الغربية متشكلة بملامح ونَسخ يهودي، فازدادوا ـ بذلك ـ قدرة على الفاعلية والتأثير.

[2]

في اليوم التالي لقبول عبد الناصر بمبادرة روجرز السلمية في تموز عام 1970 م التقيت في كلية الآداب في جامعة الموصل، حيث كنت أعمل، مع اثنين من الأساتذة المصريين كانا يعملان منتدبين في الكلية نفسها.

فوجئت بملامح الرضا والارتياح تغمر وجهيهما.. كأنهما وجدا في قبول المبادرة المفتاح الضائع الذي طال البحث عنه.. كأنهما كانا يحسّان بعبء التاريخ المشحون بالحرب والدم والكراهية، قد أزيح فجأة عن كواهل المصريين جميعاً. وقال أحدهما: لقد دفعنا كثيراً فلم نحصل على شيء، وآن لنا أن نأخذ. وقال الآخر: ما الذي يمنع من أن نفتح أبوابنا لإسرائيل، لكي نرغمها ـ بالمقابل ـ على أن تفتح أبوابها لنا؛ لشدّ ما أحلم باليوم الذي آخذ فيه عائلتي إلى هناك.. ماذا في ذلك؟

حاولت عبثاً أن أقنعهما بأن البعد الحقيقي لصراعنا مع إسرائيل بعد حضاري، لا يقتصر على السياسة والحرب والاقتصاد فحسب، بل يتعداها إلى كل المساحات العقدية والثقافية والنفسية والأخلاقية والسلوكية.. وأن حركة التاريخ لا ترحم، وهي عندما تصعَّد صراعاً بين أمتين إلى المستوى الحضاري فإن نتيجة واحدة يمكن أن تنجم عن هذا الصراع.. لا بديل لها، وهي أن إحدى الحضارتين ستنتصر والأخرى ستفكك وتضيع..

وقلت لهما: إن وجود «إسرائيل» في قلب عالمنا الإسلامي يمثل تركيزاً خطيراً لتحدي الحضارة الغربية (الأوروبية ـ الأمريكية) لنا، مضافاً إليها كل ما يملكه اليهود من قيم ومعتقدات وقدرات ماكيافيلية في عالم الصراع، لذا فهو تحدٍّ مركّب (صليبي ـ يهودي) يسعى لتوجيه الضربة القاصمة للأمة التي طالما انتصرت على هجمات الصليبيين واليهود، وطالما خرجت عبر تحدّياتهم وهي أصلب عوداً وأقدر على الاستمرار.. ومن هنا

نجد هذا التجاوب العميق ـ الذي يبدو عفوياً ـ بين جماهير الغرب وقياداتها المسيحية وبين تطلعات اليهود وأهدافهم. . هذا التجاوب الذي يسود القواعد البشرية المسيحية والذي وجد تعبيره بالإعلان الذي أصدرته البابوية في تبرئة اليهود من دم السيد المسيح عليه السلام وبالمنشور الذي أعقب ذلك معلناً حق اليهود (أرض الميعاد)!

وإذ آنست منهما اصغاءً واصلت حديثي: وهكذا يبدو أن صراعنا مع إسرائيل قد حُشدت له من جهة العدوّ كل قوى التعارض وطاقات الصراع التاريخي الطويل بين الإسلام وخصومه، ومن ثم كان علينا ـ في المقابل ـ أن نمدّ مقاومتنا للعدوان إلى كل مساحاته الحقيقية، وأن نعمل على مستوى التاريخ والحضارة وليس على مستوى الحرب والسياسة والاقتصاد فحسب. وأوّل ما يفرضه موقف شامل كهذا هو ألاّ ندع لليهود فرصة التسلّل إلى مواقعنا الحضارية: ديناً وثقافة واجتماعاً وأخلاقاً وسلوكاً، بعد أن سمحنا لهم بالتسلل إلى مواقعنا السياسية والعسكرية والاستراتيجية، لأن عبورهم التالي سيكون أخطر بكثير، وسيعطي لانتصارهم السياسي والعسكري والاستراتيجي بعده الحقيقي المؤثّر ولسوف يعتمدون هذا التسلل إلى شبكتنا الحضارية لضربنا في العمق، وإفقادنا قيمنا وتراثنا، وتفكيك علاقاتنا وأواصرنا، وتمييع أخلاقنا وسلوكنا. . وسحق إيماننا وصمودنا. . ولسوف ننتهي بأن نغدو كعرب مسلمين خبراً من الأخبار، وسنضيع في غمار التحدّي الحضاري الغربي الذي تمثله إسرائيل مضيفة إليه كل طاقات اليهود وإرثهم التاريخي ورغبتهم المتأصلة في سحق وتدمير كل من يقف في طريقهم بأي أسلوب وبغض النظر عن أخلاقية هذا الأسلوب أو عدم أخلاقيته. .

وبالتأكيد فإن ضربة قاضية كهذه لن تجيء ما دمنا قد سددنا على إسرائيل منافذ التسلل إلى مقاتلنا، وحصرنا نشاطها المعادي وحركتها التاريخية المضادة في نطاق استراتيجية السياسة والحرب. . ولكننا ـ مرة

أخرى ـ سنمنحها هذه الفرصة يوم أن نسمح لأنفسنا وقياداتنا بأن نعترف بها، ونسالمها ونفتح أمامها الأبواب.

لم أتلقّ منهما أي جواب، بالسلب أو الإيجاب.. بينما ظلت ملامح الرضا والارتياح تغمر وجهيهما..

وأنا أغادر الغرفة سمعت أحدهما يقول للآخر: أعتقد أننا تجاوزنا زمن العواطف والشعارات، وأنه آن الأوان للعقل المتبصّر أن ينزل إلى الساحة لكي يرسم المصائر بعيداً عن الصراخ والضجيج.

[3]

الآن، بعد ربع القرن من إعلان الموافقة، التي لم يقدّر لها النجاح، على مشروع (روجرز)، تتم الموافقة على اتفاق (غزة ـ أريحا) ويُعترف بإسرائيل، وما بين المحطتين حلقة الزيارة المعروفة للسادات واتفاقات كامب ديفيد التي لم تهدم بشكل نهائي الجدار الأخير بيننا وبين إسرائيل.. فما الذي يحدث في سياق قانون الأواني المستطرقة، واندفاعات الضغط العالي على مناطق الانخفاض التي نتمركز فيها في اللحظات الراهنة؟

أشياء كثيرة يمكن أن تقال، ليس أقلّها على سبيل المثال، عشرات الآلاف من أشرطة الڤيديو كاسيت المتهتكة التي تسرّبت إلى مصر تحت مظلة السياحة والتطبيع والتيسيرات الكمركية.. إلى آخره.. وهي أشرطة لا يراد بها مجرد الربح المادي ولكنه التخريب النفسي والروحي والديني والأخلاقي.. إن بمقدور شريط واحد أن يأتي في ساعات قلائل على جهد الشهور الطوال من التوجيه التربوي ومحاولات التحصين الأخلاقي وبناء الشخصية المؤمنة قبالة قواعد التفكيك والرذيلة والانحراف.

الإعصار القادم من إسرائيل لم يحمل معه هذا من أجل استئصال الثوابت الروحية والأخلاقية فحسب، لكنه ماضٍ لكي يقتلع ثوابت العقيدة

والتاريخ. . لكي يمارس واحدة من أبشع عمليات غسيل المخ في التاريخ.

الباحثة المصرية (مايسة عبد الرحمن) أعدت دراسة عن تطوير مناهج الدراسة والتربية في مصر. وقد تطرقت في دراستها إلى «مركز تطوير المناهج» الذي أسسته الحكومة المصرية سنة 1990 م بأموال معونة أميركية. وقد ذكرت، كما ذكر كثير من المتتبعين غيرها، أن هذا المركز يضمّ 29 مستشاراً أميريكياً من الاختصاصيين الذين يعملون أصلاً في مركز تطوير التعليم في واشنطن. وبين هؤلاء المستشارين الأميركيين اثنان من اليهود. ومن بين هؤلاء المستشارين: د. جيرالد فيرس، د. بيتر نويمان، د. جون كابرود، د. ديفيد يتس، د. ايفرت كيتش، د. ليندا لامبرت. .

وقد قام عدد من العلماء والكتاب في مصر يدقون ناقوس الخطر بعد أن لاحظوا أن مركز تطوير المناهج بإشراف المستشارين الأميركيين واليهود، عمد إلى إعادة النظر في تدريس مادة التاريخ المصري ومادة الحضارة الإسلامية وتأثيرها في الغرب ومادة التربية الدينية وعلوم القرآن والسيرة النبوية. أما في التاريخ الإسلامي فقد قلّصوا فترة الفتوحات الإسلامية ودور مصر الإسلامي، وركزوا على تأريخ مصر القديم (الفرعوني) وحذفوا تدريس تاريخ الصراع العربي ـ اليهودي. . كما حذفوا من علوم القرآن تدريس الآيات التي تلعن اليهود أو تشير إلى عداوتهم ومكرهم، وحذفوا من السيرة تدريس حروب الرسولﷺ مع اليهود. وفي التربية العامة للشعب يتدخل هذا المركز لتوجيه المواد الإعلامية في الإذاعة والتلفزيون والصحف بحيث تنسجم مع ما تقرر في منهج التعليم.

هنالك الضغوط الاقتصادية وتحدّيات «السوق الشرق أوسطية» التي يمكن أن تكون مدخلاً لاحتواء البنية الاقتصادية لكل الدول العربية والإسلامية التي ستنتمي إليها. .

وفي حوار مع الخبير الاقتصادي الفلسطيني الدكتور فؤاد بسيسو أجراه (تقرير قضايا دولية) الذي يصدر في إسلام أباد ـ الباكستان في عدده

المرقم 215 (فبراير 1994 م) وجه السؤال التالي:

- هل تعتقد أن الاتفاق الاقتصادي الأردني/ الفلسطيني يملك من القوة بحيث يمكنه أن يواجه التفوق الاقتصادي الإسرائيلي وهيّمنته؟ أجاب الخبير المذكور: لا شك أن حالة الهيمنة الاقتصادية الإسرائيلية قائمة الآن على الاقتصاد الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة، وهي معروفة تماماً إلى درجة أدّت إلى تشويه هذا الاقتصاد وإعاقة نموّه إلى درجة كبيرة، كما أنه ليس للاقتصاد الإسرائيلي أي تأثير في المرحلة الحالية على الاقتصاد الأردني، ولكن التأثير والهيمنة ما زالت محتملة على اقتصاديات الدول العربية بشكل عام وعلى أي اقتصاد يدخل في علاقات غير متوازنة مع الاقتصاد الإسرائيلي.

- وكيف ترى إمكانية تحقيق السوق الشرق أوسطية التي يبشّر بها وزير الخارجية الإسرائيلي (شمعون بيريز) عبر كتابه الذي نشره مؤخراً بعنوان «الشرق الأوسط الجديد»؟

- إقامة السوق الشرق أوسطية توجّه أمريكي/ إسرائيلي وله تصوّرات وصياغات مسبقة ومنذ فترة طويلة، والهدف الرئيسي من هذا المشروع هو تمييع أركان النظام العربي ضمن نظام جديد يسمى النظام الشرق أوسطي.. خاصة وأن الطرف العربي حتى الآن لا تحكمه وحدة توجّه اقتصادي وسياسي وأمني.

وقال الاقتصادي والدبلوماسي اللبناني السابق (إلياس سابا) «إنه إلى جانب استمرار المقاطعة والتشدّد في تطبيق بنودها فإنه من الضروري «إيجاد آليات منع التطبيع في ظل ظروف السلام العربي - الإسرائيلي الجزئية. وأشار إلى أن مجالات التطبيع الأكثر رواجاً وأهمية ستكون في الغالب عبر مؤسسات عملاقة متعددة الجنسيات أو عبر مؤسسات كبيرة ذات شهرة واسعة أجنبية وغير إسرائيلية، أو عبر مؤسسات قابضة انشئت حديثاً من أجل أعمال التطبيع الجديدة، يصعب معها كثيراً معرفة المساهمة الإسرائيلية

فيها». وقال في بحثه الذي حمل عنوان «الجوانب الاقتصادية للتحديات الشرق أوسطية الجديدة»: «إن ما تضمنه اتفاق غزة ـ أريحا من ترتيبات اقتصادية مستقبلية لا يدعو إلى الاطمئنان، وأنه يشكل بالنسبة لعدد من الدول العربية تهديداً مباشراً للأمن الاقتصادي والأمن الوطني، وأن معارضته والعمل على الحيلولة دون تعميمه يدخل في باب الدفاع المشروع عن النفس.. وأن القبول بالصلح الاقتصادي في المرحلة الحالية سيؤدي في الغالب إلى سيطرة «إسرائيل» على الاقتصاد العربي.. ومتى تحدثنا عن خسارة السيادة الاقتصادية فإننا نقول حتماً بخسارة السيادة السياسية.. وأنه في حال قيام نظام شرق أوسطي فإن تبعية الاقتصاد العربي ستزداد بنسبة كبيرة في ظل ما يحضّر للمنطقة حيث ستشكل الاقتصاديات العربية هوامش وأطراف النظام الاقتصادي الجديد وستزداد تهميشاً».

هنالك ـ أيضاً ـ الاختراق الأمني والمخابراتي الذي كان يعمل عمله في الماضي، وبكل تأكيد، ولكنه تحت مظلة الاعتراف النهائي سيزداد فاعلية وتأثيراً. إن جهاز الموساد الإسرائيلي أخذ يتدخل منذ فترة ليست بالقصيرة في رصد الأنشطة الإسلامية في مصر وتضييق الخناق عليها من خلال زيادة حدة العمليات الإرهابية لإعطاء السلطة المصرية مبررات توجيه الضربة للإسلاميين. وقد أعد جهاز الموساد (فيما ذكرته جريدة الشعب المصرية في عددها 815) خطة جديدة لزيادة حدة العمليات الإرهابية في مصر. وتعتمد الخطة على تجنيد مصريين وعرب مقيمين في الخارج لإحداث تفجيرات كبرى في القاهرة وبعض المناطق الأخرى. وأكدت المعلومات أن أربع فرق إسرائيلية تابعة للموساد تضم 45 ضابطاً ويرأسها ضابط بالموساد يدعى «أبو نوير» توجهت إلى كل من ألمانيا وإيطاليا وهولندا والنرويج وفرنسا، وتمّ إلحاقهم بالسفارات الإسرائيلية في تلك الدول منذ شهد أكتوبر الماضي. وأشارت المعلومات إلى أن عناصر الموساد بادرت فور وصولها لتلك البلدان في الاتصال ببعض المصريين والعرب المقيمين هناك في محاولة لتجنيدهم للقيام بعمليات تخريبية في

مصر. وقد كشف عدد من المصريين الذين جرت معهم تلك الاتصالات عن أبعاد المخطط الجديد للموساد والذي يستهدف زيادة حدة التوتر المتصاعد بين الحكم والجماعات الإسلامية.

وماذا عن الإعلام؟ ماذا عن الإذاعة والتلفزيون والمجلة والصحيفة؟ ثم ماذا عن السينما التي هي في أساسها أداة صهيونية وظّفت ولا تزال لخدمة بني إسرائيل؟

إن انهيار جدار القطيعة العازل، سوف يجعل دفقها المترع بالأكدار يندفع باتجاه كل ما تبقى في حياتنا الفلسطينية والعربية والإسلامية من قيم نظيفة ومساحات بيضاء لكي ما يلبث أن يغرقها بالشرّ والرذيلة والفساد.

وما هي إلاّ شواهد فحسب، من بين عشرات الشواهد ومئاتها.. في سياق التربية والتعليم والاقتصاد والأمن والثقافة والإعلام، مما يمكن أن يفعله بنا وبديارنا وقيمنا ومقدّراتنا المادية والروحية والثقافية الاعتراف النهائي بإسرائيل.

إن المقاومة، أو حتى الرفض السلبي، إنما هي الجدار الأخير في مواجهة الاحتواء والتفكك والدمار.

ولطالما كان التعليق الزمني بين الأقوى والأضعف، وبين الغالب والمغلوب، هو حبل النجاة الأخير الذي يمكن أن يعيننا على النهوض كرة أخرى لتصفية الحساب.. أما قطعه، بحجة أنه قد لا يأتي بطائل، فإنه سيقودنا إلى الغرق المحتوم.

إن حركة التاريخ تمضي، بإرادة الله ومن خلال نواميسه في العالم، لكي ترفع وتخفض.. تنزل بالطاغوت المستكبر وترتفع بالمستضعفين في الأرض الذين يعرفون كيف يأخذون بالأسباب: ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾.

وها نحن، في عقود معدودة فحسب منذ منتصف القرن العشرين، نرى بأم أعيننا كيف تتغيّر خرائط العالم، وتتبدل مصائر الأمم والشعوب، وتتفكك وتنطوي وتغيب قوى ودول وامبراطوريات كبرى لكي ما تلبث أن تحلّ محلّها دول وامبراطوريات أخرى لن يهملها التاريخ طويلاً لكي تتفرد بالسلطان.

ففي عقود معدودة انهار (الرايخ الثالث) الذي صُمّم لكي يطاول تحدّيات الفناء لمئات السنين وأطلق عليه مؤسسة (إمبراطورية الألف عام) وانهار معه حلم إيطاليا الفاشستية التي أعلن فرعونها بأنه سيركز راياته فوق النجوم، وما لبثت أن لحقت بهما الإمبراطورية البريطانية التي صنعت إسرائيل ومنحتها الوعد، والتي لم تكن الشمس تغيب عن مستعمراتها، وأعقبتها إمبراطورية فرنسا التي مكّنت اليهود من رقابنا عام 1967 م وأعانتهم على تحقيق حلمهم في الامتداد، وما لبث أن تبعهما الاتحاد السوفياتي الذي مارس دور العرّاب للدولة المغتصبة على مستوى المحافل الدولية والدعم الديموغرافي وتعليق القدرة العربية وتضليلها وصدّها عن ممارسة أي دور فاعل لمواجهة إسرائيل.

وحتى على افتراض ديمومة النظام العالمي الجديد لعقود أخرى فإن هناك مفاصل وفتحات يمكن أن يدخل منها الجهد الإسلامي لكي يتحقق بفاعلية أكبر على مجابهة التفرّد الأمريكي ورديفه الصهيوني بمقدّرات الأمور ومهما كانت نتائج المحاولة فإنها ـ على أية حال ـ أفضل بكثير من الاستسلام النهائي لإرادة الخصم والاعتراف بشرعية اغتصابه لديار الآخرين واغتيال حقهم المؤكد.

وقد سبق وأن ناقشنا ـ في غير هذا المكان ـ عدداً من الاحتمالات الممكنة في المجابهة فليس ثمة مبرر لإعادة القول فيها كرة أخرى.

«عبرة التاريخ الإسلامي في فلسطين»

تمنحنا حركة التاريخ الإسلامي في امتدادها وانحسارها.. في تقدّمها وتراجعها.. أفقاً واسعاً ممتداً يوشك أن يطلّ على عصرنا الراهن فيعانق معضلتنا مع العدوّ في فلسطين وغيرها من بقاع العالم الإسلامي المغتصبة، ويتحدث بمنطق الوقائع المتحققة في الزمان والمكان: كيف ضاعت القدس وكيف حُرّرت؟ وكيف ضاعت ثانية وما الذي يمكن عمله لكي نستعيدها كرة أخرى؟

إن التاريخ يتشكل وفق منظومة من السنن والنواميس.. ما يسمّى اليوم بقوانن الحركة التاريخية... ليس ثمة عبث أو مصادفة، وإنما هي الأسباب التي تجتمع فتكوّن الهزيمة والانكسار والضياع، حيث لا منجاة من سنن الله العاملة في التاريخ والتي لن ينجو من قبضتها أحد لا يأخذ بالأسباب، لأنها لن تحابي أحداً: ﴿**أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنّى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم**﴾ [آل عمران: 165].

وبالمقابل فإن التحقق بالأسباب يقود ـ بحكم قوانين الحركة التاريخية نفسها ـ إلى النصر وتحقيق الذات والعلوّ في الأرض: ﴿**قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله، وتلك الأيام**

نداولها بين الناس﴾ [آل عمران: 137 ـ 140].

والتاريخ كله تاريخ معاصر ـ كما يقول فيلسوف التاريخ والجمال المعروف (كروتشه) ـ فلا ندهش إذن، إذا وجدنا تجارب وخبرات تاريخنا الإسلامي تتضمن من وراء سائر المتغيّرات والجزئيات، نداءً من نوع ما . . . تحذيراً ملموساً في أن فلسطين التي ضاعت مرة يمكن أن تضيع ثانية . . كما تتضمن في المقابل، أملاً مؤكداً . . وعداً قاطعاً في أنها يمكن أن تعود، لأنها في حبكة التاريخ، شهدت الضياع والوجدان معاً، اغتصبت ثم استعيدت كرة أخرى.

في العقود التي سبقت وزامنت الحروب الصليبية في حملتها الأولى التي بدأت في أخريات العقد التاسع من القرن الخامس الهجري، كانت كل الظروف التاريخية لعالم الإسلام مهيّأة لزرع الجسم الغريب في جسده عبر مساحة من الأرض تمتد من أعماق الجزيرة الفراتية شمالاً، حتى مشارف صحراء النقب جنوباً، وفي مدى زمني لا يتجاوز العقدين أقيمت في المنطقة أربع مستعمرات صليبية: في الرها وأنطاكية وبيت المقدس ثم في طرابلس المطلة على البحر المتوسط. وفيما عدا الرها التي حرّرت في وقت مبكر نسبياً (539 هـ) على يد (عماد الدين زنكي)، فإن بيت المقدس لم تسترجع إلاّ بعد حوالي القرن، أما الإمارتان الأخريان فقد امتد بهما العمر قرنين من الزمن.

ما الذي مكّن الصليبيين (الغرباء) القادمين من ديار بعيدة في أعماق القارة الأوروبية من الوصول إلى القدس واحتلالها بعد تلك المذبحة الكبيرة التي تحدث عنها صاحب وثيقة (الكشتا) الفرنجي، شاهد عيان لما فعله أسلاف الصهاينة من اعتماد منطق الإرهاب وتصفية العائق البشري دونما تفريق بين المقاتلين والمسالمين؟

إن الأسباب كلها يمكن أن تُستقطب بكلمات قلائل: التمزّق، وتعدّد القيادات، واصطراعها المرير.

وما من ريب في أن كل السلبيات أو عوامل الضعف الأخرى يمكن أن تنطوي في ممارسة خطيرة كهذه، تذكرنا ـ إذا ما عبرنا القرون ـ بما حدث ويحدث منذ سقوط السلطان عبد الحميد عام 1909 م وحتى اللحظات الراهنة: التشبّث بالبقاء بأية صيغة. . التهالك على المكاسب الصغيرة. . محبة الدنيا وكراهية الموت. . وفقدان روح التضحية والعطاء والاستشهاد.

الخلافة الواحدة أصبحت خلافتين: عبّاسية وفاطمية، وتعرض العالم الإسلامي إلى شرخ من الطول إلى الطول جعل طاقاته تنقسم ـ أولاً ـ إلى قسمين، ثم لما صارت بلاد الجزيرة والشام وفلسطين منطقة تماس بين الطرفين المتصارعين، تعرّضت هي الأخرى لتفتت خطير، وشهدت قيام وسقوط عدد من الكيانات الصغيرة، ودويلات المدن الضعيفة المتهالكة التي ظلت تصطرع فيما بينها، دون أن تلتفت، ولو لحظات، للخطر القريب المخيم على الأفق، فتنسى خلافاتها وتتوحّد لكي تقدر على الاستجابة لتحدّيات الغزاة، بل إن بعض الأمراء والقادة كانوا على استعداد تام للتعامل مع الغزاة أنفسهم إذا ضمن لهم هؤلاء بقاءً في دويلاتهم الهزيلة، أو أعانوهم على اقتطاع هذه القرية أو تلك الضيعة من جيرانهم المسلمين.

في القدس، ودمشق، وحلب، وحمص، وحماة، وطرابلس، وأنطاكية ومدن الجزيرة الفراتية، تشكّلت في هذه الفترة القلقة من الاصطراع بين المسلمين أنفسهم، إمارات ما كان بمقدورها أن ترى أبعد من مواطىء أقدامها، وإغراء مصالحها العاجلة.

فلما ذهب الشاعر الأبيوردي يحمل النذير إلى بغداد، بقصيدته الميمية المعروفة، مستصرخاً القيادات الإسلامية كي تتحرك لمجابهة الموقف حيث يوغل الغزاة في الأرض ويسفكون الدماء، ما كان ليستجيب له غير الجماهير الغاضبة التي لم يكن بمقدورها أن تفعل بأكثر من تظاهرات الاحتجاج كما يحدثنا المؤرخ البغدادي (ابن الجوزي). فالخليفة العباسيّ

كان مجرّداً عن جلّ فاعلياته، وكان السلاجقة، بعد موجة اندفاعهم الأولى أيام سلاطينهم الثلاثة الكبار، قد تعبوا وأخذوا يصطرعون هم أيضاً.

إن هذا لم يحدث في المشرق وحده، فحركة التاريخ لا تتجزّأ، هناك في أقصى المغرب، في الساحة الأندلسية، كان يحدث الشيء نفسه. وبالتالي يمكن أن نخمّن كيف ستتحقق المعطيات التاريخية نفسها: وحدة أوروبا النصرانية بمواجهة عالم الإسلام.. التزامن المرسوم لحرب صليبية شاملة على جناحي هذا العالم في المشرق والمغرب.. النكث المعروف للعهود الذي يمارسه «الإنسان الغربي» في تعامله مع الشرقيين.. اعتماد أقصى صيغ القسر المذهبي لحظة تمكّنه في الأرض.

ولنتذكر ـ على سبيل المثال فحسب ـ واحدة من تلك المعطيات: فإن مصرع (راميرو الأول) ملك أراغون في معركة جرادوس التي قادها الأمير المسلم (المقتدر بن هود) عام 455 هـ قد أثار خيال أوروبا ـ فيما ذكره المؤرّخ البريطاني المعاصر (رنسيمان) ـ فبادر البابا الاسكندر الثاني، إلى إصدار وعوده ببذل الغفران لكل من قاتل المسلمين في إسبانيا وشرع بتأليف جيش من أجل مواصلة عمل (راميرو) ضمّ الإيطاليين والفرنسيين. كما أن حصار سرقسطة الثاني عام 495 هـ بقيادة (بيدرو الأول) أمير أراغون، جاء بُعيْد نجاح الحملة الصليبية الأولى في المشرق واحتلالها الدامي لبيت المقدس. وقامت البابوية بدور مشهود في منح الإسبان الذين حرموا الاشتراك في الحملة الصليبية على المشرق، دوراً موازياً في مجابهة المسلمين في إسبانيا.

وقد يتذكر المرء ـ ها هنا ـ فضلاً عن هذا كله، الدور الملحوظ لدير (كلوني) الفرنسي، تلك المؤسسة الكنسية التي مارست نشاطاً تحريضياً واسعاً في الحروب الصليبية، والتي عرف عنها تشجيع النصارى الإسبان على ضرب المسلمين، والتي ابتكرت أسلوباً جديداً في الحرب النفسية، حين كلّفت الراهب (هوف) رئيس الدير المذكور بتوجيه دعوة إلى حاكم

سرقسطة يدعوه فيها للتنصّر والارتداد عن الإسلام، وذلك من خلال رسائل دينية تبشيرية ترسل مع مبعوثين من رجال الدين.

يقابل هذا، على الطرف الأندلسي، تجزّؤ محزن يمزّق القوى والطاقات الإسلامية... وحرص مخزٍ على الحياة، كان كتاب الله وسنة رسولهﷺ قد حذّرا من مغبّته. ذلك أن الذي يحدث في معظم الأحيان هو أن الجبن لا يمنح أصحابه الأمان، والمذلة والاستسلام لن يقودا إلاّ إلى مزيد من الهوان والانتحار الجماعي، حيث يسهل على المنتصر من النمط الغربي، أو الصهيوني فيما بعد، أن يمارس قانون القتل والتصفية الجسدية والعقيدية على السواء، من أجل ألا يكون هناك مذهب غير مذهبه، ولا قانون غير قانونه.

إن الخوف، والبحث عن الضمانات الجزئية، والمكاسب العابرة، لم يمنع من قيام محاكم التحقيق بعد وقت قصير في حساب الزمن، لكي تمارس واحدة من أبشع صيغ التعامل، في التاريخ البشري، بين الغالب والمغلوب.

ولكن هذا كله ليس الجانب الوحيد للصورة، فإن الباحث في التاريخ، وهو يتعامل بموضوعية مع الحدث، يمنحنا جوانب أخرى تنطوي على مغزاها المضيىء وبُعدها العقيدي، وسط دوّامة الظلمات والضياع هذه. وبقدر ما يتعلق الأمر بالساحة الفلسطينية، فإن ردّ الفعل الإسلامي سرعان ما بدأ يتشكّل، بعد تجاوز حالة فقدان التوازن التي أحدثتها الضربة الأولى، وأخذت وتائر فاعليته تتصاعد يوماً بعد يوم، وأصبحت، بحكم قوانين تراكم الخبرة والإنجاز التاريخيين، قديرة على أن تحدث تغييراً شاملاً في خارطة الصراع بين المسلمين والغزاة، آلت في نهاية الأمر، وبعد قرنين من الجهاد المتواصل، إلى استئصال الجسم الغريب المزروع وتحرير الأرض.

وبخطّ متوازٍ من القيادات والمقاتلين، أو البطل والجمهور ـ إذا

استخدمنا المفردات المعاصرة ـ تمكن المسلمون، وهم يتحركون بقوة العقيدة وإغراء الشهادة في سبيل الله، من تحقيق هدفهم الصعب.

ومؤرّخو الحروب الصليبية القدماء كابن الأثير وابن العديم وابن القلانسي وابن واصل وأبي شامة والعماد الأصفهاني وغيرهم، يمدّون الباحثين بحشود من النصوص التاريخية حول دور الجماهير الإسلامية في مجرى هذا الفعل المتواصل المديد. ومع الجماهير كانت هنالك القيادات الإسلامية التي حقّقت بجهدها العسكري والسياسي والنفسي، والعقيدي في نهاية الأمر، نوعاً من التواصل الاستراتيجي الذي ينطوي على حشد من المتغيّرات المتلائمة مع كل مرحلة زمنية، والذي أخذ يتجمع ويتكامل ثم ما يلبث أن يصبّ في بؤرة التحرير.

فمنذ البدايات الأولى ـ على سبيل الإيجاز ـ قام ولاة الموصل، بأمر من السلاجقة، بقيادة حركة المقاومة الإسلامية طيلة الفترة بين (487 ـ 521 هـ) الذي كسر طوق الحصار الصليبي لحلب، وضمّها إلى الموصل فشكّل نواة أوّل محاولة وحدوية أعطت حركة المقاومة عمقاً استراتيجياً، ومهّدت الطريق أمام (عماد الدين زنكي) الذي أنشأ ما يعرف بأتابكية الموصل (521 ـ 541 هـ)، للتأسيس على هذه النواة، ومدّ مساحة الأرض الموحّدة، ومنح حركة المقاومة قدرات أكثر فاعلية على شتى المستويات. فلما جاء ابنه (نور الدين محمود) (541 ـ 569 هـ) كان يدرك بشكل أكثر وضوحاً، وبسبب من رؤيته الإسلامية والتزامه الدقيق بمطالبها، أن المقاومة لن تمضي إلى هدفها بأكبر قدر من الفاعلية والاختزال لتحديات الزمن والمكان والقوى المنظورة، إن لم تتعزّز ـ أولاً وبشكل موازٍ ـ الجبهة الداخلية، ويعاد بناؤها بالمفردات والمطالب الإسلامية على سائر المستويات العقيدية والنفسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والإدارية. إنه كان بصدد إنشاء أمة من المجاهدين، وعلى مدى ما يقرب من الثلاثين عاماً من حكمه، تمكن بجهد متواصل لم يكف عن العمل من تحقيق

هدفه. وبموازاة إنجازه هذا نفّذ جهداً عسكرياً متواصلاً لاستثمار المعطيات التي منحها إياه قادة المقاومة السابقون، وانطلق من حلب، لكي يواصل الطريق فيحقّق على مستوى التحرير ضربات مؤثرة ضد الوجود الصليبي في الشام وفلسطين، ويحقّق على مستوى التوحيد إنجازين كبيرين تمثّل أولهما في دخوله دمشق عام 549 هـ، وتمثّل ثانيهما في دخول مصر عام 563 هـ بقيادة ضابطه الشاب (الناصر صلاح الدين)، وبذلك وضع الخصم بين فكّي الكماشة، ومكّن لصلاح الدين الذي تولّى قيادة الدولة الموحدة، بعد سنوات قلائل من وفاة نور الدين، التخطيط للإجهاز على الصليبيين في فلسطين وتحرير بيت المقدس عام 583 هـ والانطلاق في واحدة من أسرع عمليات (استثمار الفوز) في التاريخ الوسيط، لكي يحرّر الأرض الفلسطينية ويدفع الغزاة إلى الساحل، ويحصرهم في شريط ضيّق من الأرض لا يتجاوز الثلاثين كيلومتراً طولاً وتسع كيلومترات عرضاً.

لن يتّسع المجال لتقديم التفاصيل، والمهم أن حركة المقاومة الإسلامية تُوّجت في نهاية الأمر، وعلىٰ يد قوّة إسلامية شابة: (المماليك) ورثت الحكم الأيوبي الذي أخذ يعاني من الشروخ والإعياء والاصطراع الداخلي، في قيادة حركة الجهاد ومضت بها حتى نهاية الشوط، بقيادة (بيبرس) و (الناصر قلاوون) والأشرف خليل لكي تحرّر الأرض الإسلامية من آخر جيوب الصليبيين على شواطىء بلاد الشام.

صحيح أن حقبة التحرير امتدت بأكثر مما يجب، ولكنها على أية حال حققت هدفها وطردت المعتدين عن آخرهم في نهاية المطاف. ومعنى هذا أن (الاحتلال) أياً كانت الصيغ التي يعتمدها، والأهداف التي يسعى لتحقيقها، لن يكون مهما طال به الأمد، بأكثر من ظاهرة مرضية مؤقتة لن تقدر على مدّ جذورها في الأرض والتحقّق بالاستمرار والدوام، ما دام أن الطرف الآخر يرفضها ويتعامل معها كظاهرة طارئة لن يمكن لها في الأرض. إنها أشبه بالجسم الغريب الذي يزرع في كيان غير متجانس مع

مكوناته وعناصره، إن هذا الكيان سيلفظه إذ ليس ثمة ما يحقّق التوافق المطلوب الذي يربط بين الطرفين ويختم على مصيرهما.

إن الأجسام الغريبة محكوم عليها بالنفي، ولن تكون الأرض التي تسطو عليها وطناً لها في يوم من الأيام. والقرآن الكريم يقولها بوضوح: ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ [آل عمران: 140]. فليس ثمة أمة أو جماعة أو دولة أو قوة في الأرض بقادرة على تجاوز حتمية التاريخ، إنها كلمات ثلاث، ولكنها تلخّص التاريخ البشري كله، وتمنحه قيمته وحيويته وقدرته على الحركة في الوقت نفسه[1].

---

(1) كتبت هذه الصفحات تلبية لاستكتاب دعت إليه هيئة التحرير المشرفة على إصدار كتاب (فلسطين والوعد الحق) عام 1991م والذي شارك فيه عدد من المفكرين والكتّاب الإسلاميين من مختلف أنحاء العالم وصدر في إسبانيا عام 1994م.

عن الجهد الحركي الإسلامي في القرن الأخير
وقفة للنقد

إن الحديث عن محاولة النقد الذاتي، أو تعديل الوقفة، أو تقديم البدائل الأكثر فاعلية وجدوى، أو طرح مقترحات عمل.. إلى آخره.. لن تأخذ مسارها الصحيح بالضرب على غير هدى، ولا بدّ ـ أوّلاً ـ من معرفة طبقات أو محاور الجهد الإسلامي وهي، إذا أردنا أن نبدأ بالأكثر عمومية، تأخذ الترتيب التالي:

1 ـ المستوى الحضاري: الأمة والعالم.

2 ـ المستوى السياسي: الدولة والسلطة.

3 ـ المستوى الدَعوي: القطر.

4 ـ المستوى الاجتماعي: المدينة.

5 ـ المستوى السلوكي والشعائري: الفرد.

وهي مستويات يفضي بعضها إلى بعض ويقوم أحدها على الآخر، كما أنها لا تعمل بمعزل عن الأخريات، فهي تنطوي في اللحظة الواحدة على السياقات كافة. لكن البؤرة الأساسية لكل مستوى تتركز عند الحضاري حيناً وعند السياسي أو الدعوي حيناً آخر، وعند الاجتماعي أو السلوكي أو الشعائري حيناً ثالثاً.

في الإسلام والنشاط الإنساني عموماً ليس ثمة فواصل أو جدران نهائية في الفاعلية.. هذه مسألة معروفة، لكن التخصّص له أحكامه ولا بدّ ـ ابتداء ـ من إدراك مركز الثقل في الفاعلية وهدفها الأساس في ضوء خارطة نستطيع بواسطتها أن نحيل كل مفردة أو مقترح إلى مستواها النوعي ثم نتحدث عن أهميتها ودورها في الإضافة أو التعديل، وصيغ معالجتها التي تمكنها من تجاوز الأخطاء والمضي إلى الهدف بأكبر قدر من الفاعلية والاقتصاد في الجهد والزمن.

إننا في ضوء هذه الخارطة سنحدّد هدف الجهد ابتداءً فلا يتداخل أو يتميّع أو يضرب في التيه. وسواء كان هذا الجهد درساً يعطى أو محاضرة تلقى أو مقالاً يكتب أو بحثاً يؤلف، وسواء كان تبادلاً في الرأي أو حواراً، فإن الذي يقوده إلى هدفه ويحميه من الهدر والتشتّت والضياع إنما هو تحديد المحور الذي يتحرك فيه، أو المستوى الذي يتعامل مع بعض ظواهره ومفرداته، هل هو المستوى الحضاري؟ أم السياسي؟ أم الدعوي أم الاجتماعي أم السلوكي أم الشعائري؟

والذي يحدث في كثير من الأحيان أن يتداخل الحضاري بالدعوي، والسياسي بالاجتماعي، وتختلط الأوراق، وتضيع البؤرة التي يتحتّم أن يتمحور عندها الجهد لكي يكون أكثر فاعلية وعطاءً..

هذه هي واحدة من البوابات التي دخل منها الاضطراب فضيّع على الإسلاميين الكثير من الجهد والزمن وجعلهم يدورون ـ أحياناً ـ في حلقة مفرغة حيث ما يلبثون أن يجدوا أنفسهم، بين فترة وأخرى، عند نقطة البداية.

وعلى سبيل المثال فإن «المشروع الحضاري» الذي تدعو إليه بعض المؤسسات والجماعات الإسلامية، ينطوي على فضاء واسع قد يمتد إلى العالم كله فيتعامل معه بمنطق الصراع أو الحوار الحضاري الذي يتطلب إدراكاً لقوانين الحركة التاريخية، وصيرورة الحضارات، ويسعى لاكتشاف

عناصر القوة والضعف في هذه الحضارة أو تلك، وإلى الميزات الجوهرية لحضارة الإسلام التي تؤهلها لأن تكون البديل المرتجى، ليس على مستوى جغرافية الإسلام وحده وإنما على مدى العالم كلّه، تلك الميزات الخصبة المتنوعة من مثل: الرؤية التوازنية لهذه الحضارة بين الوحي والوجود، والمادة والروح، والعدل والحرية، والفرد والجماعة، والعقل والوجدان.. وسائر الثنائيات الأخرى. ومن مثل قدرة هذه الحضارة ـ بخلاف سائر الحضارات المندثرة ـ على التجدّد والانبعاث انطلاقاً من شبكة تأسيساتها في كتاب الله وسنة رسولهﷺ.

إن مشروعاً كهذا ينطوي على فضاء عالمي يمثل جهداً يختلف في طبيعة توجّهه مع أي جهد دعوي محدّد تمارسه هذه الجماعة أو تلك، وهذا الفرد أو ذاك في دائرة حيّ أو مدينة أو قطر أو بيئة جغرافية، كما أنه يختلف عن أي جهد اجتماعي يستهدف إقامة بعض المؤسسات الاقتصادية أو الاجتماعية أو الترفيهية التي تحكمها قيم الإسلام وضوابطه. وهو يختلف بالضرورة ـ كذلك ـ عن أي نشاط سياسي قد يعتمد هذه الفرصة (الديمقراطية) ـ إذا جاز التعبير ـ أو تلك لرفع خطابه وتأكيد مصداقيته أمام الجماهير، والتقدم خطوات إلى الأمام.

صحيح أن هذه الأنشطة، بدءاً من حجر الزاوية ونقطة الانطلاق المتمثلة بإعادة صياغة السلوك، والالتزام التعبّدي، بما يجعل الفرد مهيّأً تماماً للمراحل التالية، مروراً بالأنشطة السياسية أو الدعوية أو الاجتماعية.. إنما تؤول جميعاً إلى هدفها الحضاري الشامل وتصبّ في البؤرة الواحدة التي تستهدف إعادة صياغة السعي البشري في هذا العالم، بما يريده الله ورسولهﷺ.

إلا أن هذا المنطوق التكاملي في الجهد يجب ألاّ يسوق الإسلاميين إلى تداخل الرؤية واضطراب الحلقات، وعدم تبيّن الحدود الممكنة للجهد الإسلامي في هذا المجال أو ذاك.

إننا إذا استطعنا ـ منذ البدء ـ أن نحدّد طبيعة الجهد، أو أن نحيله إلى مستواه المحدّد على خارطة العمل: حضارياً أو سياسياً أو دعوياً أو اجتماعياً أو سلوكياً.. قدرنا على الوصول إلى الهدف بأقل قدر من الإسراف في الطاقة والزمن، وبالتركيز الضروري الذي يعطي ثماراً أكثر نضجاً.

لا يتسع المجال للدخول في المزيد من التفاصيل، وقد تكفي هذه التأشيرات العامة من أجل تبيّن موضع أقدامنا في كل حلقة من حلقات الجهد الإسلامي وإحالة هذا الجهد إلى دائرته الحقيقية لكي يتسلسل العمل وفق برنامج مرسوم، يبدأ بأعمق نقطة في وجدان الإنسان الفرد لكي يمضي إلى العالم كلّه مبشّراً بمشروعه الحضاري البديل.

والآن.. فإن هذا ـ بإيجاز شديد ـ هو أحد وجهي «المشكلة»، ويبقى هناك الوجه الآخر الذي لا يقل أهمية، والذي مارس ـ هو الآخر ـ دوراً خطيراً في عرقلة الجهد الإسلامي وتفتيته، وربما تضييعه.

فإذا كانت المعضلة في الوجه الأوّل تنطوي على اضطرابٍ في حلقات التسلسل العمودي الصاعد للجهد الإسلامي الذي يبدأ بالفرد وينتهي بالمشروع الحضاري، فإن هذه المعضلة ـ في الوجه الآخر ـ تبدو في غياب أو اضطراب المنظور الأفقي، وضياع خرائط العمل المحكم الذي يضع في حساباته وهو يعاين المنظور، تغاير البيئات، بكل ما ينطوي عليه مصطلح البيئة من مفردات ومواصفات وبالتالي ملاحظة اختلاف المطالب والحاجات وصيغ العمل بين بيئة وأخرى.

إن المقتل الأشد خطورة، كان عبر القرن ونصف القرن الأخير يتمثل في عدم الالتفات إلى هذه الحقيقة. والبداية الصحيحة تكون هاهنا: إن الجهد أو النشاط يجب أن يضع نصب عينيه مواصفات البيئة التي يتحرك فيها وينسج خيوطه.. فإذا كانت بيئة ما تصلح للنشاط الديمقراطي أو السياسي، فإن بيئة أخرى قد تتطلب، في لحظة تاريخية محدّدة نشاطاً

جهادياً أو تربوياً أو علمياً أو عقلياً أو اجتماعياً. . أو حتى روحياً صرفاً. .

إن التاريخ لا يقاس بالمسطرة والبركال، والحركة التاريخية تستعصي على الأسر في نمطية محدّدة. . والتعامل مع البيئات كلها كما لو كانت «حالة واحدة»، بغض النظر عن موقعها في الزمن أو المكان، يتناقض ـ ابتداء ـ مع منهج الدعوة وطرائقها في عصر الرسالة حيث يلاحظ أن صيغ العمل في العهد المكي هي غيرها في العهد المدني. بل إنها في العهد المكي نفسه كانت تتعامل مع اللحظة التاريخية بصيغ مختلفة، فكانت هناك سنوات العمل السرّي، والنشاط المعلن، واعتماد الهجرة الموقوتة وسيلة للتخفيف عن الضغط وحماية الذات. كما أن العهد المدني شهد هو الآخر، إلى جانب أو بموازاة الخط الجهادي العام، وخط بناء الدولة الإسلامية، تغايراً في صيغ العمل فكان هناك التحالف المرحلي، والصلح الموقوت، والإعلان العام لتصفية الوجود الوثني. . إلى آخرة.

لقد اجتازت الدعوة الإسلامية في عصر الرسالة مراحل شتى بدءاً ببناء الإنسان المسلم، مروراً بإقامة دولة الإسلام، وانتهاء بصياغة التأسيسات الأولى لشبكة الشروط الحضارية التي وضعت الجماعة والأمة المسلمة قبالة العالم بخصائصها المتميزة وفاعليتها التي مكنتها عبر عقود معدودة من الزمن أن تصوغ حضارتها الخاصة بها.

وما لم ننصت جيداً لنداء اللحظة التاريخية، ونتابع بوعي وتبصّر عميقين مواصفات المكان. . ما لم ندرك ابتداء أن الحركة التاريخية تنطوي دائماً على الثابت والمتحوّل معاً، وأن علينا أن نضع في المنظور كلا القطبين، فإننا سننزلق ـ شئناً أم أبينا ـ إلى مواقع الخطأ والهدر، وسنحكم على أنفسنا ـ كرة أخرى ـ بالدوران في الحلقة المفرغة، حيث العودة بين حين وآخر إلى نقطة البداية.

إن العديد من الحركات الإسلامية فشلت، أو تباطأت حركتها على أقلّ تقدير، لأنها لم تلتفت لهذه الحقيقة، أو لم تعرها اهتماماً كبيراً،

فمضت لكي تتعامل بمنطوق الإعداد التربوي مع وضع تاريخي يتطلب جهاداً.. أو أعلنت الكفاح المسلح في وضع يتطلب إعداداً تربوياً.. أو نزلت تحت الأرض في بيئة تسمح لها بالعمل في الهواء الطلق.. أو كشفت عن نفسها في ظرف يُعدّ فيه الانكشاف انتحاراً.. أو اصطرعت مع خصومها سياسياً بينما كان الأمر يتطلب نشاطاً تثقيفياً أو دعوياً صرفاً أو انعزلت في وقت يكون فيه العمل الجبهوي فرصة جيدة.

وثمة في كتاب الله وسنة رسولهﷺ مؤشرات وضوابط غنية تؤكد ثقل المتغيرات التاريخية وضرورة التعامل الحذر معها، يمكن الاكتفاء بشواهد محدودة منها في موجز كهذا:

1 ـ الآيات القرآنية الخاصة بالتقابل العددي.

2 ـ حرب السرايا في بدء العصر المدني والحروب النظامية فيما بعد.

3 ـ السرّية المطلقة في فتح مكة، وإعلان النفير العام وكشف الهدف، في تبوك، واعتماد قادة احتياطيين في مؤتة، وأسلوب الشورى في بدر وأحد، والانفراد بالرأي في الحديبية.

4 ـ تدمير الجماعات الكافرة الذي يعتمد قوى الطبيعة (من مثل الصيحة، الحاصب، الخسف، الطوفان... الخ) في مراحل تاريخية معيّنة، واستبدالها بإعجاز الكلمة الإلهية في مرحلة أخرى تتميز بالرشد العقلي.

5 ـ إعادة تصنيف خصوم الإسلام في ضوء المعطيات التاريخية.

ولنقف ـ لحظات ـ عند الشاهد الأوّل فحسب لما ينطوي عليه من دلالة في هذا المجال.

إن الآية 65 من سورة الأنفال والتي تقول **﴿يا أيا النبي حرض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن**

منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾ تنصّ على أن بمقدور المسلم الواحد، التفوق في القتال على عشرة من خصومه، أي أن نسبة قوة الخصم الكافر إلى غريمه المسلم هي واحد من عشرة.

والدافع الإيماني بقدرته المذهلة على الحشد النفسي والروحي والجسدي ـ بغض النظر عن الوسائل المادية على مستوى السلاح، وبمساندة الأساليب التكتيكية والستراتيجية على مستوى الخطط العسكرية ـ هو الذي يجعل المعادلة لصالح المسلم بهذا الفارق الكبير في معدّل القوىٰ.

بعدها، وفي الآية التالية من السورة نفسها نجد تبديلاً في المعادلة: **﴿الآن خفّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين﴾**.

هنا يصير المسلم متفوّقاً على اثنين فقط من خصومه أي بنسبة الضعف. . فلماذا؟

إن الله ـ جلَّ وعلا ـ يعلم ـ ابتداء ـ البعد النهائي للمعادلة، لأنه سبحانه أدرى بخلقه وبالحدود الأخيرة للطاقة البشرية في ميادين القتال والفعل والإنجاز، ولكنه ـ سبحانه ـ أراد أن يعلّم المسلمين شيئاً من داخل التجربة نفسها وليس بمعزل عنها، كما هو شأن المعطيات القرآنية التي تجاوزت منذ لحظاتها الأولى الصيغ اللاهوتية، أو النظرية التي تسبح في الفراغ. . ولعلّه لهذا السبب تجاوز التنزيل الإلهي صيغة تقديم الكتاب الكامل دفعة واحدة واستبدال ذلك بصيغة التنزيل مفرّقاً وعلى مكث **﴿وقرآناً فرَقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾** [الإسراء: 106].

فمن خلال الحدث نفسه. . عبر التشكّل التاريخي للوقائع. . بموازاة المعاناة البشرية مع التجربة. . كانت آيات القرآن الكريم وتعاليمه تتنزّل لكي

تطرق على الحديد وهو ساخن فتعيد صياغته من جديد، ولكي تمارس عملية تربوية ذات طابع انقلابي للنفس البشرية، قلّ نظيرها بين المحاولات.

ها هنا بصدد التقابل بين القوى المتصارعة يحاول القرآن الكريم، في البداية، أن يدفع المسلم إلى ما وراء حدود الطاقة أو الاحتمال في ميدان القتال من أجل أن يكون قديراً على غلبة عشرة من خصومه.. لكن.. بعد أن تبيّن للمسلم نفسه، ومن خلال التجربة ذاتها، استحالة ذلك، عاد القرآن الكريم لكي يغيّر النسبة وينزل بها إلى حالة الواحد إلى اثنين لكي نكون أكثر مطابقة لقوانين التاريخ.

لنقف ـ لحظات ـ عندما يقوله مفسرونا القدماء في هاتين الآيتين بالإيجاز الذي يعرضه (محمد علي الصابوني) في (صفوة التفاسير) (المجلد الأوّل، صفحة 514) لكي يتأكد لنا المعنى نفسه: «..**﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال﴾** أي حضّ المؤمنين ورغّبهم بكل جهدك على قتال المشركين **﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾** هذا وعد كريم منه تعالى بغلبة كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم. والمعنى: إن يوجد منكم يا معشر المؤمنين عشرون صابرون على شدائد الحرب، يغلبوا مائتين من عدوّهم بعون الله وتأييده **﴿وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾** أي وإن يوجد منكم مائة ـ بشرط الصبر عند اللقاء ـ تغلب ألفاً من الكفار بمشيئة الله **﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾**: الباء سببية أي سبب ذلك بأن الكفار قوم جهلة لا يفقهون حكمة الله، ولا يعرفون طريق النصر وسببه، فهم يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، فلذلك يغلبون. قال ابن عباس: كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً، ثم لما شقّ ذلك عليهم نسخ (أو خفف في رأي آخر: انظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن 8/ 45) وأصبح ثبات الواحد للاثنين فرضاً: **﴿الآن خفف الله عنكم﴾** أي رفع عنكم ما فيه مشقة عليكم **﴿وعلم أن فيكم**

ضعفاً﴾ أي وعلم ضعفكم فرحمكم في أمر القتال ﴿**فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين**) أي إن يوجد منكم مائة صابرة على الشدائد يتغلبوا على مائتين من الكفرة ﴿**وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين**﴾ أي وإن يوجد منكم ألف صابرون في ساحة اللقاء، يتغلبوا على ألفين من الأعداء ﴿**بإذن الله**﴾ أي بتيسيره وتسهيله ﴿**والله مع الصابرين**﴾ هذا ترغيب في الثبات وتبشير بالنصر، أي الله معهم بالحفظ والرعاية والنصرة، ومن كان الله معه فهو الغالب».

مرة أخرى.. فإن العلم الإلهي الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، قد أحاط بذلك علماً، لكنه يريد أن يعلّم المنتمين إلى هذا الدين مسألة في غاية الأهمية فيما نحن بصدده، تلك هي حقيقة أن التاريخ لا يخضع للقوالب الثابتة ولا يقاس بالمسطرة والبركال. وإذا كان القرآن الكريم نفسه قد غيّر نسب التكافؤ في صراع القوى، هذا التغيير الذي يتراوح بين واحد إلى عشرة وبين واحد إلى اثنين، استناداً إلى واقع القدرة البشرية في تلك المرحلة التاريخية، فأحرى بالمسلمين أنفسهم أن يلحظوا هذا التعليم القيّم وأن لا يجمدوا على حالة واحدة وهم يتعاملون مع المتغيرات التاريخية، ويجابهون صيغاً من الوقائع والأوضاع والبيئات ليست سواء.

ويبدو أن العديد من الحركات الإسلامية، حاولت عبر القرنين الأخيرين أن تتجاوز هذا التعليم سواء في نطاقه الحرفي، أي في ميدان صراع القوى، أم في نطاقه العام، أي في مسألة التعامل مع المتغيّرات.. وهكذا آل معظم هذه الحركات إلى الفشل لأنها مارست نوعاً من المجازفة ـ إذا صحّ التعبير ـ فحاولت أن تقفز على المعادلة القرآنية وأن تجابه خصوماً يفوقونها أضعافاً مضاعفة، إنْ على مستوى المعايير المادية الصرفة، أو الفنية أو التنظيمية، أو غيرها من الأسباب التي تجعل مجابهة الخصم قبل الإعداد الكافي عملاً انتحارياً..

ولطالما تساءل الإسلاميون بمرارة يعبّر عنها لسان الحال حيناً ولسان المقال أحياناً: لماذا؟ لماذا هذه الانكسارات المتتالية لمعسكر الإيمان وهو يخوض حركته المشروعة ضد معسكرات الكفر والضلال؟

والجواب يكمن، سواء في الميادين العسكرية أو في ساحات السياسة والاقتصاد والمجتمع، في أن الإسلاميين ما قدّروا النسبة الدقيقة في معادلة تقابل القوى فذهبوا ضحيّة حساباتهم الخاطئة وتقصيرهم في فهم وإدراك مطالب اللحظة التاريخية.

ومن قبل، عندما تساءل المسلمون المنهزمون في معركة أحد، عن مبرّرات الهزيمة، وهم جند الرسولﷺ وأصحابه، أجابهم القرآن الكريم بالحسم القاطع الذي لا جدال فيه **﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنى هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم﴾** [آل عمران: 165].

ولا بدّ ـ أخيراً ـ من التذكير بأن الحالة الأولى، حالة الواحد إلى عشرة لم تلغ من الحساب، ولسوف تظل حقيقة واقعة بقوة الإيمان وفاعليته المذهلة، بدليل ما شهدته الساحة الأفغانية زمن الجهاد الكبير، أو الديار الشيشانية التي حققت المعجزة قبالة الإمبراطورية الروسية، وغيرهما من الشواهد التي لا تعدّ ولا تحصى. لكن الصيغة الثانية للمعادلة ومغزى التعديل المذكور يجب ألاّ يغيب عن البال.

ملاحظات حول المشروع الحضاري

بسبب مما يعانيه المصطلح من غموض وتفسيرات شتى، يمضي بعضها لكي يتعامل مع مفردات الواقع دون منهج، ويمضي بعضها الآخر لكي يتشبث بالحلم المعلّق في السماء دون أي قدر من الممارسة الواقعية للتحقق بمفرداته في نسيج الحياة الإسلامية.. وبين هذه وتلك يتأرجح الإنسان المسلم بين الإحساس بالإحباط الذي يقود إلى حافات اليأس والاستسلام وبين الهروب إلى الأماني والأحلام التي لا تكاد تصنع شيئاً ذا قيمة تاريخية أو حضارية.

بسبب من هذا كله يتحتم علينا جميعاً أن نتريث قليلاً لمراجعة حساباتنا والوصول إلى قدر من الثوابت.. من الجزر المشتركة.. من لغة واضحة محدّدة للتعبير عن مطالب المشروع.

لا ريب أن ثمة محاولات تنظيرية قيّمة طرحت في هذا السياق ومحاولات تطبيقية أخرى شقت طريقها في واقع الحياة الإسلامية.. ومع ذلك فإن علينا أن نمارس المزيد من الصقل والكشف والتحديد وترتيب الأولويات لكي تكون بمثابة برنامج عمل يجعل المشروع حقيقة واضحة المعالم وأمراً واقعاً قد يبدأ بخطوة واحدة ولكنها الخطوة التي تقود إلى قطع رحلة الألف ميل بمشيئة الله...

وفيما يلي بعض المرئيات الأوّلية بصدد صياغة المشروع والتعامل معه:

أولاً: مستوى الخطاب

إن المشروع الحضاري يستهدف مستوى حضارياً على وجه التحديد ـ فهو من ثم ليس محاولة روحية أو شعائرية أو سلوكية أو تربوية أو علمية أو فكرية أو ثقافية أو سياسية أو دعوية أو حركية صرفة وإنما هو هذا كله.

قد تغذّي حلقات كهذه بنية المشروع أو تزيده قدرة على التحقق هنا وهناك ولكنها إذا عملت بمعزل عن بعضها البعض فإنها قد لا تأتي بشيء (كما حدث عبر القرن ونصف القرن الأخير).

إن المخاطب هنا هو «الأمة» الإسلامية ـ والمشروع يعني إعادة صياغة أمة بكاملها ـ تعديل وقفتها الجانحة، وبث روح الإبداع والحركة في مواتها لكي تمضي على الطريق الصحيح. . . «الصراط» الذي أراده لها كتاب الله وسنة رسولهﷺ وممارسات الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

المخاطب هو الأمة التي يراد لها التحقّق بمقاصد الشريعة. . والشهادة على الناس والتاريخ. . وتحويل حياتها إلى تعبير أكثر مقاربة لما يريده الله ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام. وهي ـ بالضرورة ـ مهمة شمولية تنطوي على بعد حضاري ـ بل إن المشروع الإسلامي منذ لحظات تأسيسه الأولى زمن رسول اللهﷺ مشروع حضاري يستهدف الخروج بالناس من الظلمات إلى النور، وابتعاثهم من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. . ويضع بين أيديهم، بمبادىء الاستخلاف والتسخير والاستعمار، وتحفيز آليات العمل العقلية والحسية والروحية: مفاتيح الإبداع والقوة والفاعلية الحضارية في نهاية الأمر.

على ذلك فإن المشروع الحضاري يتوجّه صوب فضاء واسع هو فضاء الأمة الإسلامية على امتدادها في الزمن والمكان. . في التاريخ والجغرافيا. . ويضع نصب عينيه أنه ليس مجرد سعي مرحلي أو حركة

متموضعة في بيئة محددة أو لحظة زمنية (وإن كان يبدأ منها).. وإنما هو نشاط موصول لتحقيق هدف قد يستغرق أجيالاً بكاملها.. لاسيما إذا تذكرنا أن إصلاح حالة خاطئة شديدة التعقيد، أكثر استعصاءً بما لا يقاس من التأسيس ابتداءً.

إننا هنا إزاء ركام القرون الطوال.. وفي الوقت نفسه إزاء الفراغ المفاجىء، والانكسارات الدرامية التي شهدتها عبر نصف القرن الأخير جلّ المذاهب والمحاولات الوضعية أو الدينية المنحرفة في الساحة الإسلامية وخارجها على السواء.

لكن كيف يتأتى تحويل مطالب المشروع من مستوياته التنظيرية إلى واقع الحياة اليومية الإسلامية لكي ينسج خيوطها بمقاصد شريعة الله ومفرداتها؟

لما كان الخطاب يحمل رؤية حضارية فسيكون كل جهد مبذول في الساحة الإسلامية بمثابة رافد سيصب مهما دقّ وضؤل، في المجرى الكبير الذي يمكن أن يتأكد حضوره واتساعه يوماً بعد يوم بقدر ما يصب فيه من جهود، وطاقات، ومحاولات.. شرط أن تتمحور هذه كلها عند هدف واضح محدد هو أن تستعيد هذه الأمة هويتها الحضارية الضائعة..

الفعل قائم منذ زمن بعيد قد يمتد لأكثر من قرنين، لكن توظيفه في سياق خطاب حضاري يستهدف مشروعاً يخرج بالأمة من تخلّفها ومعاناتها، ويكسر حلقة السوء المفرغة.. هو المطلوب..

وهذا هو المطلوب: تجاوز بعثرة الطاقات والخبرات والمعطيات وارتطامها ونفي بعضها البعض الآخر، إلى برنامج عمل يستهدف لمّها وإضافة بعضها إلى بعض وتحقيق أقصى حالات الوفاق بين مفرداتها وتوجيهها لكي تصب في البؤرة الواحدة أو المجرى الواحد الذي يمضي لتحقيق مطالب المشروع الحضاري، وبالتالي فإن الأولوية التي تفرضها

المعادلة تقتضي جهداً مركباً ذا طبقتين، أولاهما: رسم خارطة عمل قديرة على احتواء كل نشاط إسلامي على مدى عالم الإسلام كلّه، والتنسيق بين مفرداته وجعلها تمضي صوب البؤرة الواحدة، وثانيهما: تحفيز إرادة العمل والعطاء والإبداع على كل المستويات لإنضاج المزيد من الثمار وإغناء المشروع على مستوى الكم والنوع على السواء.

بمعنى أن أي جهد روحي أو تربوي أو سياسي أو دعوي أو حركي.. أية إضافة علمية أو فكرية أو ثقافية.. أي بحث ينجز أو كتاب يؤلف.. أية مؤسسة تقوم، وأية تجربة أو خبرة تستمد مقوماتها من كتاب الله وسنة رسولهﷺ يمكن أن تقود جميعها إلى المطلوب، شرط توفّر قيادة فكرية ذات نمط عال من الكفاءة والمرونة والتحرّر من وقر الماضي.. تأخذ على عاتقها مهمة تجميع الطاقات والتنسيق بينها للتحقق بأقصى حالات الوفاق في المعطيات الإسلامية على مدى جغرافية الإسلام.

قد يكون هذا مطلباً صعباً قبالة تحديات التمزّق الفكري والسياسي، وضغوط العزلة والقطيعة بل الخصومة والعداء التي تحكم علاقات الإسلاميين في العالم.

والجواب يكمن هنا بالذات: إن المشروع البديل باعتباره خطاباً حضارياً يهم الأمة كلها، لن يكون بأكثر من حركة في الفراغ ما لم تحرث الأرض جيداً وتنقى من الدغل والأعشاب الضارة وتهيأ للزرع الجديد الذي يمكن بما أتيح له من شروط أن يستوي على سوقه لكي يعجب الزراع.

وعلى ذلك فإن المشروع يقتضي جهداً مزدوجاً ـ ها هنا أيضاً ـ يقوم أولهما على الهدم والنفي ويمضي ثانيهما للبناء والتأكيد.

ثانياً: مطالب اللحظة التاريخية

إن مشروعاً حضارياً يصاغ في القرن العشرين هو غيره في قرن مضى، وأن المعادلة الصعبة تكمن هاهنا: التحقق بالشخصية الإسلامية في

مستواها الحضاري قبالة شبكة معقدة من المتغيرات والتأثيرات وعوامل الشد والتحديات؛ وأيضاً قبالة سيل لا ينقطع من المعطيات المتجددة المزدحمة التي تتطلب جواباً «فقهياً» يحفظ على هذه الشخصية ملامحها المتفرّدة ويعينها على الإخلاص لثوابتها «الشرعية».

إننا عبر لحظتنا التاريخية الراهنة مدعوون ـ مثلاً ـ لتقديم جواب محدد إزاء جل المفردات القادمة من حضارة الغرب المتفوقة والتي اقتحمت علينا حياتنا وخبراتنا حتى أبعد نقطة فيها. بمعنى أن صياغة المشروع الإسلامي يتطلب جهداً مزدوجاً هاهنا أيضاً: بناء المعطيات الإسلامية ابتداءً، وقبول أو رفض أو انتقاء مفردات الآخر في ضوء معايير شرعية مرنة وصارمة في الوقت نفسه.

إننا مرغمون عى أن ندخل حواراً مع حضارة الآخر. والهروب من المواجهة سيقودنا إلى العزلة والضمور.. كما أن قبول مفردات الآخر سيفقدنا خصائصنا، ولا بد من تجاوز الحدّين المذكورين باتجاه صيغة عمل تسعى إلى أكبر قدر من توظيف المعطى الغربي المناسب لمشروعنا الحضاري.

إن أسلمة المعرفة ـ مثلا ـ هي واحدة من هذه المحاولات: التعامل مع العلم الغربي، أو جوانب منه بصيغة تضعه في نهاية الأمر في مكانه المناسب من خارطة المنظور الإسلامي للحقائق والنواميس والأشياء.

والاستجابة لمطالب اللحظة التاريخية ضرورية على مستوى آخر، فإن جغرافية عالم الإسلام في أخريات القرن العشرين وبدايات القرن الذي يليه ليست سواء ـ وظروفها التاريخية ليست سواء هي الأخرى ـ والتاريخ كما هو معروف لا يقاس بالمسطرة والبركال، ولا بد إذن من البحث عن مشروع ذي مفاصل مرنة ومتغيرات شتى، تقوم على ثوابت مشتركة.. نعم وبكل تأكيد ولكنها تقر بالتغاير الذي يسمح لكل بيئة إسلامية أن تختار أسلوب العمل المناسب الذي يخدم قضية النهوض الحضاري وينسج خيوط المشروع البديل.

فهنالك بيئات قد تصلح للنشاط العلمي أو الفكري ـ أو الثقافي عموماً ـ ولكنها لا تتقبل النشاط التربوي أو الدعوي أو الحركي أو السياسي. . وبيئات أخرى قد تكون مهيئة للعمل المؤسسي وتتأبى على أي نشاط يخرج عن هذا النطاق. . وهكذا.

فإذا استطعنا أن نتقبل هذه الحقيقة التي قد تبدو للوهلة الأولى نقيضة لوحدة المشروع، وأن نحوّلها إلى أداة بناء وإغناء، بمفردات متغايرة تتحرك باتجاه هدف واحد، ووفق ثوابت موحدة كنا قد وظفنا ضرورات الاختلاف للتحقق بوحدة (موزاييكية) متناسقة تنطوي في الوقت نفسه على تنوّعها الذي يصعب تجاوزه أو القفز عليه، وتعطيه الفرصة للتحقق في إطار الإسلام، تماماً كما حدث عبر تاريخنا الإسلامي الذي شهد أممية مرنة استطاعت الجماعات والأقوام والشعوب خلالها أن تعبّر عن نفسها وأن تتحقق ذاتياً على المستوى الثقافي، ولكنها ظلت ـ في الوقت نفسه ـ إلا في حالات استثنائية ـ مخلصة في ممارساتها إلى حد كبير، لوحدة الهدف والمصير.

ثالثاً: الأنا والآخر

إننا لا نستطيع أن نقنع الآخر بمشروعنا ما لم نحول هذا المشروع من مستوياته التنظيرية إلى واقع نعيشه نحن، ونقتنع بجدواه وضرورته. بمعنى أن علينا لمديات زمنية قد تطول كثيراً ألا نتحدث عن تقديم مشروعنا للغربي الحائر قبالة انهيار مذاهبه الشمولية ونظمه وأنساقه الفكرية وفلسفاته وأديانه المحرفة.

إن محاولة كهذه أشبه بقفزة في الفضاء ولا بد أولاً من أن نتقدم بهذا المشروع لذوات أنفسنا قبل أن نتحدث عن مآزق الآخر وحاجته إلى البديل.

إن رسول الله ﷺ لم يتوجه بخطابه إلى حكام العالم قبل أن يقيم دولة الإسلام ويمكّن لعقيدتها وشريعتها في الأرض. . ومن ثم فإن رسائله

إلى الأباطرة والملوك والأمراء ما كان يمكن أن تمضي في هدفها في العصر المكي حيث لم يكن المشروع الإسلامي قد حقق فرصته التاريخية، بصيغة دولة ذات شريعة تملك القدرة على دعوة الشعوب والحكام خارج جزيرة العرب.

إن عدداً من المتحدثين عن المشروع الحضاري يخلطون الأوراق ويتخيلون وهم يتحدثون عن المشروع أن مهمتهم تقديم مشروعهم هذا ناجزاً للآخرين.. وينسون أنهم هم أنفسهم لا يعرفون الكثير من مطالب المشروع فضلاً عن كونه لم يدخل مرحلة التنفيذ الشامل بعد ـ وأنه ـ بدلاً من ذلك يتحتم استدعاء كل الطاقات الإسلامية، في شتى مستوياتها ـ لجعل معطياتها تصب، وفق تصميم مرن مرسوم بعناية في الهدف المرتجى من أجل البدء بنسبح المشروع الذي ينتظره المسلمون أنفسهم والذي يمثل بالنسبة إليهم، الفرصة أو الخيار الوحيد لأن يجدوا ذاتهم على خارطة العالم.

باختصار.. فإننا لا نستطيع أن نقنع الآخر بمصداقيتنا الحضارية بل أن نفلت من فلك جاذبيته القاهرة ما لم نضع لأنفسنا النسق الحضاري الذي يستمد مقوماته من الأسس الإسلامية ويستجيب لمطالب اللحظة التاريخية.

هذه هي مهمتنا الآن ولربما لفترة زمنية قد تمتد عشرات السنين قبل أن نفكر بتقديم رؤيتنا للآخر الذي تعزله عنا آلاف الجدران، وليس أقلها ثقلاً غياب المشروع نفسه من ساحات الجغرافية والتاريخ، أن تأكيد الذات كان دائماً البداية الصحيحة للحوار مع الآخر.

رابعاً: تأشيرات على منهج العمل

الملاحظات أو المرئيات السابقة كلها قد لا تعني شيئاً على الإطلاق ما لم تتحدد أمام المسلم المعاصر خطط العمل والفرص الواقعية لتحويل

مفردات المشروع إلى خبرة متحققة في الزمن والمكان. . إلى حياة تنبض وتنمو وتواصل تجذّرها في الأرض وامتدادها في الآفاق.

إنها عملية نسيج من نوع فريد تسهم في حبك خيوطه أقطاب شتى: الفرد، الجماعة، الشعب، المؤسسة، الدولة، النشاط المعرفي، الفكر والثقافة، فإذا استطاع النسّاجون توظيف هذه الأقطاب جميعاً، أو الجوانب القابلة للأسلمة منها، وهي بالتأكيد كبيرة المساحة غزيرة العطاء إذا استطاعوا لمّ الجهود المبعثرة وتوجيه الأشعة المنبعثة من هنا وهناك، صوب البؤرة الواحدة، لخدمة المشروع الواحد، فإنهم يكونون قد وضعوا خطواتهم على الطريق الصحيح.

كل صيغ العمل الشعائري، أو التعبدي، أو التربوي، أو الدعوى، أو الحركي، أو السياسي، أو الجهادي، أو الفكري، أو الثقافي، أو المعرفي، أو الاجتماعي. . إذا أحسن التعامل معها، وتمّ قبولها باعتبارها مفردات صالحة لتغذية المشروع، يمكن أن تعين على الهدف وأن تسهم في النسيج الشامل.

إن التغاير هاهنا أيضاً يتحتم ألا يكون سلاحاً نشهره ضد أنفسنا، بل فرصة جيدة للتوظيف وفق أنساق تكاملية تجعل التعبدي والتربوي والاجتماعي والدعوي والسياسي والجهادي والفكري والمعرفي. . الخ. . تلتقي على صعيد واحد مع تغاير زاوية الرؤية والفِعل والانطلاق.

والآن فإن بمقدور المرء في ضوء الملاحظات السابقة أن يضع يديه على منظومة من الممارسات «العملية» التي يمكن أن تعين على نسج الخيوط الأولى في مشروع النهوض أو البديل الحضاري. . ولنتذكر دائماً أنه ليس بديلاً لحضارة الآخر، بغض النظر عن مساوئها وتناقضاتها، وإنّما لتخلّفنا نحن وحاجتنا الملحة إلى المشروع الذي يضعنا في المكان المناسب من خارطة العالم.

إن الجهد المطلوب ـ وبإيجاز شديد ـ يكمن في المعادلة التالية: «اختراق الحياة شبه الإسلامية بمفردات إسلامية» وهذا ما حدث ـ بالفعل ـ منذ عقود عديدة، بل ربما منذ اللحظات المبكرة للصدمة الاستعمارية في منتصف القرن الماضي. لكن الجهد ـ في معظم الأحيان ـ كان مرتجلاً مجزوءاً لا يملك منهج عمل محدد ولا بوصلة توجيه تعرف كيف تحدد الهدف وفق مطالب اللحظة التاريخية، ولا يملك كذلك رؤية شمولية تلمّ المفردات في أنساق محكمة لكي تكون أكثر قدرة على الفاعلية.

والبداية الصحيحة للاختراق هي بالضرورة بداية فكرية تنطوي على جهد مركب: يمضي أحدهما باتجاه الإصلاح والتقويم وإعادة تعديل الوقفة التاريخية الجانحة، ويسعى الآخر إلى إبداع أو تصميم صيغ جديدة تستجيب للمتغيرات وتتعامل معها بأقصى درجات المرونة والوعي.. وسيكون ما يصطلح عليه بعبارة «إعادة فتح باب الاجتهاد» حلقة أساسية في هذا الجهد، بل هي جوهره وحجر الزاوية فيه إذا أردنا الدقة، وما لم يتحقق هذا وفق شروطه المحددة، فإن أية محاولة لإصلاح منهج الفكر لن تأتي بنتيجة.. إن قدر قياداتنا الإسلامية وهي تنسج الخيوط الأولى لمشروعها الحضاري، هي أن تكون قيادات مجتهدة قديرة على تحكيم «الفقه» في مواجهة المعطيات المتجددة والمتغيرات المزدحمة في الزمن والمكان.

والمشروع والحالة هذه، يتطلب فقهاء مفكرين أو مفكرين متفقهين إذ لا يكفي أن يكون هناك مفكرون لا يملكون آليات الاجتهاد ولا مجتهدون لا يملكون خبرات العصر المعرفية.

الخندق العميق الذي حفرته قرون الانفصام النكد يجب أن يردم والبداية الحقيقية للنهوض لن تكون ما لم يتم اللقاء ثانية بين القطبين.

وبموازاة الجهد الفكري يتحتم ممارسة وتنفيذ شبكة من الأنشطة العملية على مستوى الأفراد والجماعات والمؤسسات والنظم

والحكومات، وكلما ازدادات مفردات هذه الأنشطة في النوع والكم أتيح للنسيج أن يزداد مساحة وتجذّراً.

هاهنا أيضاً كان العديد من الحلقات الإسلامية قد بدأ يعمل منذ زمن بعيد لكنهم في معظم الأحيان ما كانوا يصلون إلى الهدف الذي وضعوه نصب أعينهم، الأمر الذي قاد بعضهم إلى الكف عن العمل، وساق الآخرين إلى حافات اليأس والإحباط، ومضت فئة ثالثة تضرب على غير هدى.

وما كان يعوزهم ـ ببساطة ـ سوى اثنتين أولاهما أن يعطوا لأنشطتهم العملية بطانات فكرية مرسومة بعناية في ضوء الثوابت الشرعية من جهة، ومطالب اللحظة التاريخية وتحدّياتها من جهة أخرى، أي أن يبدءوا من إصلاح المنهج الفكري ثم يمضوا في تنفيذ مطالبه على أرض الواقع وهذا ما لم يتحقق بالشكل المطلوب.

أما ثانيتهما فهي أن يعملوا مع الحلقات الأخرى على مدى جغرافية عالم الإسلام بمنطق التنسيق والتعاضد والتعاون والتكامل وهي أمور بدهية طالما أكد عليها كتاب الله وسنة رسولهﷺ ومع ذلك فقد أدير لها الظهر، ليس هذا فحسب بل ترك المجال لبدائلها السلبية كالارتجال والجهد الانفرادي والعزلة والنفي والاصطراع أن تحل محلها.. إن تاريخنا المعاصر هو ـ باختصار ـ تاريخ تفتيت للقوى وهدر للطاقات ما شهدته أمة من الأمم أو جماعة من الجماعات.

ولحسن الحظ فإن مهندسي المشروع النهضوي أخذوا يدركون منذ أكثر من عقدين من الزمن المطالب المشار إليها جيداً، ويدركون معها عوامل التعويق التي وضعت الأمة أو الجماعة في الحلقة المفرغة، فإذا استطاعوا أن يجعلوا هذه الرؤية بقطبيها الفكري والعملي واضحة تماماً قبالة الوعي الإسلامي المعاصر متحققة بأكبر قدر من الكفاءة في نسيج الحياة اليومية، فإنهم يكونون قد بدأوا البداية الصحيحة التي لا بد وأن تصل بهم إلى الهدف المرتجى.

خطوة خطوة وحلقة حلقة، قد يستغرق قطعها أو تنفيذها زمناً طويلاً ـ لكنها لن تكون ـ بأية حال ـ قفزة في القضاء، أو دعوة فضفاضة لا تقود إلى شيء.. «بطيء لكنه مؤكد المفعول» كما يقول المثل الإنكليزي.

والسؤال الآن: هو أن الأمة الإسلامية ليست ـ دائماً ـ في حالة تقبّل لهذا الجهد الثنائي في أحد جانبيه أو كليهما معاً: الفكر والعمل، بل قد تكون مهيأة ابتداء لوضع العوائق أمام المحاولة وإحباطها وهذا صحيح.. وصحيح كذلك أن الحياة الإسلامية على امتدادها في الجغرافيا، وعلى استعدادها الطبيعي لقبول الخبرات الأصيلة وطرد المزيف والدخيل. تنطوي دائماً على مفاصل أو مساحات تسمح بشكل أو آخر في تنفيذ هذه الحلقة أو تلك من حلقات المشروع، ويبقى على القيادات الفكرية أن تكتشف حجم الفرصة المتاحة هنا أو هناك، لتوسيع مساحة النسيج وأحكام حبكه، وهي مهمة ليست هينة كما أنها ـ مرة أخرى ـ تتطلب أقصى قدر من التنسيق والشمولية وتجاوز الارتجال أو بعثرة الطاقات.

قد يكون من بين الفرص المتاحة: التعاون مع قيادات الطرف الآخر، أو وضعه أمام الأمر الواقع وإرغامه على القبول.. أو العمل بمعزل عنه في الهامش المتاح وهو بالتأكيد هامش واسع يسمح كما هو ملاحظ عبر العقود الأخيرة، بتنفيذ العديد من المحاولات على المستويين الفكري والعملي.

ورغم أن بعض هذه المحاولات تعرّض للوأد بسبب عدم قدرة مهندسيها على الاستمرار حيناً، واستحالة تجاوز العوائق حيناً آخر، وقيام الطرف المضادّ بإحباط المحاولة حيناً ثالثاً.. إلاّ أن حلقات عديدة أخرى مضت تشق طريقها وتزداد تجذّراً وعطاء.. وهي بمجموعها ـ إذ أحسن توظيفها ـ تعين على نسج خيوط المشروع وتأكيده.

علينا دائماً أن نفكر بإعداد البدائل المناسبة لكي تحل محل خبرات لم تعد صالحة لمطالب الزمن أو المكان.. وخبرات أخرى تعرضت للحصار، والمصادرة والوأد لهذا السبب أو ذاك.

بدائل تكون جاهزة تماماً للنزول إلى الميدان وملء الفراغ الذي قد تترتب عليه انكسارات واقعية ونفسية كانت السبب في كثير من الأحيان للتداعيات التي شهدتها الجماعات الإسلامية عبر القرن الأخير.

إن بمقدور المرء أن يتذكر ـ في ختام هذه التأشيرات ـ نقاط الارتكاز التي يمكن الوقوف عليها لتنفيذ بعض حلقات المشروع والتي أخذت عبر العقدين الأخيرين بوجه الخصوص تتلقى ـ فعلاً ـ روافد العطاء فتزداد بفضل الله تدفقاً، ولكن، مرة ثالثة ورابعة تبقى الحاجة قائمة إلى اعتماد الصيغ التي تجعل هذه الروافد تتجمع إلى بعضها لكي تصبّ في الهدف الواحد.. الذي هو في نهاية الأمر هدف حضاري.

هناك على سبيل المثال ـ الأداء الفكري (على مستوى الدورية، الكتاب، العمل الموسوعي، المدرسة، الجامعة، المعهد، الندوة، الملتقى، المؤتمر..).

الأداء العلمي (على مستوى البحث، الدراسة، الكشف والاختراع..). الأداء الاجتماعي (على مستوى المنظمة الخيرية، المؤسسات الخدمية أو المالية أو الاقتصادية..).

الأداء الإعلامي (على مستوى الصحيفة، المسرح، السينما، الإذاعة، التلفاز، الڤيديو، الكاسيت..).

هناك أيضاً الأداء التربوي أو الدعوي أو السياسي بحلقاته وآلياته كافة. هناك فضلاً عن هذا كله ـ إمكان توظيف الفرص والإمكانات التي وضعها هذا الدين بين يدي المنتمين إليه فيما لم يضعه دين أو مذهب آخر في الأرض: (المسجد.. المنبر.. الحج.. الزكاة.. الصدقات.. الأوقاف.. الخ). وهي جميعاً ـ إذا أحسن التعامل معها لتحفيز عطائها ولو في حدوده المتاحة ـ وليست القصوى ـ فإن بمقدورها أن تفعل الأفاعيل وأن تعين على نسج حلقات المشروع النهضوي شرط أن تتهيأ

قيادات كفوءة تعرف كيف توظف الفرص جميعاً بأكبر قدر من التناغم والانسجام بين مقاصد الشريعة ومطالب اللحظة التاريخية.. قيادات يصير فيها الفقيه مفكراً والمفكر فقيهاً وتتلقى الحياة الإسلامية الضائعة على أيديها ما يعينها على المضي إلى هدفها بأكبر قدر ممكن من ضمانات المسير.



الهوية الثقافية لعالم الإسلام
ودور أجهزة التعليم والإعلام في صياغة وحدتها(*)

1 ـ ضرورات الاستراتيجية

إن السعي لوضع خارطة استراتيجية ثقافية إسلامية في عالمنا المعاصر، كانت ولا تزال، واحدة من أشد الضرورات أهمية وإلحاحاً لأكثر من سبب: فهناك ـ مثلاً ـ ضرورة تجاوز التفتت والتناقض والارتطام في المعطيات الثقافية لعالم الإسلام، والتحوّل ـ بدلاً عن ذلك ـ إلى اللمّ والتنسيق والتناغم لتحقيق بلورة أكثر للذات، وفاعلية أشد في العطاء في زمن المسابقة الحضارية التي تحتّم احترام عامل الزمن والمحاذرة عن الوقوع في مأساة هدر الطاقة.

وهناك الانفجار المتزايد في المعلومات وتقنيات التواصل المعرفي والذي يمكن أن يكون سلاحاً ذا حدّين، فالذين يملكون استراتيجية عمل ثقافي سيعرفون كيف يفيدون منه وفق أقصى حالاته المتاحة، والذين لا يملكون هذه الاستراتيجية قد ينقلب عليهم وبالاً، فيزيدهم فوضى وتبعثراً

(*) بحث مقدّم إلى «ندوة: من أجل استراتيجية ثقافية إسلامية» التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الأيسيسكو) في الرباط في الفترة ما بين 20 و 22 حزيران 1988م.

واضطراباً، وقد يؤول الأمر إلى ضياع كلّي لشخصيتهم الثقافية واندغامهم في بحر الثقافات الأشد فاعلية، والأكثر قدرة على التخطيط والاستشراف والإفادة من هذه التقنيّات المتطورة.

وهناك، فيما عدا حالات استثنائية لا تغطي سوى مساحات محدودة، فراغ مخيف واضح لكل ذي عينين، يعاني منه عالم الإسلام في مجال التخطيط الثقافي رغم كل الظروف الميسّرة للتحقّق بهذا التخطيط، الأمر الذي قد يؤول إلى مزيد من النتائج العكسية التي توسّع الهوّة بين عالم الإسلام والعالم المتقدم، ويجعل من التسارع لوضع ملامح استراتيجية عمل مركزي شامل، ضرورة من الضرورات.

فإذا ما تذكرنا أن تحدّي الحضارة الغربية المعاصرة لحضارتنا الإسلامية هو في جوهره تحدٍّ ثقافي، وأنه بصدد خلخلة واقتلاع هذه الثقافة من جذورها، لهذا الهدف أو ذاك، أدركنا أن مجابهة هذا التحدّي لن تأتي بطائل ما لم تعمل ضمن استراتيجية عمل ثقافي موحّد يضع يديه على الملامح الأساسية لهويّة المسلمين الثقافية، مستمداً إياها من عقيدتهم المشتركة ورصيدهم التراثي المذخور، واضعاً نصب عينيه أن يكون للمسلمين مكان متميّز على خارطة الثقافات في عالمنا المعاصر، لا بالالتجاء إلى الغير ومقاربته بالتقليد والتكديس، ولكن بالتميّز والأصالة وتعميق الملامح، مؤكداً على مستقبل يكون المسلمون فيه أكثر قدرة على المشاركة العالمية بمعطياتهم ذات الخصوصية، وبالتالي أكثر قدرة على التأثير في مستقبل العالم، واستعادة موقعهم الأصيل الذي دعا إليه كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، في الوسطية والشهادة على الناس **﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾**[1] مستفيداً، ما وسعته الاستفادة، من تقنيات التعامل المعرفي التي يمكن إذا أُحسن التعامل معها،

---

(1) سورة البقرة، الآية: 143.

أن تختزل حيثيات الزمن والمكان، وأن تحقّق المقاربة الموعودة من العالم المتقدم الذي تباعد بيننا وبينه المسافات الطوال.

2 ـ توجهاتها الأساسية

عموماً، فإن استراتجية كهذه تجد نفسها ملزمة بالتحرك في اتجاهين أساسيين، أولهما حركة باتجاه المسلمين أنفسهم، وثانيهما حركة باتجاه الغير، ويقيناً فإن أية محاولة للتخطيط تحاول أن تتجاوز إحدى هاتين الحركتين سوف تكون ناقصة ولن تأتي بثمارها الموعودة.

وفي كلتا الحالتين فإن مبدأ (التعارف) الذي دعا إليه كتاب الله سبحانه بقوله ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم..**﴾[1]، يمكن أن يكون محور الحركة في الاتجاهين معاً.

على مستوى الأمة الإسلامية فإن وحدتها الثقافية لا تستدعي بالضرورة تجاوز أو إلغاء خصوصيات الشعوب والجماعات التي تنتمي إليها، والتي شكّلتها وغذّتها مؤثرات البيئة ورصيد التاريخ. ذلك أن الوحدة والتنوع لا تمثل في حضارتنا الإسلامية نقيضين متضادين بقدر ما هي عامل دفعٍ وإغناء لهذه الحضارة، ومصدر خصب لإرفادها بالمزيد من المعطيات المتنوعة التي تصب في نهاية الأمر في بحر شخصيتها الكبرى فتزيدها ألقاً وتماسكاً وعطاءً ووضوحاً، ما دام أن هذه الشخصية تستمد مكوناتها الإساسية ونقاط شدّها وتوحّدها، ليس من المتغيرات البيئية والتاريخية، ولكن من مرتكزات عقيدتها الثابتة، المكتملة، المحفوظة الحدود والملامح في كتاب الله وسنة رسولهﷺ وممارسات الأجيال الإسلامية الموصولة عبر الأماكن والأزمان.

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

إن أية محاولة لتوحيد المسلمين ثقافياً، من خلال وضع خارطة عمل، أو استراتيجية موحدة، يجب أن تضع في حسبانها ثنائية كهذه تنطوي على الوحدة والتنوع، والثابت والمتحوّل، والصلب والمرن، والدائم والمتغيّر.. أي ـ في نهاية الأمر ـ على المرتكزات العقيدية والممارسات الحيوية.. معاً..

هذه الثنائية التي يمكن، إذا أسيء تقديرها حق قدرها، أن تكون أداة للفصل والتباعد، والعزلة والقطيعة، وأن تزيد المسلمين تمزقاً على تمزّقهم، ويمكن ـ كذلك ـ إذا أحسن توظيفها في استراتيجية العمل أن تكون وسيلة فاعلة للتوحد المرتجى الذي يلمّ شتاته المتنوعة المتغايرة على الأصل العقائدي الثابت الكبير.

أما على مستوى التحرك باتجاه الغير فإنه يكاد أن يخضع للمبدأ نفسه: احترام التغاير، ومحاولة الإفادة منه بتحقيق مزيد من التعارف بين المسلمين وبين ثقافات ومعطيات الأمم الأخرى، وبخاصة الثقافة الغربية المعاصرة.

ومن فضول القول التأكيد على أن تعاملاً كهذا بين المسلمين والغير لن يكون تعاملاً نديّاً أو متكافئاً، لا يؤول إلى الذوبان أو الاندماج أو فقدان الشخصية، ما لم يتحقق المسلمون أنفسهم بالحركة الأولى: وحدتهم الثقافية التي تعطيهم مكاناً متميزاً على خارطة العالم وتمنحهم ثقلهم النوعي وتجعل من عبورهم للتعامل مع الآخرين مأمون العواقب، ذا نتائج إيجابية تعزّز شخصيتهم ولا تلغيها.

ومرة أخرى، فإن الثقافة الإسلامية يمكن أن تمارس هاهنا دوراً مؤثراً في العالم كله، يزيدها ـ في الوقت نفسه ـ قدرة على التأصّل والتوحّد والتميز.

ذلك أن هذه الثقافة المستمدة في أساسها من أصولها الإسلامية والمتأثرة، بدرجة أو أخرى، بالمنظور العقيدي لهذا الدين، تختلف عن

سائر الثقافات الأخرى بجملة خصائص لا تكاد تجتمع إلاّ في إطارها، وأبرز هذه الخصائص ولا ريب قدرتها الفذّة المرنة على لم سائر الثنائيات التي بعثرتها المذاهب والثقافات الأخرى، وقدرت هذه الأمة، بقوة عقيدتها، أن تجمع بينها وتسوقها في إطار واحد خدمة للإنسان والجماعة البشرية على السواء.

إننا نجد مثلاً ثنائيات من مثل المادة والروح، والجسد والوجدان، والحس والعقل، والظاهر والباطن، والحضور والغيب، والقدر والاختيار، والضرورة والجمال، والطبيعة وما وراءها، والتراب والحركة، والوحدة والتنوع، والمنفعية والأخلاقية، والفردية والجماعية، والعدل والحرية، والوحي والتجريب، والدنيا والآخرة، والنسبي والمطلق، والفناء والخلود.. ثنائيات كهذه تتلاءم وتتناغم وتندمج في كيان الثقافة الإسلامية، بينما هي في سائر الثقافات الأخرى في حالة اصطراع وتضاد، وهي في هذه الحالة تشكل عصب المأساة التي يعاني منها الغير والتي يجد نفسه مضطراً، أكثر فأكثر، للبحث عن بدائل لها قد تكون فرصة الثقافة الإسلامية للتحقّق بالتواصل المؤثر مع الآخرين.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالاستراتيجية الموعودة فإنها يتحتم أن تقيم المزيد من الجسور بيننا وبين الآخرين، ليس فقط لتنسيق طرائق الأخذ عن الغير من أجل إغناء شخصيتنا الثقافية، ولكن أيضاً بإغراء الغير بالأخذ عن ثقافتنا، أو محاولة التعرّف عليها على الأقل بأكبر قدر من الجديّة والحرص فيما يمنح العلاقة بين سائر الأطراف تكافؤها وندّيتها، وقدرتها على التميز والبناء، وإسهامها الفعّال في بناء مستقبل الإنسان في هذا العالم.

3 ـ مشاركاتها المستقبلية

ويكفي أن نتذكر هنا جانباً من أقوال واستنتاجات مفكري الغرب المعاصرين لكي يتأكد لنا أن تأصيل وحماية هويتنا الثقافية تعدّ ضرورة ليس في إطار عالم الإسلام وحده، ولكن على مدى العالم كله.

في هذه الحالة فإن هذا الدين سيعود، كما يقول المفكر القانوني الفرنسي مارسيل بوازار «إلى الظهور في العالم المعاصر بوصفه أحد الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع»[1] وحينئذاك ـ أيضاً ـ سيكون «في وسع العالم الإسلامي، من بين عوالم أخرى، أن يقدم مشاركة أساسية في تكوين المجتمع الدولي المرتقب»[2].

إن الإسلام، كما يقول الرجل «دين حي ودانيامي، وهو يحاول أن يجد مجلىً لقوته الداخلية للاشتراك في الحياة الدولية المعاصرة، وفي مساهمته أن تكون جوهرية، لا لأنه يملك فقط تجربة عمرها أربعة عشر قرناً في العلاقات بين الشعوب، بل لأنه ينقل ـ كذلك ـ رؤية أخلاقية للغاية من القانون الدولي معتبراً أن الإنسان في التحليل الأخير رعية من رعايا النظام وهدف أخير من أهدافه»[3].

وهنا بصدد البعْد الأخلاقي لمشاركة الإسلام العالمية لم يفت بوازار أن يشير إلى أن التقدم العلمي المادي لا يكفي وحده ما لم تضبطه القيم الخلقية، فتوجهه بالتالي لصالح الإنسان، ومن خلال هذه الرؤية الأخلاقية للنشاط المادي يمكن للإسلام أن يمارس «دوراً حقيقياً في تنظيم العالم المعاصر»[4].

---

(1) إنسانية الإسلام ص 431 (ترجمة د .عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت ـ 1980).

(2) المرجع السابق ص 439.

(3) المرجع السابق ص 426ـ 427.

(4) المرجع السابق ص 369.

وأهمية المشاركة الإسلامية تبدو أيضاً، في نظر بوازار، في التوازن الذي يمنحه الإسلام، بما أنه تعبير عن روح ديني، لمسيرة المجتمع البشري بين التقدم المادي (التقني) وبين المطامح الروحية والإنسانية عامة، خاصة وأن «الانخراط في المجتمع التكنولوجي، والمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية، لا تدفع المسلم إلى إنكار موقفه الديني بل إلى تعميقه أمام العالم وأمام الله، متوجباً عليه محاولة إدراك الإمكانيات بشكل أفضل في إطار إسلامي شامل..»[1].

وإذ يؤكد بوازار ما يقدمه القرآن الكريم في هذا السياق من «ثقة مطمئنة وحافز قوي في وقت معاً» فإنه يحذّر من «أن إسلام المستقبل ودوره في العلاقات الدولية» لا تجيء به الأماني والأحلام إنما هو «رهن بما يصنعه المسلمون أنفسهم»[2].

ويرى الباحث الأمريكي المعاصر كويلر يونغ «أنه ليس من المعقول لثقافة حية كثقافة الإسلام.. ألاّ يكون لها تأثير بالفعل أو بالقوة»[3]، في التشكل الحضاري للمستقبل. وهو يحذّر من «أن عالمنا هذا الذي مزقته الجماعات المحتربة والذي لا يعرف حكماً أعلى بيده مصير الإنسانية، ليجدر به تصوّر الوحدة الجوهرية للحياة كما أسسها الإسلام، ولا شك أن هذه الوحدة ـ في أحسن صورها ـ سيكون لها أثرها في الحاجات الروحية للناس في أيامنا الحاضرة»[4]. وثمة «نصيب آخر من الفضل للإسلام» قد يكون متفرعاً عن سابقه، ذلك «هو ما حققه من التسامح بين أجناس البشر.. أن الإسلام ـ في إطار الأخوة الإسلامية ـ يستطيع أن يري

---

(1) المرجع السابق ص 387ـ 388.

(2) المرجع السابق ص 389.

(3) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ص 255 (الطبعة الثانية، جمع وتقديم محمد خلف الله، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ 1962).

(4) المرجع السابق ص 256.

المسيحية نجاحاً حقيقياً فعلياً في ميادين التسامح البشري»[1].

هذه المشاركة التي يؤكدها المستشرق الفرنسي درمنغهم بصيغة تحقيق للتواصل بين الغرب والشرق، وإرفاد لعالم المستقبل «باذخار العالم القديم»[2] ويراها زميله، اتيين دينيه تبشّر «بمستقبل حافل بأعظم الآمال وأعلاها شأناً»، وبإسهام حضاري فعال، وبتكشّف متزايد لسنا الإسلام الحقيقي حيث «ستعرف الأمم المختلفة حقيقته التي حجبت عنها زمنا، وسيمدّ الكل أيديهم لمحالفته، متنافسين في ذلك لأن قيمته قد خبروها وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التي لا حدّ لها ولا نفاد»[3].

أما المؤرخ البريطاني المعاصر مونتكمري وات فيركز استنتاجاته حول المشاركة الأخلاقية للإسلام «تلك المبادىء التي تكون إضافة فعلية لتحسين حالة العالم»[4] وهو يؤمل في أن المسلمين سوف ينجحون، رغم المصاعب «في جهدهم للتأثير على الرأي العام العالمي، على الأقل فيما يتعلق بالمبادىء الأخلاقية. وربما أمكنهم في ميدان الأفكار الدينية الأوسع أن يساعدوا عى إغناء العالم لأنهم احتفظوا بقوة كبرى في التعبير عن بعض الأفكار كحقيقة الله، تلك الأفكار التي أهملت ونسيت في كثير من الطوائف والأديان الأخرى الموحدة»[5].

ويقدم المفكر الفرنسي المسلم روجيه (رجاء) گارودي في كتابه (وعود الإسلام) ملاحظات خصبة عن المشاركة العالمية لهذا الدين. إن

---

(1) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(2) حياة محمد ص 371ـ 372 (الطبعة الثانية) ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب، القاهرة ـ 1949.
(3) محمد رسول الله ص 345ـ 346 (الطبعة الثالثة، ترجمة د .عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود، الشركة العربية، القاهرة ـ 1959).
(4) محمد في المدينة ص 508ـ 509 (تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ـ بدون تاريخ).
(5) المرجع السابق ص 509.

عنوان الكتاب يحمل بعداً مستقبلياً، وأن ملاحظات صاحبه حول مشاركة الإسلام العالمية تتحرك على عدد من المحاور أهمها ولا ريب: توازن الإسلام ووسطيته، قيمه الأخلاقية، ثم رؤيته الشمولية، وقدرته الفذة على منح المغزى لمسيرة الحياة البشرية في هذا العالم.

ولن يتسع المجال ها هنا لتقديم الشهادات على هذه المحاور، ولكننا نجد من الضروري تذكّر السؤال الذي طرحه كَارودي في كتابه هذا «ماذا يستطيع الإسلام أن يقدم لنا ليعدّنا للإجابة على المسؤوليات التي تفرضها قدرة العلم والتقنية على جميع البشر اليوم؟»، وأن نتذكر ـ كذلك ـ جوابه «أن المشكلة كونية، ولا يمكن للجواب إلاّ أن يكون على المستوى الكوني»[1].

وهكذا تصير مشاركة الإسلام القادمة أكثر من ضرورية، تصير أمراً حتمياً لأنها لن تدخل الساحة لكي تعالج هذه الجزئية أو تلك، ولا لكي تمنح العلاج لهذه المشكلة المحدودة أو تلك، وإنما لكي تعيد تصحيح الحياة البشرية بما يردّ إليها قيمتها الحقة، ويمنحها هدفاً ومغزى، ويربطها بالإنسان نفسه، محققاً التناغم والانسجام بين أقطاب الكون بعد إذ أقام الفكر الوضعي بينها الإسلاك الشائكة، وكهربها بالكراهية والبغضاء. وهكذا يغدو «بعث الإسلام كبعث الإنسانية بأكملها»[2].

إنها إذن «قضية مستقبلنا، قضية مستقبل جميع البشر»[3].

وثمة أخيراً ما يستوقفنا في (وعود الإسلام).. شهادة على غاية الأهميةَ لأنها تتضمن قاعدة الدور الإسلامي المنتظر ومنطلقه، بل مفتاح

---

(1) وعود الإسلام ص 67 (ترجمة ذوقان قرقوط، الوطن العربي، القاهرة، بيروت ـ 1984).

(2) المرجع السابق ص 179.

(3) المرجع السابق ص 187.

عقيدته ورؤيته للعالم».. (لا إله إلا الله) هذا الإثبات الأساسي للإيمان الإسلامي»[1].

إن كارودي، الذي انتقل أخيراً إلى الإسلام، ليعرف جيداً ما يقول، بل إنه ليؤشر بالوضوح المطلوب، على أس الأسس في بنيان الإسلام وفي إسهاماته العالمية كذلك. وهو يعرف ـ أيضاً ـ أنّ (لا إله إلا الله) تعني أول ما تعني إعلان الحرب على الوثنية واقصائها.. ليست وثنية قريش وحدها، ولكنها وثنية العالم كله، وثنية العالم المعاصر على وجه التحديد، فها هنا، حيث تأخذ برقاب الإنسان وتفصله عن ارتباطاته بالكون، وبمصيره، يغدو شعار (لا إله إلا الله) بكل جذريته، وقدرته على التغيير، وحربه التي لا هوادة فيها للوثنية بكافة صيغها ورموزها وأشكالها وطقوسها، ضرورة المصير الإنساني وحتميته، فها هي ذي الصنمية، كما يسميها گارودي «تفرّخ وتتكاثر في مجتمعاتنا: صنم النموّ، صنم الـ (تقدم)، صنم التقنية العلموي، صنم قوة الأسلحة والجيوش، بمحذوراتها جميعاً ومحرّماتها وبرموزها المقدسة وبطقوسها. كلاّ، يذكرنا الإسلام (لا إله إلا الله)، الله أكبر، وأننا لنعرف بالتأكيد ما لهذا اليقين في العقيدة من قوة هدم وتحرير.. فالحوار هكذا مع الإسلام يمكنه أن يساعدنا على ابتعاث خميرة عقيدتنا الحية فينا، تلك التي تستطيع نقل الجبال من مواضعها..»[2].

حقاً، إن «الإسلام يحمل بذور تغيير جذري على مستوى الإنسانية»[3].

٤ ـ ملاحظات حول دور أجهزة التعليم والإعلام

قد تكون الصفحات السابقة حديثاً عاماً عن المحاور الأربعة لندوة

---

(1) المرجع السابق ص 217.

(2) المرجع السابق ص 217ـ 218.

(3) المرجع السابق ص 156.

الاستراتيجية. والآن، يمكن التوقف قليلاً عند المحور الرابع لتقديم بعض الملاحظات الموجزة على الدور الذي يمكن أن تضطلع به أجهزة التعليم والإعلام في صياغة وحدة الاستراتيجية الثقافية الإسلامية، بما أن هذه الأجهزة هي الأدوات التنفيذية الأكثر فاعلية في تحقيق الهدف المرتجى، لا سيما وأننا نعيش عصر التقدم التقني المذهل، وتراكم الخبرة، وانفجار المعلومات، وتزايد دور الآلات الحاسبة وأجهزة خزن المعلومات وتنسيقها، والقفزة النوعية في وسائل الاتصال.. إلى آخره..

أولاً: مثّل الإسلام، ولا يزال، كمنظور عقيدي، وأيضاً كممارسة تشريعية وتعبدية، مرتكزاً من أشد المرتكزات خطورة وتأثيراً على معطيات المسلمين الثقافية، وعلى منح هذه المعطيات خصائصها وسماتها المشتركة.. وإنه لأمر بديهي أن ينفذ الإسلام هذا الدور إزاء الجماعات التي عايشها وعايشته أربعة عشر قرناً، وبديهي كذلك أن يكون الإسلام - بالتالي - أشد عوامل الاتصال والتوحد الثقافي بين المسلمين فاعلية وتأثيراً، بل أن يكون القاعدة الأساسية التي منحت المسلمين ثقافة متميزة تستمد أسسها وتكوينها من الدين الذين صاغها.

والمطلوب شيء غير مجرد التأكيد على هذه البديهيات. إنه البحث المتأني الدقيق عن سائر عناصر الانعكاس الإسلامي على النشاط الثقافي المعاصر للمسلمين.. بحث ميداني قد توظف له حشود من الطاقات لحصر هذا الانعكاس بكافة مفرداته من أجل وضع اليد على ما الذي تبقى من عناصر الارتباط بين الإسلام وبين ثقافة المسلمين، وما الذي تعرض للاضمحلال والزوال، وبالتالي تشخيص الأسباب والمؤثرات التي أبقت على عناصر معينة، وأضعفت وأزالت أخرى، الأمر الذي يمكن أن يعين على الإفادة من العناصر المستمرة في تعزيز الوحدة الثقافية من جهة، وإعادة الحياة والفاعلية من جهة أخرى للعناصر الأخرى التي تعرّضت للاضمحلال والغياب، من أجل تحقيق أكبر قدر من التغطية بين الإسلام

وبين ثقافات المسلمين الواقعة، المتشكّلة، ومن أجل أن يتحقق أكبر قدر ممكن من التشكّل في إطار الرؤية والتجربة الإسلاميتين لا خارجهما. وحينذاك ستجد وحدة الثقافة الإسلامية عناصر دفع وإرفاد جديدة تمكنها، ليس فقط من مواصلة الطريق، والديمومة، ولكن من التحقّق بمزيد من التأصيل والتعبير عن الذات.

إن المؤسسات التعليمية والإعلامية هي الأقدر على تأدية هذه المهمة، وهي التي يتحتّم أن تناط بها مسؤولية كهذه.

ثانياً: وتشكل اللغة العربية، بما أنها لغة القرآن، وعصب التراث التعبيري للمسلمين، مرتكزاً أساسياً، يلي العقيدة الإسلامية في تحقيق المقاربة والتوحد الثقافي للجماعات والشعوب الإسلامية. وهذا يوجب جهوداً استثنائية مضاعفة للمؤسسات التعليمية والتربوية والإعلامية بشكل خاص، لتمكين هذه الأداة الفاعلة من استعادة دورها العالمي الانتشاري وإغرائها كلغة إسلامية أم لمعظم الشعوب المنضوية تحت لواء هذا الدين في أن تستقطب اهتمام هذه الشعوب لاعتمادها كلغة أساسية، أو على الأقل، إيلاءها المكانة التي تليق بها جنباً إلى جنب مع اللغات القومية. فضلاً عن ضرورة حماية رسم الحرف العربي في اللغات غير العربية، من الانحسار والاندثار والتغيير كما حدث في التجربة الكمالية في تركيا مثلاً وذلك من أجل الإبقاء على الجسور المفتوحة بين الشعوب الإسلامية وبين لغة كتابهم وعقيدتهم وتاريخهم الطويل. إن هذا يقتضي أيضاً محاولة جادة لمتابعة وتحديد الأسباب التي آلت إلى انحسار العربية من ساحة الثقافات الإسلامية عبر القرون الأخيرة، ومحاولة إيجاد الإغراءات والصيغ التي تعيد الالتحام ثانية بين هذه اللغة وبين الشعوب التي تدين بالإسلام.

ثالثاً: وتشكل الأنشطة والممارسات التعليمية والتربوية واحدة من أهم الوسائل قدرة على حماية وحدة المسلمين الثقافية، وتعزيزها كذلك، لأنها ـ في حقيقة الأمر ـ الأداة التنفيذية لتحقيق التواصل الثقافي الدائم بين

المسلمين وعقيدتهم. ومن ثم يتحتّم أن تقوم هذه الأنشطة والممارسات على حدّ أدنى من الالتزام بالمنظور العقيدي للكون والحياة والوجود والإنسان، وأن تصطبغ مفرداتها المنهجية بالصبغة التي يتطلبها هذا المنظور، قدر الإمكان، من أجل أن تتخرج أجيال الطلبة والدارسين، في مدى عالم الإسلام، وهي تحمل عناصر اللقاء، والتقارب، والتوحد على مقتضيات هذه العقيدة، فتكون متميزة الثقافة، أصيلة المعطيات، تملك خصوصياتها التي تمنحها مكانها المستقل على خارطة العالم. ومعنى ذلك أن أية برمجة لاستراتيجية ثقافية موحدة لن تكون قد فعلت شيئاً، أو قطعت ولو جزءاً يسيراً من الطريق صوب هدفها، ما لم تمنح الممارسة التعليمية التربوية الاهتمام المتزايد، وتضمن تحقّقها ـ على الأقل ـ بالحدّ الأدنى من مطالب الارتباط بين المفردات والعقيدة (وها هنا يمكن أن يتذكر المرء الدور الفعّال الذي يلعبه المعهد العالمي للفكر الإسلامي فيما اصطلح عليه بأسلمة المعرفة التي هي واحدة من أشد الأنشطة إلحاحاً في مجال التخطيط لستراتيجية ثقافية موحدة).

رابعاً: وتشكل الآداب والفنون وسيلة لا تقل أهمية عن سابقتها في مجال تحقيق التعارف والمقاربة الثقافية بين الشعوب الإسلامية، لأنها في أساسها تعبير صادق، مؤثّر، عن الذات. ورغم أن مساحات كبيرة من المعطيات الأدبية والفنية في عالمنا الإسلامي قد انسلخت عن أصولها العقيدية وغادرت رحم أمها المسلم لكي تتهجّن مغرّبة أو مشرّقة، فإنه يتبقىٰ هناك مساحات أخرىٰ لا تزال تعبّر بصدق وجدّية عن الرؤية الإسلامية للحياة ويمكن أن تمارس دوراً في بناء الاستراتيجية الثقافية إذا أحسن فرزها ومنحها قدرات أكبر على البقاء والنموّ ومواصلة الطريق (الأمر الذي يذكرنا بما تمارسه رابطة الأدب الإسلامي التي انبثقت في الهند قبل سنوات قلائل لتغطية هذه الحاجة الثقافية الملحّة لعالم الإسلام).

وفي الحق فإنه لا يكفي أن نعزّز فقط المعطيات الأدبية والفنية ذات

الارتباط أو التوجّه الإسلامي، وإنما أن تمضي المحاولة إلى معطيات الآداب والفنون في مساحاتها الشاملة لكي تنفخ فيها، ما وسعها الجهد، روحاً من الأصالة والتشبث بالذات المسلمة، من أجل أن يجيء التعبير أكثر تميّزاً وصدقاً، فإن الفرنسي أو الإنكليزي أو الروسي لا يهمه أن يقرأ أو يشاهد قصة أو مسرحية أو قصيدة أو لوحة أو معماراً يعكس، أو يستنتسخ ما أبدعه الفرنسيون أو الإنكليز أو الروس، وإنما هو يريد أن يتعرف على المعطيات التي تحمل خصوصيتها الإسلامية وتضيف لرصيد الآداب والفنون في العالم شيئاً متميزاً جديداً.

خامساً: ومع العقيدة الإسلامية واللغة العربية والممارسات التعليمية والتربوية ومعطيات الآداب والفنون، هناك الأجهزة والمؤسسات والوسائل الإعلامية التي يمكن أن تمارس، في عصر التقنية المتقدمة والتواصل السريع، دوراً فعالاً كبيراً في رسم استراتيجية الإسلام الثقافية، والإعانة على تحقيقها في الوقت نفسه.

إن الإذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح والصحافة ودور النشر، لهي المؤسسات ذات القدرة الهائلة على التأثير الثقافي الفعال على مستوى تحقيق الهوية من جهة، ورسم الاستراتيجية من جهة أخرى. بل إنها تمثل شرايين التواصل بين الشعوب والجماعات الإسلامية، وجملتها العصبية التي تصوغ التأثير وتكيف الحياة مانحة إياها وجهها المتميز وروحها الأصيلة.

ولا يكفي ها هنا أن تخصص ساعات أو مساحات محددة لتقديم البرامج والمعطيات الدينية في هذه الوسائل الإعلامية، ولكن أن تتحول إلى قنوات فاعلة للتحقق بفهم أعمق للإسلام من جهة، ولتعزيز وتوسيع إطارات التعارف والتقارب بين الشعوب الإسلامية ذاتها، وبينها وبين العالم من جهة أخرى.

وكذلك فإن من الضروري أن يسعىٰ المشرفون على هذه الأجهزة إلى

تنفيذ أكبر قدر ممكن من التبادل البرامجي، والتعاون الإنتاجي، والنشر المشترك، وأن يكون لإعلام كل دولة من الدول الإسلامية حضور مؤثر فاعل في الجهاز الإعلامي لشقيقاتها المسلمات من أجل تحقيق مزيد من التعرّف على الذات والتقارب على المطالب والأهداف الحيوية المشتركة، ومن أجل التحقّق بقدر معقول من استقلال الشخصية عبر الخطاب الإعلامي للغير.. أي للشعوب والأمم غير الإسلامية.

إن الكتاب الذي تسهم في نشره أكثر من دولة مسلمة، والقلم الذي تنتجه كوادر عربية وتركية وأندونيسية، والبرنامج الإذاعي أو التلفزيوني الذي يبث على مدى عالم الإسلام كله، هموم هذا العالم ومطامحه ونبضه المشترك.. والصحيفة، أو الصحف الأم التي تصدر في وقت معاً في بغداد والقاهرة والخرطوم والجزائر والرباط والرياض وأنقرة وكراتشي وكوالا لامبور.. الخ.. لهي التي ستعين بلا شك، إلى جانب العوامل آنفة الذكر، على صياغة الاستراتيجية الثقافية الإسلامية التي عقدت هذه الندوة من أجل اختبارها وتحديد إبعادها وملامحها...

علوم الشريعة في الجامعات: الواقع والآفاق(*)

[1]

يمكن أن تكون البداية: الحالة النفسية والاجتماعية والوظيفية لطلبة علوم الشريعة وخرّيجيها في القرنين الأخيرين بوجه التقريب، مقارنة بالحالة نفسها في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية.

كان المعني بالعلوم الشرعية، أو الفقيه، يقود الحياة ثم ما لبث أن انسحب إلى هامش الحياة فأصبحت تقوده بضغط الضرورات النفسية والاجتماعية والوظيفية.

وكان يملك عقلاً ابتكارياً متوقّداً، يقدر في لحظة على تكييف هذه المفردة أو تلك وفق مقاصد الشريعة، فيعين على تمكين الخبرة الإسلامية من التواصل والاستمرار بالالتحام بالحياة، ثم ما لبث أن فقد هذا التألّق، أو تعمد أن يطفئه استجابة لحالة اجتماعية يحكمها تقليد السابقين واتباع خطى الآباء والأجداد، وتعين على نسج خيوطها الكالحة ضغوط السلطة الاستعمارية (الخارجية) تارة، والمحلية (الداخلية) تارة أخرى، وهي

(*) بحث مقدّم إلى مؤتمر (علوم الشريعة في الجامعات: الواقع والطموح) الذي عقده المعهد العالمي للفكر الإسلامي وجمعية الدراسات والبحوث الإسلامية والجامعات الأردنية في عمان في الفترة ما ين 23ـ 25 آب 1994م.

الضغوط التي استهدفت عزل الشريعة عن الحياة، ونسف الجسور المقامة بين الطرفين، بما فيها «الفقيه» الذي أريد له ألا يشارك في عملية التغيير أو الصياغة أو إعادة تعديل الوقفة وأن يتحول إلى واعظ، أو خطيب جمعة تقليدي، أو مدرّس دين ولغة عربية يتلقى في معظم الأحوال أجره الشهري من الحكومات. وإذ تعمد أن يكون الأجر زهيداً لا يكاد يسدّ الرمق وكان العالم أو الفقيه غير قادر على أية حرفة إضافية تعينه على الارتقاء بمستواه المعاشي صوب الحد الأدنى من سوّيته المعقولة، انعكس ذلك كله عليه، فأصبح مسحوقاً، ممتهناً، ضعيفاً لا يملك في معظم الأحيان «الشخصية» الآسرة القوية المؤثرة التي تمكنه من أداء دوره المطلوب.

لقد رأينا جميعاً هذا بأم أعيننا.. ثمة حالات استثنائية بكل تأكيد ولكنه الاستثناء الذي يعزز القاعدة ولا ينفيها.

يحدثنا الأستاذ (محمد قطب) في كتابه (واقعنا المعاصر) عن اللعبة التي مارستها السلطات الاستعمارية في مصر مع خريجي الشريعة واللغة العربية (كنموذج لما جرى في معظم ديار المسلمين يومها). وكيف أعانها عليها، بمرور الوقت، قوم آخرون من سكنة ديار المسلمين أنفسهم والمحسوبين عليهم، وآل الأمر إلى أن يصير «العالم» أو مدرس الشريعة والعربية، أضحوكة بين الناس، يُتسلّى بها حتى في عروض السينما والإذاعة والتلفاز.

«تولى المستر دنلوب ـ القسيس الذي عينه كرومر مستشاراً لوزارة المعارف ـ مهام منصبه وكان في يده السلطة الفعلية الكاملة في وزارة المعارف المصرية الإسلامية (وحين يكون القسيس على رأس السلطة في وزارة التعليم، فما الذي يتوقع أن يكون من أمر التعليم؟

«جاء دنلوب ليضرب الأزهر ـ موطن الخطر على كنيسة المسيح ـ ولكن بغير حماقة نابليون التي كانت سبباً في استثارة المسلمين.

«ترك دنلوب الأزهر على ما هو عليه لم يتعرض له على الإطلاق، ولكنه ـ على الأسلوب البطيء الأكيد المفعول ـ فتح مدارس جديدة تعلّم (العلوم الدنيوية) ولا تعلّم الدين إلا تعليماً هامشياً هو في ذاته جزء من خطة إخراج المسلمين من الإسلام.

«. . . لقد كان المتخرج من هذه المدارس ـ بعد أربع سنوات فقط ـ يعين فور تخرجه في دواوين الحكومة (براتب ذي قوة شرائية عالية) أما خريج الأزهر الذي يقضي في الدراسة عشرين سنة من عمره في بعض الأحيان فلا يجد عملاً، وإن وجد عملاً في إقامة الشعائر في المسجد فبمائة وعشرين قرشاً، تكفي للحياة نعم، ولكنها حياة ذليلة ضئيلة بالنسبة لخريج المدرسة الابتدائية الذي يعمل في الديوان!

«لقد كان الانتساب إلى الأزهر فيما مضى شرفاً تتسابق إليه الأسر. . أما في عهد دنلوب فلم يعد يذهب إلى الأزهر إلا الفقراء الذين يعجزون عن دفع مصروفات المدارس الحديثة وفي الوقت ذاته ينالون جزاء فقرهم ضياعاً في المجتمع وهواناً فيه.

«. . أما المناهج التي وضعها دنلوب في مدارسه (فقد استهدفت اغتيال وتشويه اللغة العربية والدين والتاريخ) إذ كان الراتب الذي يتقاضاه المدرسون من أصحاب المؤهلات العليا اثني عشر جنيهاً، إلا مدرس اللغة العربية وحده فيتقاضى أربعة جنيهات. وكان لهذا الوضع انعكاساته ولا شك في داخل المدرسة أو في المجتمع على اتساعه. فأما في داخل المدرسة فلم يعد مدرس اللغة العربية هو المقدم بل أصبح في ذيل القافلة يتقدمه المدرسون جميعاً ـ بل حتى فراش المدرسة أحياناً ـ ومن ثم لم تعد له كلمة في المدرسة فلا هو يستشار في شؤونها ولا هو يشارك في شيء من إدارتها ولم يعد له كذلك عند التلاميذ احترام. . بينما يحظى مدرس الإنجليزية بالذات بأكبر قدر من التوقير والاحترام. . أما في المجتمع فهو أشد ضياعاً منه في المدرسة ـ بسبب انحدار راتبه ـ ويصبح مادة دائمة

للسخرية يتحدث الناس عن جهله وتخلفه وضيق أفقه وفقره وانحطاط مستواه الاجتماعي والفكري.. وحين يصبح مدرس اللغة العربية في هذا الوضع المهين الذي لا يبعث على الاحترام فإن وضعه يؤثر حتماً على المادة التي يدرّسها. وقد كان هذا هو الهدف المقصود من وراء ذلك التدبير الخبيث.

«... أما درس الدين في مناهج دنلوب فلا يقل سوءاً إن لم يكن أسوأ. فمدرس الدين هو نفسه مدرس اللغة العربية الذي وضعه دنلوب في ذلك الوضع المزري المهين ولكن يزيد عليه أن أكبر المدرسين سناً هو الذي يوكل إليه تدريس الدين.. ويزيد على ذلك أن حصة الدين توضع في نهاية الجدول المدرسي.. فيتلقاها التلاميذ وهم في حالة الضجر والأعياء.. ينتظرون دق الجرس لينفلتوا إلى الشوارع والبيوت، ويتلقونه من مدرس عجوز فانٍ يسعل ويتفل ويتحرك في تراخٍ ظاهر، فيقترن درس الدين في نفوسهم بالعجز والفناء والضجر والرغبة في الإنفلات فوق أنه درس ميت في طريقة تدريسه، فهو مجموعة من النصوص تلقى لتحفظ حفظاً وتستظهر، بلا حركة ولا حياة ولا روح!

«... ولكي تعلم أنها خطة مقصودة لتنفير التلاميذ من الدين، فلتعلم أن الدين في المدارس التبشيرية التي يؤمها التلاميذ المسلمون لا يقتصر على درس الدين المسيحي (الذي تخصص له الساعات الأولى ويحاط بالنشاط والفرح والبهجة) بل هو روح تلقىٰ إلى التلاميذ في كل مناسبة، في أثناء الدروس واللعب والوقوف في الصف والإنصراف من المدرسة، ومن ثم يكون ذا أثر عميق في نفوس التلاميذ، ولا يكون درس الدين المتخصص رقعة في الثوب متنافرة معه وغير متناسقة (كما هو الحال مع الدين الإسلامي) بل قطعة طبيعية مع نسيج الثوب متناسقة معه ومزينة له.

«وزيادة في النكاية لدرس الدين (الإسلامي) فقد وضعه المنهج الدنلوبي ضمن المواد الإضافية التي تحذف في جدول الصيف المختصر

الذي يقتصر على المواد الرئيسية فيحذف منه الدين والرسم والأشغال اليدوية والألعاب الرياضية، وهكذا يصبح في حس التلاميذ مادة هامشية ليس لها اعتبار».

في محاضرة عن «قيمة التاريخ» ألقيتها في الموصل قبل عدة شهور أشرت إلى ما يمكن اعتباره إحساساً بالنقص «مركّب نقص» يعاني منه طلبة أقسام التاريخ تجاه الفروع المعرفية الأخرى: إنسانية وصرفة وتطبيقية، بينما نجد هؤلاء الطلبة في جامعات العالم المتقدم يتمتعون بأعلى وتائر الثقة والطموح والاعتقاد بأنهم يمضون للتخصص في واحد من أكثر فروع المعرفة الإنسانية أهمية وفاعلية، ونحن نعرف جيداً كيف أن العديد من قادة الغرب وساسته ومفكريه والمهيمنين على مفاصل الحياة الحساسة فيه هم من خريجي التاريخ.

الحالة نفسها تنطبق ـ بدرجة أو أخرى ـ على طلبة علوم الشريعة، بل أننا قد نجد بعضهم ينحدر باتجاه وضعية من الإحساس بالامتهان النفسي والاجتماعي لم يأذن بهما الله ورسوله لعلماء هذه الأمة ودارسي علومها الشرعية.

وقد يقتضي الأمر أن نقف لحظات عند مسألة (الزي) التي أرغم طلبة العلوم الشرعية وخريجوها على البقاء تحت معطفه، في مساحات واسعة من عالمنا الإسلامي الفسيح.

والزي المتميز، إذا أردنا الحق، سلاح ذو حدين، قد يكون إيجابياً في حالة وقد ينقلب إلى النقائض السلبية في حالة أخرى.. وفقهاؤنا زمن فاعليتهم ما كانوا يتميزون بلباس خاص اللهم إلا بجزئيات متفرقة، قد تتعلق بالعمامة حيناً، وبالرداء حيناً آخر، ولكنهم في كل الأحوال ما كان يفصلهم عن مجتمعهم زي محدد بتفاصيله كافة، يجعلهم فئة متميزة بين الناس.. كانوا ملتحمين مع الحياة والناس في كل شيء، بما في ذلك تقاليد الملابس والأزياء وهم ـ يومها ـ حتى لو تميزوا بهذه، فإن تميزهم ما

كان يحول بينهم وبين الاندماج في شبكة العلاقات الاجتماعية حيث تنمحي فواصل «التغريب» بينهم وبين سائر الناس.

أما في القرون الأخيرة فإن الفقيه، وقد أريد له أن ينسحب من الحياة، أن يبعد أكثر فأكثر عن الالتحام الفعال بالمجتمع، فإن تميزه على مستوى اللباس يصير رمزاً للعزلة والتغرّب فإذا ما انضاف إليه ضعف القدرة المالية على تحسينه وتجميله والاضطرار - بالتالي - للتعامل معه بعيداً عن المطالب الجمالية، كما هو الحال لدى علماء الطوائف الأخرى، أدركنا كيف يصير الزي - أحياناً - حلقة أخرى من حلقات اللعبة الماكرة التي أريد لها أن تمضي بعلمائنا إلى هدفها المرسوم فتزيدهم دماراً نفسياً واجتماعياً وتفقدهم - بالتالي - أي قدر من الاحترام وأية قدرة جادة على التغيير أو تسنّم مواقع قيادية فاعلة.

نحن - إذن - قبالة حالة نفسية - اجتماعية - وظيفية تتطلب العلاج والتجاوز وإيجاد البدائل المناسبة لعالم متغير يوشك أن يتجاوز قرنه العشرين ويطل على الذي يليه.. عالم تشاء إرادة الله سبحانه الذي لا راد لقضائه أن تشتعل فيه على مدى البصر، في مشارق الأرض ومغاربها، قناديل الصحوة الإسلامية المباركة التي تتطلب ترشيداً، من أجل ألا تنعطف بها السبل وتضل الطريق بين الإفراط والتفريط.. بين تشدد لا يشكمه ويعيده إلى الجادة إلا العلم الشرعي المنضبط الصحيح، وتسيّب لا يكفه عن الترهل والارتجال الكيفي إلا العلم الشرعي المنضبط الصحيح. وفي الحالتين لا بد من عودة الفقيه، أو العالم، إلى قلب الحياة وتسلمه كرة أخرى مواقع الريادة والقيادة.. لا بد من التحقق بأقصى وتائر الفاعلية والتألق من أجل تحقيق الهدف الملح، قبل أن يفلت الزمام وتتشرذم الصحوة المدهشة ونفقد جميعاً القدرة على توظيفها تاريخياً من أجل تنفيذ المشروع الحضاري الإسلامي الذي آن له أن ينزل إلى الحياة لكي يجيب - كما يقول گارودي - على كل الأسئلة الكبيرة التي تؤرق الإنسان في العصر

الراهن، ويقدم البديل المناسب بعد انهيار جل النظم والإيديولوجيات الشمولية الوضعية التي لم تعرف الله.

وإذا كان الاستعمار يوماً ـ قد مارس دوره الماكر في لعبة تجهيل العالم وإفقاره وتعجيزه وتغريبه، ومضى أكثر لكي يعزله تماماً عن الحياة و «يفصّله» على الصورة التي يريد فما يلبث أن يصير «حالة» يتندر بها المتندرون، فإن هذا «المؤثّر» السيء قد غادر بلادنا في نهاية الأمر، فلسنا ملزمين بالاستمرار على تقاليده، ولا بد من التداعي لتعديل الوقفة الجانحة التي صنعناها بأيدينا ـ أولاً ـ ما في هذا شك، ثم جاء الاستعمار لكي يزيدها انحرافاً وجنوحاً.

ومن ثم نعرف كيف يكون «مؤتمر» كهذا استجابة ضرورية مناسبة، تجيء في وقتها تماماً لكي تجيب على العديد من التحديات المعاصرة، وتصوغ منهجها المرن، المرسوم بعناية والذي يمكن أن يفيد من كل الخبرات الإسلامية أياً كان موقعها، من أجل انضاج أكثر للمنهج المطلوب.

[2]

ابتداءً، لا بد من إعادة النظر في مسألة وجود كليات أو معاهد للشريعة منعزلة عن السياقات الأكاديمية. ألا يمكن ـ مثلاً ـ أن تخترق «موضوعات» أو «مفردات» علوم الشريعة سائر الكليات والمعاهد المعنية بالعلوم الإنسانية أو أن تؤسس أقساماً أو فروعاً لها في تلك الكليات والمعاهد لكسر العزلة، وتحقيق التحام أكثر بين مقاصد الشريعة وبين سائر المعارف الإنسانية: كالإدارة والاقتصاد، والقانون والسياسة، والنفس والاجتماع، والجغرافيا والتاريخ واللغة والآداب والفنون.. فيكون هذا فرصة مناسبة للتحقق أكثر فأكثر بإسلامية المعرفة، أو على الأقل، تنفيذ بداية صحيحة قد تؤول، مهما طال الوقت، إلى نتائجها المنطقية المتوخاة

في التعامل مع سائر المفردات المعرفية، في شتى التخصصات، من خلال الثوابت الإسلامية نفسها؟

قد يُعترض على هذا بضرورة أن يكون هناك ـ في نسيج الأنشطة الجامعية ـ مؤسسات أكاديمية مستقلة لعلوم الشريعة، من أجل تخريج المتخصصين في هذا الفرع المعرفي بالذات الذي قد تلحق به، قدر ما يسمح به المجال، موضوعات معرفية أخرى، في هذا الحقل أو ذاك، ولكن تبقى مهمة هذه المؤسسات منح الشهادة في علوم الشريعة وليس في أية علوم أخرى.

وهذا حق، وهو ضرورة من ضرورات التخصص العلمي، ولكن هل يمنع هذا من تنفيذ صيغة مضافة تتمثل في مغادرة العلوم الشرعية لمؤسساتها التخصصية والتحامها مع الفروع والأقسام والمعاهد والكليات الإنسانية، بل وحتى العلمية الصرفة والتطبيقية، لتحقيق هدفين ملحّين: أولهما ذلك الذي أشرنا إليه قبل لحظات من محاولة وضع التأسيسات الأولى لإسلامية المعرفة التي لن تتحقق ما لم يتم اللقاء بين النمطين المعرفيين، فيصير الوحي والوجود معاً، مصدرين لصياغة المفردات؟

وثانيهما كسر حاجز العزلة بين علوم الشريعة والحياة، وإعادة الدم إلى شرايينها المتصلبة ومنحها الحيوية والمرونة التي تمكنها من التموضع في قلب العصر لا بعيداً عنه.

قد يُعترض ـ أيضاً ـ بالقول في أن ساعات الفروع والأقسام الإنسانية لا تسمح باستضافة العلوم الشرعية، أو بأن مادة «الثقافة الإسلامية» أصبحت البديل المناسب للقاء بين الطرفين.

وهذا حق كذلك، لكن تبقى هنالك تساؤلات في هذا السياق قد تخطىء وقد تصيب: أن «ساعات» الفروع والأقسام الإنسانية ليست قدراً نهائياً لا فكاك منه، ولطالما جرى تكييفها واستبدالها وإعادة جدولتها في

العديد من الكليات لتحقيق غرض أشد إلحاحاً ومن ثم فإنه ليس مستحيلاً ـ إذا كنا جادين في إيجاد مواقع مناسبة لعلوم الشريعة في الكليات الإنسانية ـ أن نعيد الترتيب فيما يعطي لهذه العلوم الفرصة المناسبة في خارطة الموضوعات المقررة على مدى سنوات الدراسة الجامعية.

وبالنسبة للثقافة الإسلامية فإنها حققت ولا ريب قدراً طيباً لدى استضافتها في المعاهد والكليات المختلفة، ولكنه ـ على أية حال ـ ليس القدر المطلوب، لأنها لم تتجاوز ـ في معظم الأحيان ـ ساعة أو ساعتين أو ثلاثاً، في الأسبوع، لا تكاد تغطي سوى جوانب محدودة من فكر الإسلام وثقافته، فضلاً عن معارفه الشرعية، ويتم فيها التعامل ركضاً على سطح الظواهر والمفردات، دونما أي قدر من التعمق والإيغال. ويتخرج طالب القانون أو السياسة أو الإدارة أو الاقتصاد أو الآداب.. إلى آخره وهو لا يملك عن الإسلام سوى شذرات وقطوف وخطوط عامة في أحسن الأحوال.

إن مادة «الثقافة الإسلامية» ضرورية لتكوين بعض الأطر الفكرية الأصيلة في عقل الطالب الجامعي، لكن هذا وحده لا يكفي إذا أردنا أن يكون القانوني والاقتصادي والإداري والمؤرخ والأديب متوافقين في نبضهم ومعرفتهم وأنشطتهم التخصصية مع مطالب هذا الدين ومقاصد شريعته.

قد يكون هذا حلماً، أو هدفاً بعيد المنال، ولكن الأعمال الكبيرة تبدأ دائماً بالحلم.. بالطموح إلى الأهداف البعيدة.. ورحلة الألف ميل ـ كما يقول المثل ـ تبدأ بخطوة واحدة.

من ناحية أخرى، فإن على المعاهد والكليات المعنية بعلوم الشريعة، أن تتقبل بدورها استضافة أكبر قدر ممكن من موضوعات المعرفة الإنسانية المذكورة، من أجل تمكين طلبة هذه المعاهد والكليات من المعارف المعاصرة في أحدث كشوفها ومعطياتها، ومنحهم الخلفيات الكافية عنها، الأمر الذي يتمخّض ولا ريب عن جملة نتائج، منها ـ على سبيل المثال ـ

الإعانة على إزالة حواجز العزلة والتغريب بين الشريعة والمعرفة، وبينها وبين الحياة.

ومنها جعل خريجي هذه المؤسسات أكثر حيوية وقدرة على الخطاب، ووضعهم، بتمكينهم من معارف العصر، في قلب العصر، قديرين على النقد والمقارنة والتمحيص.. قديرين ـ أيضاً ـ على إيصال مطالب المعرفة الشرعية، والتحقق بمقاصدها، في ضوء تناقضات وإحباطات المعطيات المعرفية الوضعية، وعلى إسهام أكثر فعالية في صياغة المشروع الحضاري الإسلامي البديل.

إن هذا سيقدم ـ بدوره ـ ثمرة أخرى.. تجاوز الإحساس بالنقص الذي أشرنا إليه والذي هيمن على أجيال المعنيين بالعلوم الشرعية عبر القرنين الأخيرين، والتحقق بالثقة والاعتزاز بالذات، في وتائرها المعقولة التي تتجاوز بهؤلاء الخريجين حالات العقم والشلل وعدم القدرة على الإبداع والإحسان والابتكار.

لقد آن الأوان لتجاوز الاستسلام لتقاليد منهجية قادمة من عصور عتيقة هي غير عصرنا، محملة بموضوعات ومفردات لم تعد تصلح للقرن الموشك على الانصرام، واستبدالها بمناهج أكثر مرونة، تملك القدرة على استضافة واستيعاب المعارف الحديثة، وتمكّن المتعاملين معها من تجاوز العزلة والتغرب والانقطاع، إلى تنفيذ حوار فعال مع تحديات العصر وهمومه المعرفية والثقافية، والإعانة ـ بالتالي ـ على بلورة وصياغة المشروع الحضاري المرتجى.

وفي السياق نفسه يستحسن أن نكون حذرين من الإنسياق وراء التقسيمات التقليدية لأجدادنا أنفسهم وهم يتحدثون عن علوم «نقلية» وأخرى «عقلية» وكأن هناك جداراً فاصلاً بين العلمين.

ويتساءل المرء: ألم يدخل الإسلام لكي يصوغ العلوم العقلية ويتوغل

في جزئياتها ومسالكها برؤيته المتميزة وتحليله الخاص؟ ويتساءل ـ كذلك ـ ألم تكن العلوم النقلية نفسها عقلية بمعنى من المعاني، أي بكونها استجابة ناجحة متفردة لمطالب العقل البشري في هذا الفرع المعرفي أو ذاك؟

إننا بحاجة إلى التريث قليلاً ونحن نتعامل مع التقسيمات والمصطلحات وأن نتجاوز الكثير منها ـ إذا اقتضى الأمر ـ لكي ننحت ونصوغ مفرداتنا المنسجمة ورؤيتنا العقدية المتميزة.

إن الحلقات الإسلامية لا تزال تعاني من ثنائية يمكن لمؤسسات علوم الشريعة أن تعين على تجاوزها: ففي أحد الطرفين يقف إسلاميون متمرسون بالمعرفة المعاصرة ولا يكادون يعرفون شيئاً عن علوم الشريعة، وفي الطرف الآخر يقف إسلاميون متمرسون بعلوم الشريعة ولكنهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن العلوم والمعارف الحديثة.

والخندق عميق، والهوة محزنة ولا ريب، والنتائج السيئة لهذا الانفصال، أو الثنائية، تنسحب على مساحات واسعة من الجهد الإسلامي المعاصر الذي يلتحم بالحياة الثقافية والمعرفية دونما عمق فقهي، أو يمضي بالايغال في هذا العمق حيناً آخر، بعيداً عن مجرى الصراع الفكري المتشكل قبالته صباح مساء.

ولقد أوقعت هذه الثنائية، الطرفين، في «مطبات» عديدة، قد يقود تراكمها التي تشكل إرث من الأخطاء التي يصعب تداركها ما لم نسارع بإيجاد الحل المناسب.. بالتحقق بتقارب بين الطرفين من خلال بذل جهود استثنائية والاتفاق على منهج أكثر توازناً يضع في حساباته قطبي المسألة.. حيث يصير التعامل الأكاديمي مع علوم الشريعة فرصة طيبة لتحقيق الوفاق.

[3]

وما من ريب في أن فقه الحياة التي أراد لنا هذا الدين أن نعيد صياغتها وفق مقاصده، وأن نمسك بزمام قيادتها كي لا يعبث بمقدراتها

المضلّون عن سبيل الله، ويميل بها الذين يتبعون الشهوات والأهواء والظنون الميل العظيم الذي حذّر منه كتاب الله. . إن فقه الحياة هذا ليس حالة بسيطة ذات وجه واحد، وإنما هو حالة مركبة ذات وجوه شتى. فهناك الفقه الشرعي الذي يتعامل مع الجزئيات والكليات، أي مع مفردات الشريعة في هذا الجانب أو ذاك، ومع مقاصدها الكبرى التي تجعل المعطيات الفقهية تصب في هدفها الكبير ذي الفضاء الواسع سعة الحياة نفسها.

هناك الفقه الدعوي الذي يمنح الناس في كل زمن ومكان القناعة بأحقية هذه الشريعة في حكم الحياة وقيادتها.

وهناك، فضلاً عن هذا وذاك، الفقه الحضاري الذي يعيد تشكيل الحياة وفق مقاصد الشريعة في ضوء إدراكه لقوانين الحركة التاريخية، وسنن الله في الخلق والعالم والوجود وعلى هدى رؤية مقارنة نافذة لخرائط العالم الحضارية، من أجل صياغة مشروعه الحضاري المتميز والتحقق في الوقت نفسه بصيغ مناسبة في التعامل مع الحضارات الأخرى أخذاً وعطاء.

إن الفقه الحضاري، كما أنه عمل في التاريخ للبحث عن أصول وقوانين التشكل الحضاري، فهو عمل في صميم العصر، وتطلع للمشاركة في المصير البشري من خلال صياغة المشروع الحضاري البديل الذي يستمد حيثياته ويتلقى توجيهاته من مقاصد الشريعة وآلياتها الفقهية والذي يجاهد من أجل التجذر في الأرض والانتشار فيها بقوة الفقه الدعوي وآلياته الفاعلة.

والآن، فإن إحدى مشاكل المناهج الجامعية بصدد علوم الشريعة أنها تعطي طلابها الفقه الشرعي، وتمضي معهم في الفقه الدعوي إلى منتصف الطريق ولكنها لا تكاد تعطيهم شيئاً عن الفقه الحضاري. فها هي ذي الحلقة الضعيفة في «عقل» خريجي المعاهد الشرعية والتي تساعد بدورها على حفر الخنادق وتعميق الهوة بين الشريعة والحياة، وتعين على تأكيد

تلك الثنائية المقيتة التي عزلت ولا تزال حشود الخريجين عن الدخول في نسيج الحياة، وإعادة صياغتها، فضلاً عن تسنم مراكز القيادة فيها والشهادة عليها.

ومما يرتبط بهذا، ذلك الغموض الملحوظ وعدم التحديد بصدد المصطلح الحضاري فإن المثقف المسلم، والمتخصص في العلوم الشرعية على السواء، لا يكاد يفقه شيئاً عن مفردات كالحضارة والمدنية والعمران والثقافة والمعرفة والنظم والفكر والعلوم والآداب والفنون.. إلى آخره...

ويزيد الأمر إرباكاً ذلك الخطأ المنهجي الذي يهيمن على طرائق تدريس الحضارة الإسلامية في معظم معاهد وجامعات البلدان العربية والإسلامية حيث تفكك هذه الحضارة إلى سياقات منفصلة كالنظم، والفكر، والعلوم، والنشاط الاقتصادي أو العمراني.. إلى آخره، تعطي كل منها في سنة أو بعض سنة بحيث أن الطالب يتخرج وهو لا يكاد يفقه شيئاً عن الملامح الأساسية للحضارة الإسلامية، وشروط تشكلها ونموها، وعوامل انكماشها وجمودها، وانهيارها في نهاية الأمر.

إن تقطيع جسد هذه الحضارة، وتقديمها للطالب مزقاً وتفاريق، سيفقدها شخصيتها المتميزة وملامحها المتفردة التي تمنحها الخصوصية بين الحضارات، فتصير مجرد أنشطة ثقافية أو معرفية أو مدنية في هذا المجال أو ذاك، قد تتميز ببعض الخصائص، لكنها لا تعكس التصور النهائي لرؤية المنتمين إليها للحياة والعالم والوجود. وهكذا تصير دراسة الحضارة الإسلامية ـ في نهاية الأمر ـ لهاثاً وراء مبررات الجزية، ودفاعاً عن موقف الإسلام من فرضها على أهل الكتاب، وركضاً وراء قوائم الضرائب «اللاشرعية»! ومتابعة للمحتسب وهو يتجول في الأسواق لمعاقبة المخالفين.. كما تصير استعراضاً وصفياً صرفاً لمنظومة الدواوين التي لا أول لها ولا آخر، وللصراع على منصب الوزارة وللترتيبات الأمنية والعسكرية للشرطة والجيش. كما تغدو ـ في السياق العلمي ـ تصنيفاً فجاً

للعلوم النقلية والعقلية، وإحصاءً رتيباً للمدونات التي كتبها الأجداد. . وفي سياق العمران يلقن الطلاب وصفاً مادياً مملاً لمفردات الريازة وقياساتها وأحجامها بعيداً عن الخلفيات الرؤيوية التي وضعت لمساتها عليها وقدمتها للعالم وهي تحمل خطاباً معمارياً عزّ نظيره بين الثقافات.

ويتخرج الطالب الجامعي وهو لا يكاد يملك معرفة معمقة بخصائص حضارته الإسلامية، وبالمكونات التي تميزها عن الحضارات الأخرى، فضلاً عن أنه يتخرج وهو لا يملك الاعتزاز بهذه الحضارة بما أن النشاط التدريسي في التاريخ والحضارة ينطوي ـ بالضرورة ـ على بعد تربوي، لكن هذا البعد يتفكك ويغيب من خلال الخطيئة المنهجية التي لا تكاد تمنح الطالب أي ملمح يجعله يتشبث بتراثه الحضاري باعتباره أقرب إلى مطامح الإنسان ومهماته الأساسية في العالم. بل أننا قد نصل في نهاية الأمر إلى نتائج معاكسة تتمثل في رفض حشود الخريجين لتراثهم الحضاري، وإنكاره، وإعلان التمرد عليه، والاندفاع ـ في المقابل ـ باتجاه إغراءات الحضارات الأخرى وإغواء بريقها الظاهري الخادع، وبخاصة الحضارة الغربية. وبهذا يصير تدريس الحضارة الإسلامية سلاحاً «نشهره ضد أنفسنا لتدمير الثقة بمقومات حضارتنا وبقدرتها على الاستعادة والفاعلية في صميم العصر. وفي مشاركاتها المحتملة في صياغة المصير، كما يؤكد العديد من المفكرين والباحثين والمستشرقين الغربيين. وللأسف فإن هؤلاء القادمين من خارج دائرة الإسلام كانوا أكثر قدرة بسبب من رؤيتهم المنهجية الشمولية، على متابعة خصائص الحضارة الإسلامية وصيرورتها والتأشير على عناصر تميزها وتفوقها، وهم الذين أكدوا على أن بصمات الإسلام ونسقه (الموحد) يمضيان لكي يطبعا كل خلية من خلايا هذه الحضارة، ويشكلا كل صغيرة أو كبيرة في معمارها الواسع المتشعب.

وما من شك في أن العقل الغربي تفوق علينا في منهج الدراسة الحضارية، كواحدة من حلقات تفوقه الراهن، وليست محاولة المؤرخ

البريطاني المعاصر (ارنولد توينبي) في مؤلفه المعروف (دراسة في التاريخ) بعيدة عن الأذهان. إنه يتعامل مع الحضارات البضع وعشرين التي درسها عبر استقرائه للتاريخ البشري كما لو كانت كل واحدة منها تحمل شخصية متميزة، وملامح متفردة، وخصوصيات تفرقها عن الحضارات الأخرى، ونسغاً يجري في عروقها هو غيره في الحضارات الأخرى.

ونحن اليوم إذ ندرّس حضارتنا في المعاهد والجامعات بأمس الحاجة إلى منهج قريب من هذا يسعى لأن يتعامل مع هذه الحضارة كشخصية أو تكوين متميز: بدءاً وصيرورة ونمواً وانكماشاً وفناء. فإذا تذكرنا أن حضارتنا هذه لم تتشكل من العدم، ولم تلم شتاتها بطريقة ميكانيكية من هذه الحضارة أو تلك فتكون عالة عليها، وإنها إنما نشأت بتأثيرات إسلامية، ووفق شبكة شروط وتأسيسات محددة صاغها هذا الدين، وأنها تكونت في رحم إسلامي وليس في أي رحم آخر، وأن بصمات كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على حجيراتها وخلاياها ونبضها من الأمور التي لا يكاد ينكرها باحث جاد.. إذا عرفنا هذا كله أدركنا كم تكون جنايتنا على طلبتنا بتقديم هذه الحضارة مزقاً وتفاريق، وبنوع من فك الارتباط الساذج أو الخبيث الذي يتعمد التعامل معها كما لو لم يكن للتأثيرات الإسلامية في تكوينها أي حضور ملحوظ اللهم إلا في خانة ما يسمى بالعلوم النقلية المعتقلة في المصنفات العتيقة والبعيدة عن تشكيل الحياة والنزول إلى المؤسسة والشارع والمدرسة والبيت.

إن تحديات الحضارة الغربية المعاصرة، ومطالب المشروع الحضاري البديل، يقتضيان ـ كما ألمحنا ـ إجابة كونية بمستوى المشكلة، ولن يكون ذلك دون المزيد من الإيغال في حلقة الفقه الحضاري المتجذر في التاريخ والعقيدة على السواء.

إن مبدأ (التوحيد) المحرر، الذي هو نسغ حضارتنا وجوهرها ومغزاها، والقاسم المشترك لمفرداتها كافة، يقف قبالة كل الصنميات

والطاغوتيات والحتميات التاريخية والمادية التي حكمت العقل والوجدان الغربي طويلاً، والذي يجد نفسه اللحظة، مسوقاً لأن يبحث عن الجواب.. عن صيغة للتحرر من الضغوط والخروج من المأزق.. وأيضاً للتحقق بالتوازن الضائع في حياته بين المادة والروح والذي لن يعثر عليه إلا في إطار هذا الدين.

إن الفقه الحضاري يستدعي دراسة علمية منهجية متأنية لتاريخنا الحضاري من أجل استمداد مؤشرات العمل في الحاضر والمستقبل، وهي ـ كما هو واضح ـ ليست مسألة ترفّية، ولا حتى أكاديمية صرفة، وإنما هي مسألة (حيوية) بكل معنى الكلمة، لأن حلقة كهذه معنية باستخلاص البدائل التي يمكن أن نتقدم بها إلى العالم في سياق مشروع حضاري يشارك في صياغة المستقبل. فضلاً عن أن فقهاً كهذا يمنحنا صورة عن مصداقية تحول الشريعة وتأسيساتها التصورية والاعتقادية إلى واقع تاريخي متحقق في الزمن والمكان، أي في التاريخ، كما أنه سيعرّفنا على عوامل الانهيار الحضاري التي ساقتنا إلى المواقع المتخلفة في خارطة العالم، عندما أخذ أجدادنا يقلدون بدلاً من أن يبدعوا، وعندما هيمنت الروح الإرجائية التي فصلت الإيمان عن مقتضياته العملية، وعندما ساد الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، وعندما لم تلتفت القيادات الإسلامية المتأخرة ـ كالمماليك والعثمانيين.. ودول الطوائف ـ إلى مغزى إلحاح القرآن الكريم على التحقق بالقوة، ولم تول الاهتمام الكافي لتحديات التكنولوجيا، وبخاصة تكنولوجيا السلاح.. إلى آخره..

ولطالما درّسنا طلبتنا بأسهاب حيناً، وإيجاز حيناً آخر، عوامل سقوط هذه الدولة أو تلك من دول الإسلام كالأمويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين.. إلى آخره.. لكننا لم نحاول ـ إلا نادراً ـ أن نقف طويلاً عند ظاهرة انهيار الحضارة الإسلامية نفسها ـ في سياقها التاريخي ـ بعيداً عن الأطر السياسية المحددة، لمتابعة عوامل الشلل المتشعبة والتأشير عليها

بقدر من العمق والوضوح، فيما يمكن أن يقدم لنا خبرة بالغة الأهمية تتمثل في إمكان النهوض من جديد في ضوء فهم وإدراك العوامل التي قادتنا عبر قرون طويلة، إلى التدهور والانهيار.. إننا إذا استطعنا أن نحدد الأسباب، وتمكنا ـ بعدها ـ من استجاشة قدراتنا الإيمانية وتحفيز نقاط الارتكاز في تصورنا، من أجل تجاوز هذه الأسباب، نكون قد وضعنا خطواتنا في الطريق الصحيح وعرفنا كيف ننسج حيثيات المشروع الحضاري في ضوء وعي كهذا يسعى للمضي إلى الهدف بأكبر قدر من التحرر من عوامل الشد والإعاقة والتعطيل.

إن هذه الحلقة تحمل ـ ولا ريب ـ أهميتها الأكاديمية في سياق دراسة الحضارات، ولكنها في تجربتنا المعاصرة، تحمل ـ فوق هذا ـ قيمة مضافة لأنها ستعيننا على بناء مشروعنا الحضاري بأكبر قدر من الوعي والاستبصار، وإن معاهدنا وأقسامنا المعنية بعلوم الشريعة لهي المنوطة ـ أكثر من غيرها بناءً على ذلك كله ـ بالتأصيل الإسلامي للدراسة الحضارية وبصياغة منهج ملائم لتحقيق ذلك، قبالة محاولات الدارسين من خارج دائرة الإسلام سواء كانوا مستشرقين أو مسيحيين أو ماديين، وبالإفادة منها في الوقت نفسه.. وإن هذا لن يتأتى إلا بإعطاء المساحة المناسبة للدراسات التاريخية والحضارية في هذه المعاهد والأقسام.

[4]

هناك ـ بكل تأكيد ـ نقص في محاولة توظيف بعض الحلقات الجامعية للارتفاع بوتائر العمل إلى مستويات أعلى.

بعض هذه الحلقات قد وُظّف بالفعل ولكن في حدوده الدنيا وبصيغ مترعة بالشروخ والأخطاء (وربما الكسل العقلي)، وحلقات أخرى لم تمسها يد في هذه الجامعة أو تلك. وفي كلتا الحالتين فإن المطلوب هو الإفادة من كل الفرص المتاحة لتخريج عالم الشريعة الأقدر أكاديمياً

والأكثر فاعلية وقدرة على الابتكار والعطاء.

هناك ـ على سبيل المثال ـ (البحث الخاص) أو (بحث التخرج) الذي يكلّف به طلبة المرحلة الأخيرة من البكالوريوس (الليسانس) على مدى عام دراسي بأكمله، ويشرف عليه ـ في الغالب ـ أستاذ المادة الأقرب في تخصصه الدقيق، إلى الموضوع مجال البحث.

إن البحث الخاص هذا، فرصة جيدة، في حالة الاختيار الجيد لموضوعاته لتحقيق تلاحم أكثر مع المعرفة المعاصرة والحياة، ولجعل علوم الشريعة تغادر رفوف المكتبات العتيقة وتنفضى عنها التراب، تتحرك وتنبض وتتنفس في قلب العصر، مقدمة الشاهد «العلمي» على قدرتها التي لا يأسرها زمن أو مكان، على متابعة المتغيرات والشهادة عليها.

والمسألة قد لا تكلف كثيراً، فبمجرد أن يبذل الأستاذ جهداً مخلصاً لترتيب منظومة من موضوعات البحث الخاص في بدء كل عام دراسي، وتوزيعها على طلبة المرحلة المنتهية وفق توجهاتهم ورغباتهم وقدراتهم المعرفية قدر الإمكان، ثم متابعة عملهم أولاً بأول، من أجل أن تأتي بحوثهم بشكل أكثر أحكاماً وإبداعاً، بمجرد أن يتحقق هذا وذاك، فإن حصيلة طيبة قد تتمخض عنه متمثلة بحشود من البحوث التي تمرّن خريج العلوم الشرعية على البحث، وتمنحه الدربة المنهجية الكافية، والتي تقدم ـ في الوقت نفسه ـ نويّات أو مشاريع بحوث قد ترفد المكتبة الإسلامية أو تعدها بمزيد من العطاء.

والذي يحدث ـ في كثير من الأحيان ـ اعتبار البحث الخاص، مفردة اعتيادية في مناهج المعاهد والكليات، كأية مفردة أخرى، قد لا تقتضي وقفة خاصة أو جهداً مضافاً أو اهتماماً كبيراً، وبالتالي فإن التعامل معها سيتحرك عند سفوحه الدنيا، فلا يبدع ولا يعلم ولا يبتكر ولا يضيف جديداً. بل قد تنعكس الحالة أحياناً لما هو أسوأ من هذا وهي تأكيد عقلية التقليد والاجترار، والتعلق بتقاليد عصور تجاوزها التاريخ، بل ـ ربما ـ

تعميق «النفرة» في نفسية الطالب إزاء كل ما يتعلق بعلوم الشريعة واندفاعه ـ في المقابل ـ صوب ما يعتبره تحققاً أكثر مع الحياة التي يعيشها بعقله ووجدانه بعيداً عن مطالب الشريعة ومقتضياتها.

وبموازاة هذا، وفي حلقة تالية، أكثر أهمية، لم يحسن التعامل مع مرحلة (الدراسات العليا: الدبلوم العالي والماجستير والدكتوراه) ولم توظف هذه الفرصة الفريدة للتعامل مع موضوعات غير تقليدية تعين على تحقيق الهدف المنشود.

وها هنا أيضاً يتحتّم «الإحسان» في اختيار الموضوعات المناسبة لهذه الرسائل وتوضيح مبرراتها، وترتيب خططها، بما يجعل الطالب أقدر على التعامل معها وفق منهج أكثر دقة وأحكاماً.

ويتذكر المرء في هذا السياق ما فعلته وتفعله مؤسسة (كالمعهد العالمي للفكر الإسلامي) من وضع منظومة بحوث للدراسات العليا: بعناوينها، ومفرداتها، وخططها، ومسوغاتها ومستوياتها الأكاديمية، بين أيدي الباحثين، ليس هذا فحسب، بل الإعانة ـ أحياناً ـ على اختيارها وتنفيذها، ونشرها في نهاية الأمر من أجل دعم أهداف المعهد وتوجهاته المعرفية (نشرت مجلة المسلم المعاصر ـ في القاهرة ـ في بعض أعدادها لوحات بهذه الموضوعات).

فلا يكفي ـ في هذه المرحلة ـ أن نترك الطالب يختار موضوعه، فقد يكون هذا الموضوع تكراراً لما سبق وإن عولج أكثر من مرة، وقد يكون غير مناسب، كمشروع عمل لمرحلة الماجستير أو الدكتوراه، وقديأتي ـ وهذا هو الأهم ـ بنتائج معاكسة قد تدفع الطالب، والقارىء معاً، إلى تأكيد العزلة والانفصام بين الشريعة والحياة.

ولا يتطلب الأمر أكثر من بذل اهتمام أكبر في مسألة الاختيار، وأن يدخل الأساتذة المشرفون الذين يفترض فيهم الإخلاص والعلم والجدية في

مجال تخصصهم، بشكل أكثر فاعلية في إعانة الطالب على العثور على الموضوع المناسب، والأخذ بيده قدر الإمكان، من أجل تنفيذ رسالة ذات مستوى عالٍ من الأداء منهجاً ومضموناً.

هناك ضرورة تنمية الخبرات التدريسية لطلبة الشريعة، قبيل تخرجهم، وتعميق قدرتهم على الخطاب الإسلامي من خلال الدورات التدريبية، والاستفادة من علوم النفس والتربية وأصول التدريس ومنحهم الفرصة «التطبيقية» المناسبة في التدريس في المتوسطات والثانويات أسوة بما تفعله كليات التربية التي تبذل جهداً «مضافاً» على المطالب الأكاديمية، من خلال منح طلبتها المعرفة والخبرة والآليات التي تمكنهم من أن يكونوا «مدرّسين» أكفاء. وقد ينضاف إلى الخبرة التدريسية بالنسبة لطلبة العلوم الشرعية، الخبرة الخطابية التي يمكن أن تحفز وتمنح الدربة الكافية من خلال فرص التطبيق عبر سني الدراسة الجامعية.

هناك ـ أيضاً ـ ضرورة تحفيز كليات الشريعة ومعاهدها على صياغة وتنفيذ برامج عمل مؤسسية تضعها في قلب العصر وتزيد من فاعليتها وتدفعها ادارة وأساتذةً وخريجين إلى المواقع القيادية المؤثرة في المجتمع.

لقد أخذ هذا التقليد، الذي يتحرك تحت شعار «الجامعة والمجتمع» ينتشر أكثر فأكثر على مستوى العديد من الكليات والأقسام العلمية عبر العقود الأخيرة، فصرنا نجد مكاتب أو مؤسسات استشارية في هذا القسم أو ذاك من كليات الهندسة، أو العلوم، أو الطب، أو الزراعة، أو القانون، أو الإدارة، أو الاقتصاد، أو السياسة، أو حتى التربية والآداب. وأصبحت هذه المكاتب تحقق ـ بمرور الوقت ـ أكثر من هدف. ففضلاً عن الالتحام أكثر بالمجتمع والحياة، وفضلاً عن منح الفرصة للكفاءات الميدانية للتنفيذ، والإضافة، والاكتشاف والإبداع، فإن هذه الممارسات تجيء بمثابة فرصة مضافة لتعميق القدرات التخصصية والمعرفية للتدريسيين وربما لطلبتهم كذلك. هذا إلى أن ممارسات كهذه تدرّ دخلاً موفوراً يعين

الأقسام والكليات، والإدارة الجامعية في نهاية الأمر، على توظيف هذا المردود لمزيد من العطاء والإبداع.

لماذا تظل معاهدالشريعة وكلياتها، في معظم الأحيان، بمعزل عن هذا كله؟ في الوقت الذي يتحتّم أن تكون الأكثر إفادة من هذه التجربة بسبب من كثرة القنوات التي تصل بينها وبين المجتمع الذي طالما انتظر الإشارة من علمائه وفقهائه لكي يعدلوا وقفته هنا ويعينوه على المضي هناك وفق أكثر الصيغ التزاماً بمطالب هذا الدين؟

لا يسمح المجال للاستفاضة فلا بد ـ إذن ـ من الاكتفاء بالتأشير على بعض الحلقات الممكنة في ممارسة كهذه من مثل: النشر، مشاريع التأليف المشترك، التحقيق والفهرسة، الأعمال الموسوعية، الحلقات الدراسية، الندوات والمؤتمرات، الإنتاج الفني والإعلامي، إقامة الجسور وتوسيع التعامل مع المؤسسات المعنية بالمعرفة الإسلامية، المشاركة الفعالة في أنشطة أسلمة المعرفة وصياغة حيثيات المشروع الحضاري.

سأقف لحظات عند إحدى الحلقات كمقترح للعمل يمنح كليات الشريعة ومعاهدها فرصة ميدانية للتحقق، ويدفعها باتجاه مزيد من الالتحام بالحياة الاجتماعية وبالواقع اليومي لجماهير المسلمين.

يتضمن المقترح إصدار دورية أو سلسلة كتب ميّسرة في الفقه تعالج المسائل المعاصرة والمستجدة، فضلاً عن القضايا الثابتة، وتعتمد أسلوباً حديثاً في اللغة ومنهجاً يسعى لتوحيد المواقف في الحالات الخلافية الحادة التي تحيّر المسلم وتربكه.

إن المسلم المعاصر عندما تجابهه معضلة ما يلجأ إلى هذا الكتاب الفقهي أو ذاك، وقد يطلب العون في أبواب المجلات المعروفة بـ «فتاوى فقهية» لكنه ما يلبث أن يجد نفسه بين الحين والحين إزاء لغة سقيمة في الخطاب الفقهي وإجابات أو مواقف شتى وليست إجابة واحدة أو موقفاً محدداً فيقع في دائرة الحيرة والإرباك.

إنها اللغة السقيمة القادمة من القرون الوسطى، والخلافيات التي قد تصل حد التناقض الكامل بحيث أنها ترجع بالمسلم ـ أحياناً ـ إلى نقطة الصفر كرة أخرى.

يمكن تسمية المحاولة المقترحة بالمورد أو الدليل الفقهي للمسلم المعاصر، أو المنهاج الفقهي، أو كتاب الجيب الفقهي لمفردات المسلم اليومية.. أو غيرها من التسميات.

المهم أن تبذل مؤسسات التعليم المعنية بالعلوم الشرعية جهداً حيوياً في تقديم البدائل الفقهية الواضحة المحددة لعدد من مفردات الحياة والسلوك وبخاصة تلك القضايا الملحة التي لم يصدر فيها بعد رأي واضح محدد (من مثل شروط الزكاة في زمن تحول النشاط المالي والاقتصادي إلى شبكة معقدة من المعطيات التي تنطوي على عشرات الحالات وهي جميعاً تنتظر الجواب الفقهي.. ومن مثل قضايا الزواج والأحوال الشخصية والتعليم والعمل الوظيفي وعمل المرأة والمساحة المتاحة لها للتحرك في الحياة العامة وشروط الحجاب.. إلى آخره...).

إن المحاولة ترتبط ولا شك بمسألة فتح باب الاجتهاد أو توسيع قنواته؛ فلا بد ـ أولاً ـ من تنفيذ جهد عملي وآخر دراسي لإضاءة هذه المسألة، وقد يجيء الدليل المقترح محاولة عملية لاختبار إمكان تحقيق تغطية فقهية لأهم المستجدات.

ويستحسن من أجل نجاح المحاولة أن يقتصر الدليل، أول الأمر، على مسائل محددة، وربما مسألة واحدة كالزكاة لكي تكون أشبه بجهد تجريبي لغرض اختبار مدى نجاحه وانتشاره، وبعدها يمكن التحول لإصدار جزء آخر يعالج مسألة أخرى كقضية الزواج، أو العمل الوظيفي أو دور المرأة.. الخ.

على المستوى الفني يمكن أن ينفذ المشروع بصيغة دورية أو مجلة فصلية تمضي أعدادها لتغطية المفردات الملحة واحدة أثر أخرى، أو بصيغة

كتاب ذي إجزاء متتالية يختص كل جزء بموضوعة ما ويتم توزيع المفردات على عدد من خيرة الفقهاء الذين يجمعون بين الإلمام بالعلوم الشرعية وبين الانفتاح على الثقافة المعاصرة وتحدياتها.

ويمكن ـ كذلك ـ من أجل كسب الوقت ولأغراض إعلامية، فتح ملف في واحد أو أكثر من المجلات الإسلامية المعنية بالموضوع تطرح فيه ـ أي في الملف ـ كل المسائل المنهجية والفكرية والفنية التي يتطلبها المشروع وقد تمضي المجلة للبدء في معالجة إحدى المفردات ووضع الحلول الفقهية لجوانبها كافة ثم التحول إلى مفردة أخرى، لكي تتشكل في نهاية الأمر بدايات جادة للدليل المقترح.

وقد يكون في سياق جهد كهذا القيام بمحاولة ببليوغرافية لحصر وفهرسة جل الجهود الدراسية التي عالجت المسائل الفقهية من خلال رسائل الدراسات العليا، أو بشكل مستقل.. في المؤلفات المستقلة، أو على صفحات الدوريات المتخصصة، أو في إصدارات المؤسسات الشرعية والفقهية والقضائية والتشريعية..

وقد يكون مهماً ـ كذلك ـ وضع منظومة من الموضوعات الملحة مع المسوغات والخطط البحثية التفصيلية المرسومة بعناية لكي تكون بمثابة حقل للاختيار بالنسبة لطلبة الدراسات العليا (الدبلوم والماجستير والدكتوراه) ويستحسن توزيع كراريس مستقلة بهذه الموضوعات ومسوغاتها وخططها على المعاهد والجامعات والمؤسسات المعنية بالدراسات العليا في مجال الفقه والعلوم الشرعية.

إن معضلات العصر الحديث ومستجداته تمثل تحدياً ملحاً للعقل المسلم، وهي بمثابة اختبار لقدرته على الفاعلية في صميم العصر من خلال اعتماد وتحكيم الأصول الإسلامية: القرآن والسنة والسوابق الفقهية، وأن الاستجابة لهذا التحدي لا تحقق فقط إجابة على العديد من الأسئلة الملحة في معترك الحياة، وإنما تؤكد ـ على المستويين العقدي والحضاري ـ قدرة

هذا الدين على إعادة صياغة الحياة في كل زمن ومكان وفق تصوراته المتميزة، وهي مسألة ترتبط ـ مرة أخرى ـ أشد الارتباط بالمشروع الحضاري الذي يتوخاه المسلم الجاد بمواجهة، أو كبديل عن كل الإخفاقات التي شهدتها القرون الأخيرة بسبب من الممارسات الإسلامية الخاطئة نفسها، أو بتأثير من ضغوط الغير، وغزوه الفكري، والحضاري بوجه عام.

إن الاجتهاد جزء أصيل من الالتزام، فالمسلم ـ فرداً وجماعة ـ لا يكفيه أن يصلي ويصوم ويحج إلى بيت الله الحرام.. ولا يكفيه أن ينفذ مقولات عقيدته وشريعته في واقع حياته اليومي.. لا يكفيه أن يثور ويقاتل ويستشهد.. هذه كلها جوانب من التزامه بالعقيدة التي آثر الانتماء إليها، ولكن ثمة ما لا يقل عنها أهمية، وإن كان من قبيل (فرض الكفاية) الذي قد تتحمل تنفيذه هذه الجماعة أو تلك من المسلمين: حمل المعطيات الإسلامية بالفعل الاجتهادي إلى آفاق الزمن والمكان.. تحكيمها في صيرورة الحركة التاريخية.. وضعها في مركز الشاهد على كل صغيرة وكبيرة.. تمكينها من ممارسة إلزامها الدائم في كل تجربة وكل مرحلة.. جعل (الإسلامية) الحكم والهادي والموجه والدليل الذي يعلّم ويرشد.. بل يبني ويصوغ بالمادة الإسلامية الأصيلة كل ما يقوم على ساحة الحياة من عمارات ومؤسسات، وكل ما يمارس فيها من أنشطة وفاعليات..

حتى مدننا وشوارعنا ودورنا وأماكن ترفيهنا، يتحتم أن (نجتهد) في أن تكون امتداداً لرؤيتنا الإسلامية، لفكرنا ووجداننا الإيماني، وذوقنا الذي يميل دائماً إلى أن يربط المنظور بالغيب، والتراب بالحركة، والأرض بالسماء.

وإذا كانت المنائر الممتدة إلى السماء إشارة على قدرة الفنان المسلم على تصميم المفردة المعمارية التي تعبّر عن تصوره للعالم والحياة والوجود، فإن حياتنا المعاصرة كلها يتحتم أن تنبثق فيها (الإشارات) التي

تجتهد أن تحمل دلالتها على كل ما هو إسلامي، وأن يتغلغل الإلتزام الديني في سداها ولحمتها ويكون نولها الذي يمنح نسيجها هذا الشكل أو ذاك.

إن الاجتهاد هو ـ بشكل من الأشكال ـ حماية للتشريع الإسلامي من التيبّس والتسيّب، وهذه مسألة بديهية ولكن ثقل الواقع كاد يطمس عليها. إننا منذ قرون لا نمارس الاجتهاد.. فكأننا قد اخترنا أسلوب العمل بصيغة بديهية مضادة لا يمكن قبولها: ترك الممارسة الإسلامية تصاب بتصلب الشرايين أو بالرخاوة والتوسع والإنفلات.

إن الإسلام حركة باتجاه (التوافق) مع سنن الوجود والعالم، وإيقاع الكون والطبيعة، فأحرى به أن يكون متحققاً بالوفاق مع نفسه، أي بعبارة أدق: أن يكون كل تعبير إسلامي، في هذا الجانب أو ذاك من الحياة، وإزاء هذه القضية أو تلك من قضايا الوجود والعالم، يحمل إيقاعه المتوحد مع سائر التعابير عن الجوانب الأخرى من الحياة والقضايا المتنوعة في الوجود.

نسيج وحده، هكذا يجب أن ينزل الفعل الإسلامي المتفرد، المتميز، إلى العالم.. إيقاع متوحد، وتوافق منظور، وتناغم شامل بين كل جزئيات الفعل وأطرافه. فإن لم يعن الفعل الاجتهادي على تحقيق هذا التوحّد والتوافق والتناغم بين المعطيات والتعابير الإسلامية وبينها وبين العالم، فمن يتولى هذه المهمة؟ ألا يخشى أن يؤول الأمر بالممارسة إلى التشتت والتصادم والتغاير، فتفقد شخصيتها وسماتها؟

إن الاجتهاد ـ بهذا المعنى ـ تنفيذ لمهمة مزدوجة: الحفاظ على هندسة الإسلام نفسه، من جهة، وتحقيق انطباقه على الواقع التاريخي ـ من جهة أخرى ـ أي على بعدى الزمن والمكان. ولن يكون ذلك إلا لصالح الإنسان ومكانته المتفردة في العالم.

قد يقول قائل: إن جهداً كبيراً كالموسوعة الفقهية التي نفذت أقسام منها في الكويت عبر السنين الأخيرة، يمكن أن يكون كفاءً لمطلب كهذا. والجواب أن عملاً كذاك يمكن أن ينحو منحى أكاديمياً ينطوي على المعطيات الفقهية بمفرداتها كافة، ويشكل على المستوى الكمي ثقلاً كبيراً، قد يبعد به ـ بشكل أو آخر ـ عن أن يكون دليل عمل يومي (عملي) يعين المسلم بيسر وسهولة على وضع اليد على الأجوبة المناسبة لمعضلات حياته اليومية، فضلاً عن أن المطلوب بالدرجة الأولى ليس حصراً للمعطى الفقهي على إطلاقه وإنما متابعة للمستجدات على وجه الخصوص.. لتعقيدات الحياة الجديدة.. للمطالب المتراكمة التي تزداد ثقلاً يوماً بعد يوم.. للمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتقنية التي لا تكاد تستقر على حال إلا لتتجاوزه إلى صيغ أخرى. إن متابعة كهذه ضرورية حتى على مستوى وسائل الترفيه التي تشكل إحدى انفجارات العصر والتي تتطلب أكثر من فتوى تنير سبل التعامل معها دونما إفراط ولا تفريط، وبعيداً عن حدّيْ العزلة والاندماج اللذين يقودان الممارسة الإسلامية إلى الشلل أو الجنوح.

ثمة ـ فضلاً عن هذا وذاك ـ ضرورة إغناء الخبرات المعرفية والتخصصية لأساتذة علوم الشريعة من خلال التوسع في تنفيذ نظام الأساتذة الزائرين، ذهاباً وإياباً (أي استدعاء أساتذة من أقسام وكليات أخرى لإلقاء محاضرات في أروقة الشريعة، وإرسال أساتذة الشريعة إلى الأقسام والكليات الأخرى للاحتكاك ببيئات تدريسية ومعرفية متنوعة) وهذا سيمنح التدريسيين والطلبة معاً خبرات أكثر تنوعاً وخصباً على مستوى الأداء التدريسي من جهة، وإغناء التخصص وتعميقه من جهة أخرى.

هذا التبادل المعرفي لن يكون بالضرورة في سياق العلوم الشرعية وحدها، بل يفضل أن يخرج إلى نطاق العلوم الإنسانية عامة، لتحقيق ما سبق وإن ألمحت إليه هذه الورقات من ضرورة تنفيذ حوار فعال بين علوم

الشريعة وسائر العلوم الإنسانية لتحقيق التحام أكثر بمطالب العصر ومقتضياته واستجابة أشد فاعلية وتنوعاً وخصباً لمشاكله وتحدياته.

ولا بد ـ أخيراً ـ من الإشارة إلى تجربة الجامعات والمعاهد الإسلامية التي بدأت منذ فترة ليست بالبعيدة، في هذا البلد أو ذاك، في تنفيذ مناهج أكثر حداثة في التعامل مع علوم الشريعة وتدريسها، فكسرت طوق العزلة، والتحمت أكثر بمطالب العصر وقدرت على توظيف معارفه وتقنياته لتقريب أهدافها، وحققت الوفاق الضائع بين المعرفة الشرعية والمعرفة الإنسانية، وسعت ـ ولا تزال ـ لإقامة الجسور المقطوعة بين الفقيه والمفكر من أجل أن تضع الفقيه في قلب الحياة، وتمنح المفكر المسلم خبرة بالمعرفة الشرعية تعينه على التأصيل وتحميه من غوائل الارتجال والجنوح.

لا يستطيع المرء أن يكون مبالغاً في التفاؤل، ولكن رحلة الألف ميل ـ كما يقول المثل ـ تبدأ بخطوة واحدة، ويكفي هذه الجامعات أنها وضعت خطواتها الأولى على الطريق ونفّذت شيئاً من المأمول، وهو كثير ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله.

ومهما يكن من أمر فإن جامعات كهذه تمثل فرصة للاستفادة من الخبرة قد تعين سائر المعاهد والجامعات الأخرى، إذا أحسنت التعامل معها وأقامت بينها وبينها الجسور، على تعديل وقفتها الخاطئة وإغناء خبراتها التدريسية والأكاديمية، وتمكينها في نهاية الأمر من تجاوز عزلتها، والنزول إلى قلب الحياة للإعانة على إعادة صياغتها بما يريده الله سبحانه ورسوله ﷺ لا بما يرسمه لها الكهنة والوضّاعون وأرباب الظنون والمصالح والأهواء.

«عِقْد المؤسّسات الإسلامية»
ملاحظات واقتراحات

[1]

إننا نحيا عصر «المؤسسة».. عصر التنظيم والعمل الجماعي، ولمّ الطاقات وتوجيهها.. عصر العدسات اللامّة التي تجمع ولا تفرّق، وتوحّد ولا تشتّت.. فتكون بؤرتها القديرة على الإضاءة والإحراق.

يحدث هذا خارج عالم الإسلام.. وأحرىٰ به أن يتحقق داخل هذا العالم، فإن كتاب الله ورسوله ﷺ قد علّما أجيال المسلمين أن اجتماع المسلمين هو الرحمة وأن فرقتهم هي العذاب، وأن المسلمين في العالم يدٌ على من سواهم، وأن الذئب لا تأكل من الغنم إلاّ الشياه القاصية، وأن عليهم أن يتوادّوا ويتواسوا ويتعاطفوا ويتراحموا..

ليست تعاليم كتاب الله وكلمات رسوله ﷺ فحسب، ولكنه الأمر الواقع الذي يحاصرهم ويلحّ عليهم بمطالبه وضروراته.. إن خصومهم يتجمّعون.. يجابهون التحديات بالتنظيم واللمّ والتنسيق.. يتناوشون المسلمين في العالم بجهد جماعي، مخطط، مرسوم، فإن لم يسارع المسلمون إلى لمّ أنفسهم، وإعانة بعضهم، والتداعي لآلامهم وأحزانهم، فكيف يأمنون أن يحموا وجودهم في معارك البقاء الصعبة؟ بل كيف

يضمنون بقاءهم نفسه في «زمن الكوليرا».. والأعاصير.. والجفاف.. والتبشير.. والتجهيل.. والفيضانات والمجاعات؟ زمن الانفجار السكاني الذي يدفع جماعات بأكملها إلى أن تأكل الحصىٰ، لا أن تشدّها على البطون، وإلى أن تهضم مذهب الخصم إذا كان في أيدي أصحابه ما يسدّ جوعها، ويعالج أوجاعها، ويمنحها شيئاً من الدفء والحنان؟!

إن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قالها بصراحة «لا تجيعوهم فتكفّروهم» والذي يحدث ـ للأسف ـ إننا سكتنا طويلاً على ما يعانيه إخواننا في العالم، من جوع ومسغبة، فتلقّفتهم شياطين الإنس وجرّدتهم من هوّيتهم الإسلامية لكي تمنحهم هوية الكفر الذي يطعم ويسقي ويعالج ويواسي، فيما هو من مهمة المسلمين القادرين أنفسهم.. ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله..

[2]

في عقد الثمانينّيات، وامتداداً للصحوة المباركة، وتعزيزاً لها، يلحظ المرء ما يبشّر بالخير، ويعد بمستقبل قريب أكثر قدرة على العطاء.

إن مؤسسات كبيرة ثلاث تنهض لكي تلبّي تحديات العصر بمنطق التنظيم، والتنسيق، والعمل الجماعي.. وتؤتي،أُ كلها بإذن الله.

كل واحدة منها تأخذ على عاتقها كبْر العمل في حقل شاسع ممتد بعيد الآفاق.. تمارس الممكن، وتضع الطموح نصب عينيها..

كل واحدة منها تحمل رؤيتها الإسلامية «العالمية» وتمضي لكي تمارس مهمتها في مشارق الأرض ومغاربها، بأكبر قدر من الرغبة الجادة في لمّ الطاقات، وتجميع القدرات الإسلامية في كل مكان.. بأكبر قدر ـ أيضاً ـ من رفض البعثرة والتشتّت.. من الغضب الذي يرىٰ في كثير من ممارسات التجزيء في العقود الماضية صيغاً في العمل المنقوص، لم يكن

ليبلغ حد «الإحْسان» الذي أمرنا به رسولنا ومعلمنا عليه أفضل الصلاة والسلام.. لم يكن ليرضي الله سبحانه القائل في كتابه الكريم: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله...**﴾ [آل عمران: 110].

نهض «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» لكي يدعو إلى «أسلمة» الفكر، ويمضي في خطوات مرسومة لتنفيذ ما هو في حدود الإمكان للتحقّق بهدفه العزيز هذا..

ونهضت «رابطة الأدب الإسلامي العالمية» لكي تدعو إلى «أسلمة» الأدب، وتمضي في خطوات مرسومة لتنفيذ ما هو في حدود الإمكان للتحقّق بهذا الهدف العزيز..

ثم ها هي «الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» تنهض هي الأخرىٰ، لكي تدعو إلى «أسلمة» التعامل الاجتماعي بين الجماعات والشعوب الإسلامية، في نطاق الضرورات الحيوية، وتمضي في خطوات مرسومة لتنفيذ ما هو في حدود الإمكان للتحقّق بهذا الهدف العزيز.

وليس غريباً أن يلحظ المرء في المؤسسات الثلاث حرصاً على عبارة «العالمية»، فإن المدىٰ الذي تتحرك فيه هذه المؤسسات هو العالم كلّه، بما أن هذا الدين كان هدفه العالم كلّه..

[3]

و «الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» ليست في حقيقة الأمر حدثاً في فراغ، ولا واقعة لا تملك نظائر أو جذوراً.. إنها ـ بإيجاز ـ ابنة البيئة الإسلامية، بأصولها العقيدية المنبثّة في كتاب الله وسنة رسولهﷺ، وفي التطبيقات العملية التي شهدتها هذه البيئة منذ تجربة «المؤاخاة» بين المهاجرين والأنصار.. بين المحرومين والواجدين في عصر الرسالة،

مروراً بمؤسسة «الوقف» ودورها الخطير في تاريخ التكافل الاجتماعي.. وانتهاء بأنشطة الهيآت والمؤسسات الإسلامية: الاقتصادية، والصناعية، والمصرفية في العصر الحديث.

و «الهيئة»، وهي تتجذّر في هذه الأصول والممارسات والخبرات، وتتأسّىٰ بها وتفيد منها، تمضي، في الوقت نفسه، لكي يزداد عطاؤها عمقاً وامتداداً، من أجل أن تكون بمستوى العصر الذي تمارس مهمتها المتشعبة، الباهظة، فيه.. ضاربة المثل العملي المنظور على أن الأمة المسلمة لا تزال بخير، وأن قدرة أفرادها وجماعاتها على العطاء والتكافل لا تزال كما أراد لها الله ورسوله أن تكون.. أليسوا هم أحفاد أولئك «الأنصار» الذين كانوا مستعدين لأن يتنازلوا لإخوانهم «المهاجرين» عن كل شيء.. وأن يورّثوهم كل ما يملكون؟

[4]

وقد تكون هذه الصفحات التي تكتب لعددٍ أوّل أو ثانٍ من مجلة «الخيرية»، فرصة لتقديم بعض المقترحات، أو وجهات النظر، بقدر ما يتعلق الأمر بالكتاب الإسلامي، وإمكان مساهمته، بشكل مباشر أو غير مباشر، في الأنشطة المستقبلية للهيئة..

قد يخطر على البال ـ مثلاً ـ أن تتبنىٰ الهيئة نشر وتعضيد وإعادة طبع البحوث والمؤلفات والرسائل الجامعية المعنيّة بالأنشطة الخيرية والتكافلية في الإسلام، والسعي لتكوين مكتبة خاصة بها.

وقد يخطر على البال ـ كذلك ـ أن يقوم في الهيئة جناح أو قسم متخصص بنشر وتوزيع الكتاب الإسلامي، تكون مهمته الأساسية إيصال هذا الكتاب ـ مجاناً أو بأقلّ سعر ممكن، وبالتعاون مع مؤسسات أخرىٰ ـ إلى المناطق «الهشّة» أو « الضعيفة» التي يمثل الإنقاذ، أو التوجيه الفكري بالنسبة لأبنائها ضرورة حيوية بالغة قدلا تقل أهمية عن بناء مدرسة أو

مسجد أو مستشفىٰ، أو تقديم معونة مالية أو طبية أو غذائية. . لا سيما تلك المناطق التي تتعرض لضغوط وتحديات المؤسسات التبشيرية وأنشطة الغزو الفكري بشعبه كافة.

أما مسألة اختيار الكتاب المناسب، ووضع قائمة بالأولويات الخاصة بالنشر، فيمكن أن تعهد إلى لجنة متخصصة في الهيئة، ويمكن ـ كذلك ـ الاستفادة من خبرات الدعاة والمفكرين الإسلاميين على مدىٰ عالم الإسلام.

إن جناحاً، أو قسماً كهذا الذي يعنىٰ بالنشر والتوزيع سيحتاج إلى صندوق خاص، أو باب مستقل من أبواب الصرف في ميزانية الهيئة. وها هنا يمكن أن يجد الكتّاب الإسلاميون منفذاً، أو جسراً بين القول والفعل، عن طريق تقديم ما يقدرون عليه لصندوق كهذا. . كأن يقوم أحدهم برصد أحد مؤلفاته ومنح حق نشره الدائم للهيئة. ومع «الكتاب» مبلغ من المال يتبرع به للصندوق يتناسب وقدرته على الدفع. وهو في كل الأحوال لا يدعم هيئة كادت تستكمل من الواجدين أسبابها المادية، ولكنه يقدم إسهاماً رمزياً ـ إذا صح التعبير ـ على أن المفكر المسلم معنيّ بخيرٍ عام كهذا، ليس بالكلمة فحسب، وإنما بالفعل أيضاً.

وهو في كلتا الحالتين إنما يبارك هذه الهيئة التي آلت على نفسها أن تلبي نداء القرآن الكريم والرسول الأمينﷺ فتداوي آلام المسلمين في كل مكان، وتمسح على جراحهم وأوجاعهم، وتمنح الطعام للجوعىٰ والمحرومين، وتجابه أضاليل الغزاة والمبشرين، وتنشر كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، حيث يتبيّن للعالم، أكثر من أي يوم مضىٰ، أنه ليس ثمة كالإسلام مأوىٰ للحيارىٰ والضائعين، وطريقاً عدلاً للعالمين **﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله. .﴾** **[الأنعام: ١٥٣]**. . وصدق الله العظيم.



عن الشيخ بديع الزمان النورسي
«دعوة إلى كسر الحواجز»

السؤال المحيّر

طالما تساءل المؤمنون في العالم: لم ينتصر الكفر على الإيمان؟

إنهم يقلّبون أعينهم في أقطار الأرض، وعلى مدىٰ القرون الأخيرة، على الأقلّ، فيجدون الكفر ـ في كل تسع معارك من عشر ـ ينتصر على الإيمان.

معادلة تكاد تكون بديهية من بديهيات الهندسة والحساب.. بينما في بديهيات القيم والعقائد يبرز «الحق» كما لو كان هو المنتصر، والباطل هو المغلوب.. فلماذا؟

إن «سعيد النورسي»، رحمه الله، هذا الصوت الأناضولي المكافح على مدىٰ يزيد عن نصف القرن.. الصوت الذي عرف كيف يناغم بين صرامة الأرقام وتوق الروح إلى الحرية.. بين مقولات المنطق ورفرفات الروح.. بين معطيات العلم الحديث وأدب الإيمان..

هذا الصوت الذي لم تسمعه ـ للأسف ـ إلاّ قلّة من المثقفين الإسلاميين خارج نطاق بلده تركيا، يمنحنا الجواب بكلمات قلائل تعرف ـ كما عوّدنا الشيخ بصدقه العجيب ـ كيف تمنح القناعة وتردّ الحيارىٰ إلى دائرة اليقين

فلننصت إليه وهو يقول:

والجواب المقنع

«سألني ذات يوم سائل: لما كان [الحق يعلو] أمر حق لامراء فيه، فلم الكافر منتصر على المسلم، والقوة غالبة على الحق؟

«قلت: تأمل في النقاط الأربع التالية تنحلّ المعضلة.

النقطة الأولى: لا يلزم أن تكون كل وسيلة من وسائل كل حق حقاً، ولا يلزم أيضاً أن تكون كل وسيلة من وسائل كل باطل باطلاً.

فالنتيجة تكون أن وسيلة حقة غالبة على وسيلة باطلة، وعليه يكون حق مغلوب بالباطل؛ مغلوب مؤقتاً، وبالواسطة [أي بالوسيلة الباطلة] وإلا فليس مغلوباً بذاته، وليس على الدوام، لأن عقبىٰ الأمور للحق دوماً.

والقوة لها من الحق نصيب، ولها سرّ كامن في خلقها.

النقطة الثانية: بينما ينبغي أن تكون كل صفة من صفات كل مسلم مسلمة مثله، إلاّ أن هذا ليس أمراً واقعاً ولا دائماً. وكذلك لا يلزم، أن تكون جميع صفات الكافر كافرة وناشئة عن كفره. وكذا الأمر في صفات الفاسق لا يشترط أن تكون جميعها فاسقة دائماً وناشئة عن فسقه.

إذن، فصفة مسلمة يتصف بها كافر تتغلب على صفة غير مشروعة يتصف بها مسلم. فبالواسطة يكون ذلك الكافر غالباً على ذلك المسلم.

ثم أن حق الحياة ـ في الدنيا ـ شامل وعام للجميع، وتجلي تلك الرحمة العامة ينطوي على سرّ الحكمة، والكفر ليس مانعاً له.

النقطة الثالثة: أن لله سبحانه تجلّيان صادران من صفة الكمال وهما تجليان شرعيان، أولهما: الشرع التكويني الذي هو المشيئة والتقدير الصادر من (صفة الإرادة)، والثاني: هو الشريعة المعروفة الصادرة من (صفة الكلام).

فكما أن هناك طاعة وعصياناً تجاه الأوامر الشرعية، كذلك هناك طاعة وعصيان تجاه الأوامر التكوينية. وغالباً ما يرى الأول جزاءه وثوابه في الدار الآخرة. والثاني غالباً ما ينال عقابه وثوابه في دار الدنيا. فكما أن ثواب الصبر الظفر، وجزاء العطالة والتكاسل الذلة والسفالة، كذلك ثواب السعي الغنىٰ، وثواب الثبات الغلبة، مثلما أن نتيجة السم السقم وعاقبة العلاج الشفاء.

وأحياناً تجتمع أوامر الشريعتين معاً في شيء.. فلكل منهما جهة. فطاعة الأمر التكويني وسيلة لباطل، وإذا ما تغلّبت هذه الوسيلة الحقة على وسيلة باطلة لحق، فحق مغلوب إذاً ـ بالوسيلة ـ أمام باطل. ولكن التغلب ليس على الحق بالذات، وإنما بالواسطة أو الوسيلة.

إذاً فـ (الحق يعلو) يعلو بالذات، والعقبىٰ هي المرادة، والتقيّد بحيثيات الحق مقصود.

النقطة الرابعة: إن ظل حقاً كامناً في طور القوة ولم يخرج إلى طور الفعل، أو ظل دون قوة، أو كان مغشوشاً مخلوطاً بشيء آخر، وتطلّب الأمر كشفه وتزويده بقوة جديدة، وجعله محضاً خالصاً زكياً، يسلط عليه ـ موقتاً ـ باطل حتى يخلص الحق من كل درن فيكون محضاً خالصاً وتتبين قيمته الثمينة الغالية. وإذا ما انتصر الباطل في الدنيا فلن يكسب الحرب السجال، لأن (العاقبة للمتقين) تطعنه طعنة نجلاء.. وهكذا الباطل مغلوب.

والسرّ الكامن في (الحق يعلو) يتطلع إلى العقبىٰ ويدفع الباطل إلى العقاب. وهكذا الحق غالب، مهما ظهر أنه مغلوب»[1]،

إن جواب «النورسي» ليس بحاجة إلى إيضاح أو تعقيب، فهو ـ كما يقول المثل ـ «القليل الذي يغني عن الكثير».

---

(1) حقائق الإيمان، ص 71ـ 74، ترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي.

فمن هو هذا الرجل؟

من حق القارىء المسلم أن يتساءل، لأنه في دائرة «العربية» لم يكد أحد يعثر على أثر لمعطيات هذا الرجل الغزيرة، أو يعرف شيئاً عن مؤلفاته التي تجاوزت المائة عدداً، اللهم إلا في العقدين الأخيرين.

إشارات بخيلة في هذه المجلة أو تلك لا تكاد تعقد جسراً بين القراء وبين الشيخ، ولا تفعل بأكثر مما تفعله حفلات التعارف السريع التي تتبادل فيها التحيات ويهمس عبرها بالأسماء، ثم ما يلبث الإنسان أن ينسىٰ معظم تلك الأسماء.

فلو أن تعاملاً جاداً تمّ بين الطرفين.. بين القارىء والنورسي، بمطالعة رسالة واحدة على الأقل من رسائله المائة والثلاثين، فمن يجرؤ على القول بأن اسم الرجل سيمحّي من ذاكرة قرّائه؟

فعندما تنطبع البصمات على صفحة الروح، وعندما يتلقىٰ الفكر سيلاً خصباً من الأفكار المتفردة، فهل بمقدور قوة في الأرض أن تمحو التأثير والانطباع؟

ترىٰ، لو لم يقيّض الله للنورسي رجلاً مثابراً كالأستاذ إحسان قاسم الصالحي، فيعكف السنين الطوال على التعامل مع معطياته ويتفرغ لنقلها إلى العربية.. ويواصل الطريق، رغم الكدّ والعناء، فيطلع على القرّاء بعشرة من مؤلفات الرجل، منقولة بأمانة إلى العربية.. ويُسأل: وماذا بعد؟ فيجيب بابتسامة واثقة، هذا أول الطريق، وهنالك عشرات أخرىٰ، ولسوف أمضي في الشوط ما دامت يدي قادرة على الكتابة[1].

لو لم يقيّض الله «الصالحي» لإقامة الجسر بين التركية والعربية أكان

---

(1) ولقد واصل الشوط حتى النهاية وتمكن في بداية التسعينيات من إتمام ترجمة أعمال النورسي كاملة غير منقوصة.

يمكن أن نعرف فكر «النورسي» كما تدفق من منابعه الأولىٰ؟

ما يجب أن نتعلّمه

إن القطيعة بين اللغات التي كتب بها فكرنا الإسلامي يتحتّم أن تزول؛ ولقد آن الأوان لكي تتولىٰ المعاول المخلصة مهمة إزالة الإنقاض بين لغة وأخرىٰ، لكي تتواصل المعطيات ويعرف العربي المسلم ما قاله أخوه التركي المسلم، ويعرف الباكستاني المسلم ما يقوله العربي المسلم.. ويعرف الأكراد والأفغان ما يقوله العرب والأندونيسيون والهنود.

ليست معطيات عصرنا الراهن فحسب، بل معطيات العصور جميعاً حيث قيل الكثير في لغاتٍ غير العربية فلم يسمعها العرب، وكتب الكثير بالعربية فلم يعرفه غير العرب. ومن عجب أن يتولىٰ غير المسلمين من المستشرقين والباحثين، مهمة النقل والتوصيل والتعريف بمفكري الإسلام وأدبائه من غير العرب، أكثر بكثير مما فعله المسلمون العرب أنفسهم..

إن هذا الذي كتب ليس أموراً عادية تقال، ولكنه، باعتباره صدوراً جاداً عن رؤية إسلامية أصيلة في الفكر والعقيدة والأدب، يحمل أهميته البالغة التي تحتّم أن يعرفه جميع المثقفين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأن تُكسر إزاءه حواجز اللغة بالنقل الأمين والتعريف الجادّ.

ترىٰ كم من المفكرين والأدباء الإسلاميين خارج دائرة العربية لم نسمع بهم أو نعرف عنهم شيئاً؟ وكم منا قرأ ـ على سبيل المثال ـ شيئاً من القصائد العذبة لجلال الدين الرومي، سلف النورسي وابن بيئته، وتذوّق طعمها الحلو، واستشرف آفاقها الإيمانية الرحبة، قبل أن تترجم أقسام منها قبل عقدين من الزمن[1].

وإذا كان الشاعر الإسلامي الباكستاني محمد إقبال قد حقق ـ لحسن

---

(1) قام الدكتور محمد عبد السلام كفافي بترجمة المجلدين الأول والثاني من (المثنوي) مع الشرح والدراسة (المكتبة العصرية، بيروت ـ 1966).

الحظ ـ قدراً طيباً من الحضور في دائرة العربية، لهذا السبب أو ذاك، فكم من أمثال «إقبال» يقف وراء السواتر اللغوية ينتظر العبور إلى العقل العربي المسلم؟ وكم من العرب المسلمين أنفسهم قالوا ما يستحق أن يبذل من أجله الجهد والعناء لكي يتجاوز حواجز الجغرافيا ويصل إلى أخوة العقيدة الذين ينتظرون؟

وما دمنا بصدد الحديث عن معطيات «أدب الإيمان» في العالم، تلك التي غذّاها النورسي بسخاء، هل نستطيع القول بأن «رابطة الأدب الإسلامي» التي اطلّت بوجهها المأمول مع إطلالة هذا العام، ستكون الهدف الذي تنعقد عليه الآمال في تحقيق المزيد من التواصل، والوسيلة التي ستكسر حواجز الجغرافيا واللغة، والحصان الأصيل الذي سينقل «الكلمة» إلى مشارق الأرض ومغاربها؟

شيء عن الرجل

«ولد الأستاذ الشيخ سعيد النورسي من أبوين كريمين في قرية (نورس) القريبة من بحيرة (وان) في سنة (1293 هـ) الموافقة (1873 م) ونشأ في بيت يسوده الورع والتقوىٰ. وانخرط بعد سن الطفولة في سلك الطلبة في المدارس الدينية، ونهل من منابع العلوم الإسلامية جميعها، ثم أخذ بناصية العلوم الحديثة بما وهبه الله من ذكاء خارق حتى لقب بـ (بديع الزمان). وعندما بلغ مبلغ الرجال قاد فرقة الأنصار من المتطوعين ومن تلاميذه ضد الروس في الحرب العالمية الأولىٰ وألف أثناءها وهو في ميادين القتال وحفر الخنادق، جزءاً من تفسيره القيم (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) باللغة العربية. ووقع في الأسر فأدركته عناية الله في هذه المحنة، فتمكن من الفرار والعودة إلى بلده، وعين عضواً في أعلى مجلس علمي في الدولة العثمانية وهو (دار الحكمة الإسلامية). وألّف في هذه الفترة نحو أحد عشر مؤلفاً باللغة العربية يدور كلها حول العقيدة واعجاز

القرآن العظيم. وما أن دخل الحلفاء استانبول محتلين وتهيأت الوسائل لحرب التحرير ضدهم حتى كان في مقدمة صفوف المجاهدين.

«وعندما اتجهت الدولة الناشئة نحو الغرب وانجرفت مع تياره، واستبدلت الحروف العربية بالحروف اللاتينية، وأحدثت الأذان بالتركية، وفرضت الزي الأوروبي، واتجهت نحو طمس العقيدة الإسلامية في نفوس الناشئة، أدرك النورسي أن ميدان الجهاد بالنسبة له قد انحصر في تربية النفوس على الإيمان وتثبيت القلوب على العقيدة، والقيام بما يؤدي إلى احتفاظ المسلم بشخصيته الإسلامية، فانكب على إملاء (رسائل النور) التي تعالج هذه النواحي على طلاّبه ومحبّيه، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، وأتمها خلال ثلاث وعشرين سنة قضاها بين الحبس والتشريد والنفي، إلى أن اختاره الله لجواره في ليلة القدر من سنة (1379 هـ) الموافقة للثالث والعشرين من مارت سنة (1960 م) بعد أن جاوزت رسائله المائة والثلاثين عدداً»[1].

---

(1) إحسان قاسم الصالحي: مقدمة رسالة الحشر للنورسي، ص 4ـ 5. وانظر عن حياة النورسي وعصره ورسائله بالتفصيل: المقدمة الموسعة التي كتبها الأستاذ علي محي الدين علي القرة داغي لرسالة (الإنسان والإيمان) للنورسي، بعنوان (في حياة بديع الزمان وجهاده وجهوده في خدمة الإسلام وفي دراسة رسائله) ص 11ـ 89، وهو يعتمد ـ إلى حد بكير ـ على ثلاثة من أوسع ما كتب من دراسات عن حياة النورسي وفكره وهي: (بديع الزمان: نظرة عامة عن حياته وأثاره) للأستاذ مصطفىٰ زكي العاشور، و (النورسي: حياته وبعض آثاره) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي)، و (جوانب غير معروفة من حياة سعيد النورسي) للأستاذ نجم الدين شاهين فضلاً عن مذكرات النورسي عن مرحلة الأسر، والتي وردت في رسالة (الشيوخ) المترجمة، وانظر ـ كذلك ـ مقدمة الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ (للمختارات) التي انتقاها من (المثنوي العربي النوري) الذي ألفه النورسي بالعربية ص 5ـ 20 (مطبعة الزهراء، الموصل ـ 1983).

دعوة لتعارف وثيق

ومن أجل ألا تكون هذه الكلمات دعوة للتعارف على الطريقة العابرة، فإن القراء مدعوون إلى تعميق هذا التعارف بالتعامل مع مؤلفات النورسي ذاتها. فها هي ذي الآن بين أيديهم، تتجاوز على يد الصالحي حدودها التركية لكي تتحدث إلينا جميعاً بلسان عربي فصيح[1].

---

(1) أنجز الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، إلى حين كتابة هذه السطور عام 1984م، ترجمة عشرة من أعمال النورسي وهي:

1ـ قطوف من أزاهير النور (مطبعة العاني، بغداد ـ 1983).

2ـ الحشر (دار الكتاب، بغداد ـ 1983).

3ـ الآية الكبرى (مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه)، (مطبعة العاني، بغداد ـ 1983).

4ـ الإنسان والإيمان (دار الاعتصام، القاهرة ـ 1983).

5ـ حقائق الإيمان (مطبعة العاني، بغداد ـ 1984).

6ـ زهرة النور (سلوة المرضىٰ وعزاء المبتلين)، (مطبعة العاني، بغداد ـ 1984).

7ـ الملائكة (بقاء الروح والحياة الأخرى) (مطبعة الزهراء، الموصل ـ 1984).

8ـ الشكر (ثمرة الحياة وغاية الكائنات) (مكتبة القدس، بغداد 1984).

9ـ الشيوخ (ندى الرجاء وبرد الإيمان على أسىٰ الروح وقلق الوجدان) (مطبعة الزهراء، الموصل ـ 1984).

10ـ الإيمان وتكامل الإنسان (مكتبة القدس، بغداد ـ 1984).

ثم ما لبث أن واصل العمل طيلة السنوات التالية فما أن أطلّ العقد الأخير من هذا القرن حتى كان قد أنجز ترجمة أعماله كافة. ثم قامت دار سوزلر في اسطنبول بإعادة طبعها ـ تحت إشرافه ـ بصيغة الأعمال الكاملة في مجلدات كبيرة الحجم بلغت الثمانية عدداً.

إلى كلّ فتاة تؤمن بالله....

[1]

الحجاب، اصطلاحاً، هو أحد المرتكزات الشرعية الأساسية لتنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة. وهو، لغةً، حجب للعري والفتنة وما يقودان إليه من إثارة للغرائز والشهوات، وتفكيك للروابط الاجتماعية وسوْقٍ لحياة باتجاه الأهواء والنزوات.

إنه، على هذا وذاك، ميزة أساسية للمجتمع الإسلامي عن سائر المجتمعات الوضعية والدينية المحرّفة، وقاعدة لإنشاء حياة تقوم على النظافة والطهر والإخلاص، وتوظيف للدافع الجنسي في قنواته الصحيحة حيث لا إفراط ولا تفريط. وقبل هذا وذاك: حماية للأسرة باعتبارها لبنة الحياة الاجتماعية ومنطلقها.

إنه الخطّ الفاصل بين مجتمع يؤمن بالله ورسولهﷺ ويقوم على تعاليم الكتاب والسنّة، وبين سائر المجتمعات الكافرة، أو المضللة، والتي تحكم بما لم يأذن به الله وتأتمر بما يصطنعه لها الكهنة والأرباب والوضّاعون.

والنتيجة، على مستوىٰ التحقّق الاجتماعي والتاريخي، أن تشهد البشرية نمطين من المجتمعات لا ثالث لهما: مجتمع الالتزام والطهر

والنظافة والتسامي، حيث يوضع الإنسان الفرد، والأسرة، والجماعة موضعها المهندَس على عين الله ورسولهﷺ ، ومجتمع الفحش والرذيلة والانحلال والسقوط، حيث تكتسح الشهوات الأفراد والأسر والجماعات وتسوقها إلى البوار والتفكك والضياع.

إن (الإيدز) الذي يصنعه انهيار الحجاب ليس بداية الكارثة ولا نهايتها، فمن قبل تحدّث المفكرون والمصلحون وعلماء الاجتماع عما فعله الاختلاط غير المرسوم في الناس، وهم يتحدثون اليوم عن الفساد الذي يكتسح البرّ والبحر والذي يبلغ حدّ أن تعلن إحدىٰ الكنائس الإنكليزية عن استعدادها لعقد الزواج النمطي بين الرجل والرجل من أجل أن تكسب مزيداً من الاتباع، وأن يوافق مجلس العموم البريطاني، بأكثرية ساحقة، على ممارسة الشذوذ الجنسي واعتباره أمراً مشروعاً.

إذا وسّعنا المنظور فإننا سنجد الحجاب ـ إسلامياً ـ يتجاوز بعده الاجتماعي ـ الأخلاقي صوب دائرة أشمل وأبعد، إنه يحمل بُعْداً حضارياً، ليس فقط لكونه يحمي الطاقة البشرية من الهذْر والتضييع، ويعين القدرة على الإنجاز ويرفع وتائرها، وإنما لكونه يتجذّر في البدايات الأولىٰ. . في لحظات الخلق الإلهي للإنسان الذي حُمل في البرّ والبحر وكرّم على المخلوقات وأريد له أن يكون سيّداً على العالمين. . أن يتعفّف ويتطهر ويتغطّىٰ.

إن آدمعليه السلام وزوجه لحظة تناولهما ثمر الشجرة المحرّمة، عوقبا للحظات، بالعرْي، ولكنهما ما لبثا أن طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. ويكفي أن نقرأ معاً هذا المقطع من سورة الأعراف (الآيات: 18 ـ 28) بحثاً عن الجذور الموغلة للظاهرة وعن البعد الحضاري للحجاب الذي أريد للإنسان أن يوظّفهُ في اثنين: السّتْر والتزيّن: ﴿**ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوءاتهما**

وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما أني لكما من الناصحين * فدلاّهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين؟ * قالا ربنا إنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون * يا بني آدم قد أنزلنا عليكم 'باساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوىٰ ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون * يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون * وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون؟﴾.

منذ بدايات الخلق أريد للإنسان أن يتغطىٰ ويتزيّن حيث يصير الاحتشام والحجاب مرادفين للزينة والجمال وحيث يكتسبان بعداً حضارياً.

حيثما تلفّتنا وجدنا الحجاب، ليس في حدوده الفقهية المنظمة فحسب، وإنما على امتداد الحياة البشرية، في كل خلاياها ومنحنياتها وممارساتها ودروبها.. فإما النظافة والطهر والجمال وإما الفحش والقبح والفجور.. ولا شيء بين هذا وذاك.. لا شيء وراء هذا وذاك.. وليس بعد الحقّ إلاّ الضلال.. والضلال يمتد اللحظة قبالتنا تماماً حيث تشيع الفاحشة وينتشر الفجور وتصير اللواطة قانوناً مباحاً، والقوادة أسلوباً ضاغطاً لاستدراج قادة الأمم والشعوب إلى الشباك والفخاخ التي يعرف شياطين الأرض كيف يوقعونهم فيها وكيف يمسكون بهم من (قرونهم) كما قالوا يوماً في (بروتوكولات حكماء صهيون).

والضلال يمتد قبالتنا حيث تمسك الصهيونية بتسعين في المائة من

صناعة السينما والإعلان وبنسبة غالبة من وسائل النشر والإعلام في أمريكا وأوروبا وكثير من دول العالم الأخرىٰ.

ويظل المنطلق إلى هذا كله، نقطة البداية لهذا كله هو الحجاب الذي بتحققه يقوم المجتمع النظيف المتوازن الجميل، وبانهياره يجيىء الزهري والسفلس والإيدز فيأكل الأخضر واليابس.. وحيث لا يأمن الزوج على زوجته ولا هذه على زوجها، ويتكاثر أولاد الحرام فلا تكاد تستوعبهم المحاضن والملاجىء.. وحيث يصير الفعل الجنسي المحرّم نزوة عابرة يتحتّم إطفاؤها سريعاً كما يشرب الإنسان العطشان كأساً من الماء فيما قالت به يوماً تنظيرات الماركسية البائدة في بدايات تشكل الاتحاد السوفياتي المنحلّ على يد عالم النفس الماركسي المعروف (ولهلم رايخ) وفيما دفع لنين نفسه بعد سنتين فحسب إلى أن ينهض محتجاً ويدعو ثانية إلى الاحتشام والتعفّف واحترام قوانين العائلة وإلاّ أصبح الجيل التالي من السوفيات كله من أولاد الحرام!

الحديث يطول، وما أرادت يوماً أن تفعله صحفية معروفة كأمينة السعيد بدعوتها الملحّة لإسقاط الحجاب وتدمير الضوابط الإسلامية، فزلّت الأقدام وانهارت المعايير وعمّت الفاحشة، ما كانت سوىٰ محاولة مرسومة لنقل المتاعب والشروخ التي تعاني منها المجتمعات الغربية إلى بيئتنا التي حصّنها الإسلام بالطهر والفضيلة والعفاف، وحماها بمنظومة من الضوابط والمعايير، بحجة أنهم ما داموا قد تفوّقوا علينا حضارياًفإن علينا، من أجل اللحاق بهم، أن نقلّدهم في كل شيء، حتى وهم يتعرّون، حتى وهم يغضّون الطرف عن خيانات الزوجة للزوج والزوج للزوجة، حتى وهم يلدون فلا يعرف أحد إن كان المولود من صلب الزوج نفسه أم من أصلاب الأصدقاء والمعجبين!

واليوم يجيء الردّ في بلاد الإسلام نفسها التي أريد لها أن تتمرّد على الحجاب.. وتتعرّىٰ.. اليوم: في الشارع والجامعة والمؤسسة والبيت

وأماكن الترفيه.. وفي كل مكان، يعود الحجاب لكي يفرض نفسه.. لكي يجابه كل الضغوط والتحديات وينهض قائماً متحدّياً هو الآخر، قديراً على مجابهة الفساد والعفن والتفكك والرذيلة التي تسرّبت كالسرطان في جسد المجتمعات المعاصرة، ولكي يقول للناس إن سنّة الله سبحانه وتعاليم رسولهﷺ هي القاعدة، وغيرها الاستثناء مهما امتدّ واتّسع، وانتفش وتكاثر.. وأنه لا تبديل لخلق الله.

بل إن تحدّيات الحجاب تتجاوز المدن والبيئات الإسلامية إلى بلدان الغرب نفسه. فاليوم ـ على سبيل المثال ـ يثور جدل عنيف في فرنسا حول الظاهرة وتكتب عنها البحوث والمقالات، وتُستعدىٰ السلطة وأزلامها وإعلامها، ويتحرك يهود هذا الزمن لإشعال النار ووقف انتشار (الظاهرة) التي يعرفون جيداً أنه إذا قدّر لها النجاح فإنها ستكون ـ بالنسبة لهم على الأقلّ ـ بداية التراجع والانكماش والسقوط..

إنه قانون التوافق مع الفطرة لا الاصطراع معها، فهو إذن القاعدة مهما تراجع وانحسر، وغيره الاستثناء مهما تورّم وانتشر وخيّل لامرأة كأمينة السعيد، وآلاف غيرها من الرجال والنساء، أنه آن الأوان لإزاحة الحجاب بإطلاق الحبل على الغارب، حيث يعود الإنسان لكي يتعرّىٰ كرة أخرىٰ.

إن الألف والاعتياد، قد يقتلان ـ أحيانًا ـ عناصر الجدّة والدهشة والانبهار والجذب في الظواهر الكونية والاجتماعية، ولذا فإننا قد نجد الغربيين وهم يعاينون الحياة الإسلامية من الخارج ويتعاملون مع أبجدياتها السلوكية والاجتماعية ـ ابتداء ـ يبهرهم الحجاب، تدهشهم قدرته الحيوية الفائقة على حماية المجتمع من التفكك والرذيلة والفساد الذي غرقوا فيه هناك حتى شحمة أذنيهم ـ تأسرهم الحياة العائلية العفّة الآمنة المطمئنة التي يصنعها الحجاب والتي فقدوها هناك.. وقد يكون هذا ـ بالذات ـ سبباً لإنتمائهم إلى هذا الدين، أو تقييمهم لمعطياته بخصوص المرأة في أقل تقدير.

نقرأ هذا مثلاً في كتاب گوستاف لوبون (حضارة العرب) الذي يغطّي

ما كان يحدث في أخريات القرن الماضي، كما نقرأه ـ على سبيل المثال فحسب ـ في كتاب (رجال ونساء أسلموا) ذي الأجزاء العشرة التي حرّرها (عرفات كامل العشّي) والتقىٰ فيها عشرات من الرجال والنساء الذين أسلموا عبر العقود الأخيرة.. وغير هذين الكتابين كثير مما يمكن أن نطالعه فيما قاله مفكرون كمارسيل بوازار في كتابه (إنسانية الإسلام) وهنري دي كاستري في كتابة (الإسلام: خواطر وسوانح) وآتيين دينيه في كتابه (أشعة خاصة بنور الإسلام) وول ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) ولايتنر في كتابه (دين الإسلام) وليوبولد ڤايس في كتابه (الطريق إلى مكة) وجاك ريسلر في كتابه (الحضارة العربية) وسيديو في كتابه (تاريخ العرب العام) وزيغريد هونكه في كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) ولورا فاغليري في كتابها (دفاع عن الإسلام).

واليوم نشهد أمراً عجباً.. إن العديد من الممثلات الشهيرات ممن اصطلح على تسميتهن (بالنجوم)!! يتمرّدن على تيار التبرّج والتبذّل والعهر، ويلتزمن الحجاب، وهن يعرفن جيداً أنه البداية والمنطلق وأنه بدونه فليس ثمة التزام على الإطلاق.. وهن بتحجّبهن يشعرن، فيما صرّحن به للصحف والمجلات، بلذّة لا تعدلها لذّة، وطمأنينة تساوي كل لحظة من لحظاتها عشرين سنة أو ثلاثين من العمل الفنّي الذي تاجرن فيه بأثديتهن ولكنهن لم يكنّ سعيدات على الإطلاق!

[2]

الكتاب الذي بين ايدينا[1] ـ على إيجازه ـ يعتمد منهجاً محْكماً يسعىٰ إلى تغطية سائر المفردات ذات العلاقة بالحجاب: المعنىٰ، المشروعية،

---

(1) إلى كل فتاة تؤمن بالله واليوم الآخر، تأليف رعد كامل الحيالي، الطبعة الرابعة، دار الفرقان، عمان ـ 1993م.

الحدود، المواصفات والشروط، فضلاً عن ملاحقته لعدد من الادّعاءات والدعوات الضالة والردّ عليها وتفنيدها.

والكتاب يتجاوز الصيغة الأكاديمية الصرفة في معالجة الموضوع، ويسعىٰ إلى أن يكون خطاباً شرعياً وتربوياً في الوقت نفسه فيكسب حيوية أشد ويحقق تواصلاً مؤثراً مع الآخرين. فما كادت طبعته الأولىٰ تصل إلى السوق حتى تلقّفتها أيدي القرّاء فنفدت بالرغم من اقتصار توزيعها على مدينة الموصل كما يقول مؤلف الكتاب الذي اضطر إلى إعادة طبعه ثانية وثالثة ورابعة.

وهو يعتمد منهجاً (وسطاً) بين التشدّد والمرونة، ويلتزم الحياد مكتفياً بأسلوب عرض الأدلة الشرعية دون الترجيح. وهو يقف ـ أحياناً ـ بين أدلّة الخلاف موقف الحاكم بين الخصمين. والمؤلف يذكّر في مقدمة الطبعة الثانية بواحدة من المبادىء الضرورية في أدب الخلاف والتي طالما نسيها البعض أو تناساها لسبب أو آخر، فكان الجدل الملحّ، والنقاش الذي يغْبر ساحته الطبيعية صوب حافات التكلّف والتمّحل، وربما الكراهية والبغضاء بما لم يأذن به كتاب الله ولا سنّة رسولهﷺ ولا توجّهات هذا الدين «الميسّر» «السمح» الذي أنزل «رحمة للعالمين» و «شفاء لما في الصدور» يقول الأخ المؤلف: «إني، مع اعتدادي برأيي الذي قد يؤاخذني في البعض عليه، أكره الخلاف والشذوذ وأحبّ السير مع الجماعة وأنزل عن وجهة نظري التي اقتنع بها بغية الحفاظ على وحدة الأمة ولكي أفوّت الفرصة على أعداء الإسلام الذين يحرصون دوماً على إثارة الخلافات.. كتلك التي تشغل بال المسلمين وما أكثرها».

وهو في معالجته لمسألة تغطية الوجه والكفّين يعطي مثلاً، من بين أمثلة ومواقف عديدة أخرىٰ في سياق الكتاب كلّه، علىٰ الموقف المرن الذي يلمّ برؤيته الشاملة أطراف المسألة كافة، فلا يتشبّث بهذه الجزئية أو تلك، مما يميل بالمعالجة إلى التشدّد الذي قد لا تطيقه كل فتاة، وإنما

يتابع بحرص وإلمام جلّ الأدلة الشرعية التي تفتح المزيد من القنوات لكي تجعل من مواصفات الحجاب وشروطه التزاماً ممكناً، ومغرياً في الوقت نفسه!

وكلنا يعرف أن الخيار الإسلامي في أية مفردة من مفردات الجهد التعبّدي والسلوكي والشرعي ينفتح على مستويات عديدة تتراوح بين التيسير في حدوده القصوىٰ المتاحة وبين الأخذ بالعزم والشدّة لمن يقدر عليهما رغبة في صعود درجات أخرىٰ صوب الأعلىٰ في الدرب الطويل، وابتغاءً للمزيد من القربىٰ من الله سبحانه. والقرآن الكريم والسنة الشريفة يقفان عند هذه المسألة في مواضع شتىٰ لن يتّسع المجال لاستقصائها ولكننا نكتفي بالإشارة إلى اثنتين. الآية الكريمة التي تقول ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنىٰ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ [النساء: 95] والحديث الشريف الذي يقول: (يسّروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا) (أخرجه الشيخان).

إن التزام الحجاب بالذات، فضلاً عن كونه تنفيذاً لأمر الله ورسولهﷺ فإنه يحمل أوجهاً شتىٰ ويدفع إلى مستويات عديدة من الجهد والتحقّق: فقد يكون تعبيراً عن الذات المؤمنة في مواجهة الانحلال وقد يكون استجابة للتحدّي بتأصيل الشخصية في الساحة الجامعية والوظيفية، وقد يكون ابتغاءً للمزيد من الأجر والمزيد من الإيغال باتجاه مواقع (الإحسان). ولكن وفي كل الأحوال فإنه ليس ثمة في الإسلام، على خلاف النصرانية تماماً، تأكيد للإحساس بالذنب وهيمنة الخطيئة وهما أمران مدمّران للصحة النفسية إذا تجاوزا حدودهما المعقولة. ومن ثم يجيء المنهج السمح الذي يعتمده الأخ المؤلف والذي يذكّرنا بما فعله ويفعله شيوخ معاصرون كالغزالي والقرضاوي، ذوو خبرة وتجربة يشهد لهما بها جمهور المسلمين. وهو منهج ضروري في زمن الحصار النفسي والتحدّيات

الصعبة التي تحتّم علينا اعتماد أكبر قدر من المرونة، في دائرة الدليل الشرعي بطبيعة الحال، كي لا نسوق الأجيال الناشئة الراغبة في الالتزام إلى مواقع التيبّس والتشنّج والانكسار.

والمؤلف في ثنايا كتابه يصوغ تعابير ومبادىء عن قضية الحجاب تدلّ على حسّ مرهف في التعامل مع الموضوع، فهو يقول مثلاً: «إن الاحتشام لا يمنع الأناقة ولا يدعو إلى التهكّم وقد يكون التبرّج ادعى إلى السخرية»، (صفحة 50).

ونقف لحظات عند هذه الكلمات فقط لنتذكر حادثة ملك الماكياج الأمريكي، صاحب مصانع (ماكس فاكتور) المشهورة، الذي يقال أنه وهو يتجوّل في حديقة للحيوان مع صديق له، وقف لدقائق قبالة قفص للقرود وحدَّق طويلاً في عينيْ إحداها. وكأنه أحسّ بدهشة صديقه وتساؤله فقال: على رسلك يا هذا فليس في الأمر ما يدعو للدهشة.. انظر إلى عينيّ القرد جيداً.. ألا ترىٰ حولهما حلقات ذوات ألوان شتىٰ من الأزرق والأخضر والأحمر والبنفسجي وغيرها؟ نظر الصديق لحظات وما لبث أن أجاب: عجيب... رغم أنني لم ألحظها من قبل! قال الملك باعتداد: تلك هي مهمّتي على أية حال.. أراد الصديق أن يتساءل كرة أخرىٰ فاسكته بإشارة من يده قائلاً: إن إحساسي باللون لا يضاهىٰ وإلاّ كيف أصبحت ملك الماكياج في العالم كلّه؟! ولكن ليس هذا هو المهم.. والمهم هو أن أجعل نساء الأرض يحطن أجفانهن بالألوان نفسها.. وقد أضيفُ إليها نقاط ارتكاز ضوئي ذي بريق لكي يستكمل المهرجان أسبابه.. وقال وهو يغادر المكان مربّتاً على كتف صديقه: المسألة مسألة وقت فحسب.. ولسوف ترىٰ!

انزلوا الآن إلى الأسواق.. اذهبوا إلى الدوائر والمؤسسات.. ادخلوا بعض قاعات الدرس في الجامعات ولسوف ترون المهرجان اللوني الذي وعد به (ماكس فاكتور) يحيط بأجفان النساء.. والموظفات وطالبات

الجامعة.. وسواء صحّت الرواية أم لم تصحّ.. ذلك أن واقع الحال يغني عن كل مقال!

وابنة (موشي دايان) قائد جيش العدوّ في معارك الخامس من حزيران تتذكر هذا أو شيئاً منه وتكتب في مذكراتها أنها وزميلاتها اليهوديات يدهشن لإلحاح الفتاة العربية في (الماكياج).. بل أن المرء وهو يتجوّل في جامعات الغرب ودوائره يجد النساء هناك ـ في الأعم الأغلب ـ غير متزيّنات وكأنهن يقلن: ليس هذا مكانه.. وللتزيّن موعده.

عندنا تختلط الأوراق وتنسىٰ بعض الطالبات أنهن ذاهبات لتلقّي العلم وليس لقضاء سهرة في ملهىً ليلي.. أتذكّر أيضاً أحد أساتذتي الفضلاء في جامعة بغداد: الدكتور فاضل حسين رحمه الله وهو ـ على هدوئه المعهود ـ ينفعل عل حين غفلة ويتطاير الشرر من عينيه ويصرخ موجهاً كلامه إلى إحدىٰ الطالبات.. كانت (هذه)، وليس ثمة مبرّر للتفاصيل، في (وضعٍ) لا يليق بحرمة الجامعة ولا بكرامة الإنسان!

وأقوال أخرىٰ يسردها المؤلف يمكن للقارىء أن يعثر عليها بنفسه، ونكتفي بأن نؤشّر على اثنتين منها فحسب: «اللائي يدّعين أن الحجاب دفن للمرأة تحت خيمة سوداء بحيث لا تشمّ هواءً ولا ترىٰ شمساً، وعزلاً لها عن مجتمعها، هن أكثر النساء جهلاً أو تجاهلاً بمقاصد الشريعة الإسلامية السمحاء».. و «يظن الكثير من الأباء والأمهات أن تبرّج بناتهن واستعراض جمالهن يعجّل بزواجهن فيعرضون بذلك بناتهم كما يعرض التاجر سلعه للبيع، لترمقهن الأعين وتتفحّصهن بالنظرة تلو الأخرىٰ وليسمعن قبيح الكلام من مرضىٰ النفوس، ولم يفطنْ هؤلاء الآباء والأمهات إلى أن الذي يطلب الزواج بابنتهم لجمالها، ولا يستنكر تجرّدها من الحياء والاحتشام وخروجها عن آداب الإسلام، هو رجل فاسق شهواني يبحث عن جسم خليع ليتمتع ولا يبحث عن قلب سليم ليسعد. فلن يكون هذا الرجل زوجاً صالحاً» (ص 52 ـ 53).

وفي فصل (أقوال لا رصيد لها) مناقشة مدعمة بالأدلّة الشرعية والشواهد السلوكية والاجتماعية للعديد من الأقاويل والادّعاءات والدعوات الباطلة التي روّجها «الكتاب الذين يجهلون الشريعة، والمتأثّرين بالثقافة الأوروبية» (ص 58).

[3]

حتىٰ مرحلة الخمسينيات وبداية الستينيات كانت المكتبة الإسلامية تعاني من فراغ ملحوظ في معالجة قضايا المرأة وبخاصة الحجاب. كانت هذه موزّعة في كتب التفسير والحديث والتراث الفقهي ولم تكن ميسّرة لمعظم القرّاء والمتابعين، وكانت بحاجة إلى لمّ مفرداتها وإعادة تقديمها للناس وفق مناهج البحث الحديث الذي يضع بين يدي المعنيين جلّ ما يتعلق بموضوعة ما من الموضوعات، من أجل الإلمام بمعطياتها والسيطرة عليها.

وعندما تُرجم كتاب (الحجاب) للمودودي رحمه الله حقق رواجاً كبيراً لكونه من المحاولات المبكرة في الموضوع. كانت هنالك أيضاً محاولات قيّمة للسباعي رحمه الله والبهي الخولي وفصول موزّعة في مؤلفات محمد قطب.. وتتابعت السنوات وأصبح (الميدان) نفسه ـ كما يقولون ـ يفرض حضوره على الكتّاب الإسلاميين لكي يقولوا كلمتهم في الحجاب ويتعاملوا مع كل مفرداته ومطالبه. وها هي المكتبة الإسلامية، وبموازاة الحضور المؤثّر للحجاب في المؤسسة والشارع والتعليم والحياة العامة، تتلقىٰ المزيد من البحوث والدراسات التي تدعم المسيرة، وتقودها، وتهديها سواء السبيل، محاولة، ما وسعها الجهد، ألاّ تقع في مظنتيْ الإفراط والتفريط، حيث يؤول أحدهما إلى تأكيد التفكك والانحلال، أو تسويغ بعض حلقاته في الأقل، ويقود ثانيهما إلى نوع من التشدّد الذي قد يولّد ردود أفعال لا تحمد عواقبها، ولا تنسجم ـ ابتداء ـ

مع «اليسر» و «السماحة» اللتين جاء بهما هذا الدين وسميت شريعته بهما كذلك.

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: **﴿يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفّف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾** [النساء: 26 ـ 28].

المعرفة الإنسانية وضياع الهوية

[1]

ليس ثمة كالعلوم المسمّاة بـ (الإنسانية) أداة ذات قدرة عالية علىٰ التبديل والتفكيك وإعادة الصياغة في البنية الحضارية، بسبب من كونها تنبثق عن خلفيات رؤيوية شاملة وتنهض قائمة على منظومة من التصوّرات والمذاهب والفلسفات التي تغذّيها وتمنحها الملامح والخصائص، وتنحاز بها ـ بالتالي ـ صوب هذا المنظور أو ذاك. إنها ليست محايدة كالعلوم الصرفة أو التطبيقية، ومن ثم فإن تقبّلها في نسيج أية ثقافة مغايرة، سيقود تلك الثقافة، بدرجة أو بأخرىٰ، ليس إلى مجرّد إضافة عناصر غريبة عن المناخ الذي تتنفّس فيه وتتشكل، وإنما إلى أن تفقد شيئاً فشيئاً مقوّماتها الأساسية، وتضحّي بتميّزها، وتمارس ـ هي الأخرىٰ ـ انحيازاً قد يؤذن بتفككها وسقوطها.

كان هذا أحد مداخل الغزو الفكري عبر القرنين الأخيرين: أن نتقبّل عن الحضارة الغالبة معطياتها التي تتعامل مع الإنسان والتي قد تتقاطع منذ لحظات تشكّلها الأولى، ليس مع المفردات الإسلامية فحسب، وإنما مع أسسها وبداهاتها.

لقد تموضعت الحضارة الغربية شيئاً فشيئاً في دائرة صنميةٍ ترفض الله

(جلّ في علاه) وتصنع على هواها شبكة من الطقوس تنسجها المصالح والأهواء حيناً، والظنون والأوهام حيناً آخر، وما يسمىٰ بالأنشطة العلمية الإنسانية في معظم الأحيان. لقد أريد لنا ـ لسبب أو آخر ـ أن ندخل اللعبة نفسها، أن نفقد اليقين بالأساس الإيماني الموغل في بنياننا الثقافي، وأن ننسىٰ الله.

إن هذا التقابل المحزن بين صنميات الثقافة الغربية وبين ثقافتنا التي يراد لها أن تنسلخ عن جوهرها الإيماني القائم على التوحيد، يذكرنا بعبارة قالها (گارودي) في (وعود الإسلام)[1] وهو يتحدث عن «الصنمية التمائمية التي تفرّخ وتتكاثر» في المجتمعات الغربية: «صنم النموّ، صنم التقدّم، صنم التقنية العلموي، صنم الفردانية وصنم الأمة. . بمحذوراتها جميعاً، ومحرّماتها وبرموزها الـ (مقدسة) وبطقوسها» وأنه ليس ثمة في مواجهة هذا كله، سوىٰ أن نتشبّث أكثر فأكثر بـ «لا إله إلا الله»، هذا الإثبات الأساسي للإيمان الإسلامي. . وإننا لنعرف بالتأكيد ما لهذا اليقين في العقيدة من قوة هدم وتحرير. . فالحوار هكذا مع الإسلام يمكن أن يساعدنا على ابتعاث خميرة عقيدتنا الحيّة فينا، تلك التي تستطيع نقل الجبال من مواضعها»[2].

نتذكر أيضاً عبارة أخرىٰ في الكتاب نفسه تبيّن أننا نمارس لعبة خاسرة ونحن نتعامل مع «إنسانيات» الغير دونما أي قدر من التريّث أو النقد والتمحيص: «لمْ نشدّد على الوجوه التي لعب بها العلم الإسلامي باكتشافاته دور (الرائد) للعلم الغربي الحالي، وإنما على صفاته الخاصة في تبعيته وخضوعه للوسائل الإنسانية ذات الغايات الإلهية. في هذا المنظور، على القرن العشرين، وعما قليل، على القرن الواحدوالعشرين أن يتعلما كثيراً من الإسلام»[3].

---

(1) ترجمة ذوقان قرقوط، الوطن العربي، القاهرة ـ بيروت ـ 1984م.

(2) وعود الإسلام ص 217ـ 218.

(3) نفسه ص 111.

فالذي يحدث منذ حوالي القرنين أننا لم نمارس تعليم الآخرين، أو نحاوله في الأقلّ، وإنما رحنا نأخذ منهم معارف إنسانية تقطّعت وشائجها بالإنسان ـ في أقصىٰ حالات توازنه وأدناها ـ وفقدت أية غاية إيمانية تتجاوز الحاجات القريبة، وتبعد بالحياة البشرية عن أن تكون مجرد حركة في الطول والعرض.

والمشكلة، في نهاية الأمر، وكما يقول گارودي نفسه «كونية» «ولا يمكن للجواب إلاّ أن يكون على المستوى الكوني»[1].

فما لم تكن أنشطتنا المعرفية (الإنسانية) متلبّسة بمطالب العقيدة ومقاصد الشريعة التي انبثقت عنها، ما لم تكن هذه الأنشطة ذات طموحات كونية بمستوى المنظور العقدي للإسلام نفسه، فمعنىٰ هذا أن هناك نقصاً.. ثغرة ما.. فراغاً.. قد يكون فرصة ملائمة لتقبّل (إنسانيات) الآخرين، «الصنمية» فلا تزيدنا إلاّ ضياعاً، وتضاؤلاً، وتبعية وانحساراً.

لقد دلّت التجربة نفسها كما يقول رجل القانون الدولي المعاصر (مارسيل بوازار) «على أن محاكاة العقائد المستوردة من أوساط ثقافية أجنبية، غير ملائمة. والحركات التي تستلهم الإسلام (بما فيها شبكة التعامل المعرفي) قادرة وحدها على أن تدمج عند الاقتضاء مختلف التيارات الباقية على الساحة لتقدم منها حلولاً مركبة تظهر الفضائل الأخلاقية من خلالها إحدىٰ القوىٰ الأساسية للحضارة»[2].

فنحن نرى ونلمس كيف أن المنفعية الصرفة، وتعبّد الذات، وتعبيد الآخرين، وإرغام الكشف المعرفي المحدود على أن يكون عقيدة شمولية، والنزوع المادي ـ البيولوجي الصرف للمعرفة الإنسانية، هذه كلها، وغيرها

---

(1) نفسه ص 67.

(2) إنسانية الإسلام، ترجمة د. عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت ـ 1980، ص 379ـ 380.

كثير تأخذ برقاب مساحات واسعة من علوم غربية كالنفس والاجتماع والتاريخ والاقتصاد والسياسة والقانون وغيرها من المعارف الإنسانية. وهي جميعاً تفتقد «الفضيلة الخلقية»، فضلاً عن الرؤية الكونية، اللتين يتحتّم على المعرفة الإسلامية أن تقدّمهما اليوم، أو غداً، للإنسان من أجل أن يكون النشاط المعرفي مع الإنسان وليس في مواجهته.

والمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية، التي هي الإنجاز الغربي الأكثر تألّقاً، والأقرب إلى الحياد «لا تدفع المسلم ـ كما يؤكد بوازار أيضاً ـ إلى إنكار موقفه الديني، بل إلى تعميقه أمام العالم والله، متوجباً عليه.. محاولة إدراك الإمكانيات بشكل أفضل في إطار إسلامي شامل.. وعندئذ يعود الإسلام إنسانية حقيقية كما كان، عن طريق تخيّر المشاركات الثقافية.. وتبنّيها.. وتمثّلها..»[1].

والذي حدث، ويحدث أيضاً، أننا ونحن نتعامل مع المعرفة الإنسانية الغربية عبر القرنين الأخيرين، لم نحاول، إلاّ في حالات استثنائية لا يقاس عليها، أن «نتخيّر» أي أن ننقد ونمحّص ونفرز ثم نختار، في ضوء موقف ديني معمّق إزاء الله سبحانه وإزاء العالم من أجل التحقّق «بإمكانيات أفضل في إطار إسلامي شامل»، وليس في سياق إنتماء غير ممحّص لثقافة الغير.

ومنذ أكثر من نصف القرن كان (ليوبولد ڤايس: محمد أسد) قد حذّر من ممارسة انهزامية كهذه، وأن يكون المسلمون أكثر تأصيلاً معرفياً، مشدّداً على «أن الإسلام، بخلاف سائر الأديان (والمعارف الوضعية بطبيعة الحال)، ليس اتجاه العقل اتجاهاً روحياً يمكن تقريبه من الأوضاع الثقافية المختلفة، بل هو فلك ثقافي مستقل ونظام اجتماعي واضح الحدود. فإذا امتدت مدنية أجنبية بشعاعها إلينا وأحدثت تغييراً في جهازنا الثقافي ـ كما هي الحال اليوم ـ وجب علينا أن نتبيّن لأنفسنا إذا كان هذا الأثر الأجنبي

---

(1) نفسه ص 387ـ 388.

يجري في اتجاه إمكانياتنا الثقافية أو يعارضها، وما إذا كان يفعل في جسم الثقافة الإسلامية فعل المصل المجدّد للقوىٰ أو فعل السمّ»[1]. وهو يخلص إلى القول بأن «الشيء الوحيد الذي لا يستطيع المسلمون أن يتمنّوه هو أن ينظروا بعيون غربية ويروا الآراء الغربية. أنهم لا يستطيعون إذا أرادوا أن يظلوا مسلمين، أن يتبدّلوا بحضارة الإسلام الروحية تجارب مادية من أوروبا»[2].

وعلى مدىٰ قرنين من الزمن، وبسبب من ضغط لا يرحم من الإحساس بالدونية تجاه معارف الآخرين تناولنا سمّاً كثيراً، بدلاً من البحث عن المصل المجدّد للقوىٰ. ولقد قاد هذا السمّ إلى انحلالنا الثقافي أكثر فأكثر. لقد تعاملنا، بقدر ما يتعلق الأمر بالمعارف الإنسانية مع المادّيتين الديالكتيكية والتاريخية في مجال البحوث الفلسفية والتاريخية، ومع الانتخاب الطبيعي في مجال أصل الإنسان، ومع نظرية التحليل النفسي في مجال البحوث النفسية، ومع العقل الجمعي في مجال علم الاجتماع، ومع الوجودية في مجال الأدب، ومع السريالية في مجال الفن، ومع الذرائعية في مجال التربية.. ومع.. ومع.. فماذا كانت النتيجة؟

اليوم إذ تتساقط هذه الشبكة من المعطيات المتورّمة سرطانياً.. ندرك أننا كنا مخطئين، وأننا خسرنا زمناً طويلاً كان بمقدوره لو أحسنّا التمحيص والتخيّر في أنشطتنا المعرفية الإنسانية، أن يجعلنا ليس فقط أكثر أصالة، وإنما ـ أيضاً ـ أن نقلّل الهوّة بيننا وبين الغير وأن نرغمه على احترامنا، وربما مدّ اليد لطلب العون منا.

والتعويض الوحيد الذي يمكن أن يعلّمنا من الخطأ، وأن يغفره لنا، هو أن نبدأ، وبالجد الذي يقتضيه الموقف، نشاطاً تأصيلياً يجعل المعرفة

---

(1) الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ـ 1965، الطبعة السادسة، ص 18.

(2) نفسه ص 71.

الإنسانية تتشكل في رحم الإسلام وليس في بيئة غريبة هجينة، وفي أن يكون نبض هذا التشكّل متوافقاً مع المطالب الإسلامية، متناغماً مع المقاصد الشرعية، منسجماً مع التوجّه الإيماني في الصيرورة والمصير.

من أجل ذلك يجب أن نكون حذرين من الإحساس بالدونية إزاء المعرفة الغربية. وإذا كانوا قد تفوّقوا علينا بعلومهم الصرفة وبتقنّيتهم فإن هذا يجب «ألاّ يحمل المسلم ـ كما يقول ڤايس نفسه ـ على اعتبار المدنية الغربية أرقىٰ من مدنّيته، وإلاّ لن يكون حينئذٍ على بيّنة من قيمة الإسلام..»[1]. وهو يعود لكي يؤكد هذا البعد النفسي في مكان آخر «فكيما يستطيع المسلم إحياء الإسلام يجب أن يعيش عالي الرأس، يجب عليه أن يتحقّق أنه متميز، وأنه مختلف عن سائر الناس، وأن يكون عظيم الفخر لأنه كذلك. ويجب عليه أن يكدّ ليحتفظ بهذا الفارق على أنه صفة غالبة وأن يعلن هذا الفارق على الناس بشجاعة بدلاً من أن يعتذر عنه بينما هو يحاول أن يذوب في مناطق ثقافية أخر..»[2].

[2]

العلم يجب أن يكون متعشّقاً مع العبادة بمفهومها الإسلامي الكوني الشامل، وفي الحالات السويّة، في الحالات غير المَرَضية، فإنه ليس ثمة تناقض أو تضاد بأية صيغة من الصيغ بين المضيّ قدماً في سلّم المعرفة وبين الصعود إلى فوق وابتغاء القربىٰ من الله.. على العكس، أنه واحد من الجسور التي تعين على الوصول.

إن التحقّق بالبديل، بالمعرفة الإيمانية، وتنفيذ الخطوات الأولى للمشروع الحضاري المرتجىٰ، لن يتشكل في الفراغ، كما أنه لا يقوم ـ كما

(1) نفسه ص 77ـ 78.

(2) نفسه ص 83ـ 84.

ألمحنا قبل قليل ـ على أسس منحرفة، أحادية الرؤية، جزئية المنظور، كان العقل الغربي قد منحنا القناعة الخاطئة بها أو ألزمنا بقبولها.

لا بدّ من خلخلة هذه القناعات، وإلغاء الخرائط الخاطئة، وتسوية الأسس الملتوية وإعادة هندستها من جديد.

إن جهد الأخ (هشام البدراني) في مؤلّفه الذي سيصدر قريباً(*)، وجهود كل الذين يشاركون اليوم في المهمة الصعبة، يمثل حلقات في محاولة التعويض الصعبة التي أشرنا إليها.. حلقات يمسك بعضها بعضاً وتقود إلى الشيء نفسه: خلخلة المسلّمات الفكرية الغربية الخاطئة في حقول الإنسانيات والتي أعانت كل قوىٰ الدفع الفكري على تمريرها في نسيج حياتنا، والتي تلقّاها كل واحد منا على مدىٰ عشرين أو ثلاثين سنة في المؤسسات التعليمية، في المدرسة أو الكتاب على السواء.

والخلخلة وحدها لا تكفي، إنها مجرد جهد سلبي يجب أن يوازنه الطرف الآخر: الإيجاب، متمثّلاً بإقامة معمار معرفي في هذا الفرع أو ذاك، معمار يقوم على أسس إسلامية، ويبنىٰ بالمواد الإسلامية، وتتشكل ملامحه في رحم الإسلام، ويمارس وظيفته عبر منظومة القيم الإسلامية، ويمضي إلى الهدف الواحد الذي لا هدف قبله أو معه أو بعده: ابتغاء رضوان الله، والتحقّق بحياة متوازنة سليمة، يخفق فيها العقل ويعطي متوافقاً مع كلمة الله وليس متضاداً معها.

والكتاب الذي بين أيدينا، كما سيجد القارىء، يحاول، في مساحات واسعة منه أن يمضي إلى الطرف الآخر من أجل تقديم البدائل الممكنة، وملء الفراغ.

إن الدراسات النفسية التي افترض الغربيون علميّتها لن تكون في أقصىٰ حالاتها إلاّ علماً احتمالياً. وقد رأينا جميعاً كيف كان علماء النفس

(*) لم يُتح له الصدور لحدّ الآن.

الغربيون ينقضون بنيانهم وينكثون غزلهم. فلم يعد التحليل النفسي الفرويدي ولا معطيات بافلوف واقتراناته الشرطية ولا كشوف إدلر ويونغ وتنظيرات النفسانيين الماركسيين.. وغيرها حقاً متفرّداً مطلقاً.. إذا كان بعضها يردّ البعض الآخر فلا بدّ أن يكون هناك خطأ ما، وبالتالي فليس ثمة مصداقية على الإطلاق.

سوليفان ـ مثلاً ـ في الفصل المعنون بـ (طبيعة العقل) من كتابه المعروف (حدود العلم)[1] يلاحق عدداً من أشهر النظريات النفسية فيبيّن ما في كل واحدة منها من خلل وتناقض واضطراب: الفلسفة المادية العتيقة التي فسّرت أفكار الإنسان على أنها مؤلفة من حركات صغيرة من البليارد في رأسه.. النظرية الحديثة للتطوّر الطارىء التي ترىٰ أن خواصاً جديدة بصورة جذرية تبرز إلى الوجود في مراحل مختلفة من التعقّد الذي يصل إليه الكيان المادي، فالحياة والعقل كلاهما قد اعتبرا وفقاً لهذه النظرية خاصّتين طارئتين على مجاميع مادية معيّنة.

المادية الديالكتيكية التي هي في نهاية التحليل حصيلة أكثر تفلسفاً وادعاء للعلمية للنظريتين السابقتين اللتين أثبت التحليل العلمي ظنّيتهما وعدم صدقهما المطلق.. النظرية السلوكية التي تقوم على الإنعكاس الشرطي والتي سمّاها الدكتور برود (نظرية السخف الطائش) رغم ما يتميز به الرجل من صبر جدير بالإعجاب والتي يقول عنها سوليفان بأنها تناقض خبراتنا المباشرة وتتنكر للحقائق الواضحة.

نظرية التحليل النفسي التي تتقاطع معها بشكل حادّ ـ أحياناً ـ كشوف إدلر ويونغ والتي ما لبثت أن انشقّت عنها طوائف شتىٰ من النفسانيين، حتى أن عروض التحليل النفسي أصبحت تنافس المسيحية جيّداً في عدد طوائفها، وكل طائفة ـ كما يقول سوليفان ـ تدعّي لنفسها، مثل طوائف

---

(1) الدار العلمية، بيروت ـ 1972م.

المسيحية نظرة شاملة وواقعية! وتشير إلى قائمة مؤتمرة من العلاجات الروحية والجسمانية لإثبات كفاية تعاليمها وصلاحيتها!

ويخلص سوليفان إلى القول بأنه ليس في نظريات علم النفس كافة «شيء من شأنه أن يغيّر جدّياً في قناعتنا بأن هذا العلم لا يمكن اعتباره علماً حتى الآن. وللمعارف الأخرىٰ أيضاً مثل علم الاجتماع والاقتصاد وما إلى ذلك، بعض النواحي التي لا تعتبر مُرضية من وجهة النظر العلمية. والعلم هو أقوىٰ ما يكون عليه عندما يتناول العالم المادي، أما مقولاته في المواضيع الأخرىٰ فتعتبر نسبياً ضعيفة ومتلجلجة»[1].

وهي نفس النتيجة التي ينتهي إليها الكسيس كاريل في (الإنسان ذلك المجهول): إن السيطرة على عينة من العالم المادي لغرض فهمها ممكنة إلى حدّ ما، أما السيطرة على عينة يدخل فيها الإنسان، والعقل، والحياة، طرفاً فتكاد تكون مستحيلة.. والنتيجة التي نصل إليها في هذا المجال «ضعيفة ومتلجلجة»[2].

ومن قبل سئل الرسولﷺ عن الروح: معجزة الإنسان وسرّ العقل ومفتاح الحياة، فأجاب القرآن الكريم عنه **﴿ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً﴾**[3].

وثمة ـ أخيراً ـ وفي السياق نفسه تلك المفارقة التي يمكن أن تعطينا مثلاً واضحاً على مدىٰ علمية الكشوف النفسية للعقل الغربي الضالّ الذي لا يستهدي بكلمة الله، وهو مثل قد ينسحب على مساحات واسعة جداً من نسيج المعطيات المعرفية الغربية في حقل الإنسانيات:

---

(1) حدود العلم ص 125.
(2) انظر بالتفصيل: عماد الدين خليل: العلم في مواجهة المادية، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ 1983م.
(3) سورة الإسراء، آية: 85.

«كان الدافع الجنسي ـ فيما يرويه أرثركوستلر ـ مقرراً أو معترفاً به، إلاّ أننا كنا [كماركسيين] في حيرة بشأنه. كان الاقتصار على زوجة واحدة بل كان نظام الأسرة كلّه عندنا أثراً من آثار النظام البورجوازي ينبغي نبذه لأنه لا ينمّي إلاّ الفردية والنفاق والاتجاه إلى اعتزال الصراع الطبقي. ولم يكن الزواج البورجوازي في نظرنا إلاّ شكلاً من أشكال البغاء يحظىٰ برضاء المجتمع. إلا أن السفاح والاتصال الجنسي العابر كان يعتبر أيضاً شيئاً غير مقبول، وكان هذا النوع الأخير قد شاع وانتشر داخل الحزب سواء في روسيا أو خارجها، إلى أن أعلن لينين تصريحه الشهير الذي يهاجم فيه نظرية (كأس الماء)، النظرية التي تزعم أن العملية الجنسية ليست أكثر خطراً وأثراً من عملية إطفاء العطش بكأس من الماء. وكان الدكتور ولهلم رايخ، وهو رجل ماركسي من اتباع فرويد، ومؤسس معهد (السياسة الجنسية) قد أصدر تحت تأثير مالينوفسكي كتاباً سمّاه (وظيفة الشهوة الجنسية) شرح فيه النظرية التي تزعم أن الفشل الجنسي يسبّب تعطيل الوعي السياسي لدى الطبقة العاملة، وإن هذه الطبقة لن تتمكن من تحقيق إمكانياتها الثورية ورسالتها التاريخية إلاّ بإطلاق الحافز الجنسي دون حدود أو قيود. وهو كلام يبدو الآن ـ يقول كوستلر ـ أكثر اعوجاجاً وسخفاً مما كان يبدو لنا في ذلك الحين»[1].

وهذه النظرية التي يطرحها الدكتور الماركسي ـ الفرويدي، والتي تمثل امتداداً ميكانيكياً لمقولة ماركس وانگلز في (البيان الشيوعي)، يجيء لينين الزعيم الماركسي لكي يقلبها رأساً على عقب، وهو بصدد مهاجمة نظرية «كأس الماء»!.

والبديل؟ «هو الفضيلة العمالية التي تتلخّص في أن الإنسان ينبغي له أن يتزوج ويخلص لزوجته وينجب أبناء عمّاليين!»[2] ولم يكن (الإيدز) قد

---

(1) الصنم الذي هوىٰ: ترجمة فؤاد حمودة، بيروت، ط 2ـ 1970، ص 57ـ 58.
(2) نفسه ص 57ـ 58.

اكتشف بطبيعة الحال، ولكن كان هناك الزهري والسفلس وكان الخوف من أن يتحوّل الجيل التالي للسوفييت إلى (أولاد حرام).. وقبل هذا وذاك كان عقاب الله الذي يأخذ برقاب كل من يخرج على السنن ويتحدىٰ النواميس.

[3]

بؤرة المشكلة كما يراها المؤلف هي في الفراغ الفكري الذي تعاني منه الأمة الإسلامية اليوم «منقطعة عن تفكيرها في وقائع الحياة، ذلك التفكير المنتج الذي عرف عنها في عصر نهضتها وريادتها العالم. هذا السير المنقطع أوجد في عقليات أبنائها فراغاً بحيث فتح لأعدائها فرصة توصيل أفكارهم وترسيخها لتكون بديلاً عن مفاهيم الإسلام» (ص 2) ولا يعني هذا أن المؤلف يدعو إلى إقامة جدار عازل بيننا وبين الفكر الغربي، ولكنه يفرّق «بين الانتفاع من الثقافة والتأثّر بها» (ص 3). «والثقافة ليست علماً» (ص 5) كما يخيّل للبعض، كما أنها «ليست عالمية» (ص 5 ـ 6) فيما يحاول أن يوهم به «سدنة الفكر الرأسمالي وقادة الغرب» (ص 6) لتمرير المفاهيم على «الآخرين» وجعل العالم كلّه يخضع للمعطىٰ الثقافي الغربي. من هنا فإن التسليم بمقولات (النفسانيين) الغربيين، أو أية مقولات أخرىٰ تتحرك في دائرة المعارف الإنسانية، يعد خطأً فادحاً بحق التميّز العقدي والحضاري للأمة المسلمة لا سيما إذا تأكد لنا أن الرؤية الإسلامية تتقدم دائماً بالبدائل المناسبة في كل حلقة من حلقات المعرفة الإنسانية، فقط إذا تهيّأ لها الباحثون الذين يملكون الفهم الصائب والجدّ المطلوب في التعامل مع مفردات هذا الحقل المعرفي أو ذاك.

إن هدف الكتاب يصبّ في هذا الاتجاه، لذلك، يقول المؤلف «كان لنا ساعة نقاش في جانب الفكر النفساني ومع مفاهيم علماء النفس لبيان خطئها وأوجه تهافتها، ولإظهار الصواب باتباع مفاهيم الإسلام» (ص 6).

محاور الكتاب تشير إليها المقدمة: المنهج الفكري، ومفهوم العقل

والذكاء، والرؤية الفلسفية للعقل، وإشكالية العقل والجسم، ثم الشخصية (ص 7).

بعد مناقشة مستفيضة للمنهج النفسي، مدعمة بالأدلة، يؤكد المؤلّف فلسفية «علم النفس» وعدم تجريبيته أو تحديده بشكل نهائي (ص 8 ـ 15) وفشل محاولة علمنته وفصله عن الفلسفة (ص 22) ومحاكاته الأسلوبية لعلوم الفيزياء والكيمياء والفيزيولوجيا (ص 23 ـ 29) (وانظر كذلك: الفصل الرابع ص 41 ـ 53) فيما لم يتجاوز به حدود الاحتمالية ويحوّله بالتالي إلى خطّ العلوم المنضبطة. ثم يخلص إلى القول بأن علماء النفس «أوجدوا بأبحاثهم ودراساتهم رؤية عن الإنسان فلسفتْ أساليب المنهج التجريبي وتجسّدت بأفكار فلسفية نفسية. ولكنها كانت فلسفة جوفاء من غير محتوى، وتفكيراً سطحياً بمفهوميّته للمنهج العلمي، ونتج عن هذه الفلسفة النفسية أفكار سقيمة عن الإنسان والحياة استمرت تدور في فراغ من غير وضوح بمعالجة غير موضوعية وأبحاث مغلقة غير عملية في تقديمها النظري أو محاولاتها للسيادة لتقرير مفهومات علاجية لمشكلات الحياة والإنسان» (ص 29).

وهكذا وُظّفت المعطيات النفسية في خدمة سياسات الدول الغربية (ص 31) وتعرضت لسلسلة من الشدّ والجذب، ومن الأفعال وردود الأفعال بين التصوّرات والفلسفات المتعارضة (ص 35) بل أنها أُعتمدت أداة للتخريب الاجتماعي والأخلاقي والنفسي للإنسان المعاصر (ص 39) كما أنها ـ على المستوى الحضاري العام ـ سُخرّت لتأكيد قيم الحضارة الغربية الكافرة وتعزيز تفرّدها بالسلطان (ص 86 ـ 87).

وإزاء السياق النقدي الذي أشرنا على بعض مفرداته يمضي المؤلف لكي يقدّم معطياته واستنتاجاته البنائية البديلة في العديد من الموضوعات التي عُنيت بها المعرفة النفسية من مثل: (تعريف الذكاء) (123 ـ 128) وأن الصفات الإنسانية ليست خواصاً عضوية (ص 138) وأن الدماغ ليس

عضواً للتفكير (ص 151 فما بعد) وإنما هو مركز قيادة البنية الجسمية (ص 157 فما بعد)، و (الشخصية) وحيرة علماء النفس بصددها (ص 165 ـ 191) وأنها على خلاف استنتاجاتهم تماماً «تأليف حاصل من تناسق بناء العقلية والنفسية وفق قاعدة فكرية مخصوصة أو مقاييس محدّدة ضابطة، وتكوينهما بكيفية تقتضيها هذه القاعدة الفرية في عمليات الإدراك والإشباع» (ص 191).

وهكذا يمضي المؤلف لمعالجة إشكالية الدوافع (الفصل الثالث) والانفعالات (الفصل الرابع) ثم يخلص إلى السلوك (الفصل الخامس) فيقدّم، بعد تحليله لأسباب السلوك، رؤيته المتميزة لأنماطه الأربعة: (الجبليّ، والوجداني، والعقلي، والحسّي) وهو التحليل الذي يُعدّ ـ بحق ـ أهم ما في الجانب البنائي من الكتاب لما ينطوي عليه من إضافة ذات قيمة بالغة للدراسات النفسية.

[4]

ثمة مسألة منهجية قد تقتضي وقفة قصيرة: فلا يكفي أن نكشف عن أخطاء الآخرين في حقول النشاط المعرفي الإنساني، لا يكفي ـ أيضاً ـ أن ندعو إلى هدم المعمار القائم على أسس منحرفة، أو أن نتقدم ببدائل أكثر دقّة وإحكاماً.

وإنما ـ وهذا هو المهم بصدد أنشطة التأصيل المعرفي الإسلامي ـ أن نمنح التوثيق الكافي لمعطياتنا من كتاب الله وسنة رسولهﷺ ، وإلاّ أصبحت مجرّد استنتاجات أو محاولات شخصية قد تملك الكثير من القدرة على الإقناع، لكنها ـ على أية حال ـ لا تتجذّر في المرتكزات التصوّرية للعقيدة الإسلامية.. في كتاب الله وسنة رسولهﷺ .

إن المرء يتذكر هنا ـ كنموذج للاستدلال ـ ما فعله الأستاذ (محمد قطب) في مؤلفاته القيّمة عن المعرفة النفسية، أنه لم يكتف بنقد، وربما

هدم المعطيات الوضعية، وإنما كان يطرح البدائل الموضوعية، وهي بدائل إسلامية وليس مطلق بدائل ولا مجرد استنتاجات وقناعات شخصية. وكان يأخذ نفسه بمنهج صارم يقتضي دعم هذه البدائل بالأدلة الشرعية من القرآن والسنّة، وأحياناً كان يبدأ من المرتكزات الشرعية ثم يصل في نهاية الأمر إلى صياغة مفرداته التي تغذي دراساته النفسية. ولا أعتقد أن هذه المسألة تحتاج إلى نقاش اللهم إلاّ في سياقات العلوم غير الإنسانية، أي (المحضة) التي لا يتحتّم خلال التعامل مع مفرداتها أن نبحث عن الدليل الشرعي أو نقطة الارتكاز في كتاب الله وسنة رسولهﷺ لأنهما ليسا كتباً في الرياضيات أو الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء أو طبقات الأرض، رغم ما يتضمنانه من منظومة خصبة من الحقائق النهائية في هذا المجال. فهاهنا يأخذ التأصيل المعرفي اتجاهات أخرىٰ تتمثل في طرائق التعامل مع النتائج المتمخّضة عن هذه العلوم وفق ضوابط ومعايير إسلامية[1].

وقد نتذكر ـ كذلك ـ ما يحدث في ساحة الأدب الإسلامي: إن الأدباء الإسلاميين ينجزون ـ أحياناً ـ أعمالاً إبداعية في مجال القصة أو الرواية أو القصيدة أو المسرحية يهدمون بمضامينها منظومة القيم الحضارية الغربية المنحرفة عن الصراط، وقد يطرحون بدائل أكثر سلامة، لكن بعضهم لم يحاول أن يقترب أو يشير أو يحدث تماساً ـ بشكل من الأشكال ـ مع مرتكزات الرؤية الإسلامية، لكي يكسبوا التزامهم الأدبي مصداقيته المطلوبة.

صحيح، مرة أخرى، إن كتاب الله وسنة رسولهﷺ ليسا موسوعة علمية، بل إنهما ليسا معطيات معرفية صرفة بمعنىٰ تغطيهما للسياقات الأساسية للمعارف الصرفة والإنسانية، ولكن العلوم أو المعارف (الإنسانية)

---

(1) عالجتُ هذه المسألة بالتفصيل في كتاب: مدخل إلى إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية ـ 1991م.

بالمفهوم الاصطلاحي ما دامت تتعامل مع الإنسان فرداً أو جماعة أو أنشطة مؤسسية أو علاقات دولية.. الخ فإننا سنجد في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام - وبالضرورة - تأسيسات وقواعد وخطوطاً عريضة ومبادىء ومرتكزات تمسّ معظم الأنماط المعرفية التي تعنىٰ بالإنسان، بما أنهما باختصار ووضوح أُطر عقيدة أريد لها أن تعيد صياغة الحياة البشرية وتحدّد موقع الإنسان في العالم وترسم وظيفته الكونية. من ثم فإننا ما لم نستهد بالمؤشرات القرآنية التي توضّحها وتفسّرها الأحاديث النبوية الصحيحة وسوابق الأجيال الأولىٰ من الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم)، فلن نكون قد فعلنا بأكثر من تقديم وجهات نظر قد تكون أكثر موضوعية مما يطرحه (الآخر) لكنها لن تحمل - بالوضوح الكافي وليس بالمباشرة والقسر والتمحّل - شخصيتها الإسلامية وملامحها العقدية التي لا تمنحها مصداقيتها المتميزة فحسب، بل تعطيها حضوراً أكثر فاعلية وتأثيراً في مجرىٰ الصراع، أو إن شئنا: الحوار المحتدم بين الثقافات.

بما أن المعرفة النفسية، كأية معرفة إنسانية: علماً احتمالياً، فإنها قد تنطوي على الخطأ والصواب، ولن ينقذها من هذا المصير سوىٰ جعلها تصدر عن المصدر اليقيني للعلم الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذه إذا أردنا الحق، ضرورة منهجية لا خيار فيها ككل نشاط يسعىٰ إلى إغناء حركة التأصيل المعرفي الإسلامي وتغذيته بمعطيات جديدة.

ربما يدافع الأخ هشام عن موقفه في أن كتابه هو حصيلة قراءة متأنية للأصول الإسلامية مقارنة مع المعطيات الوضعية، ويكفيه - علىٰ الأقل - أن مفرداته تجيء متساوقة مع هذه الأصول، غير متقاطعة معها.

لكن السؤال الذي يظل قائماً يبحث عن جواب: أن تساوقاً كهذا يتطلب «الشاهد» القرآني أو النبوي، فبدونهما يمكن أن يصبّ أي جهد معرفي في دائرة الإسلامية ما دام صاحبه يملك حسن النية ويملك معها

قدرة طيبة على كشف أخطاء الوضعيين وصياغة بدائل مغايرة أكثر انسجاماً مع روح الأسلام!

[5]

هناك ـ أخيراً ـ مشكلة اللغة. . لغة التعامل مع العلوم الإنسانية: أن نمنح عروضنا (العلمية) «جمالية» مناسبة ليس على حساب «العلم» كما يتوهّم البعض، وليس نزوعاً باتجاه «الإنشائية» التي تمارس تبذيراً في اللغة لا يستسيغه البحث العلمي ولا يملك تبريره الكافي. . وإنما باعتماد قدر من الوسائط اللغوية في التعبير الجمالي تمنح البحث انسيابية أكثر، وقدرة أشد على التواصل مع الآخرين، وتنقذه من الجفاء والجفاف والعقم التعبيري، إذا صحّ التعبير. هذا العقم أو الجفاء الذي لا يعني بالضرورة (التركيز العلمي) تماماً كما لا تعني «الجمالية» في حدودها المعقولة نزوعاً إنشائياً هو ضد (العلمية) كما قد يخيّل للبعض.

والمطلوب في الخطاب المعرفي الإنساني قدر من التوازن يحمي الأفكار العلمية من الفضفاضية والترهّل، ولكنه ينقذها، بالأداة اللغوية المناسبة، من الجفاف والعقم والاختزال المبالغ فيه والذي قد يصدم القارىء.

إن المرء ليتذكر هاهنا كيف أن المؤلفات العلمية (الإنسانية) التي لقيت رواجاً أكثر في الغرب هي التي امتلك أصحابها قدرات لغوية متفوّقة، وتقنيات جمالية (ربما تشكلت من خلال خلفيّات ثقافية شاملة) جعلوا من خلالها أشدّ الأفكار عمقاً قديرة، ليس فقط على أن تخاطب الآخرين وتصل إليهم، ولكن أن تقنعهم وتؤثّر فيهم. . ولعل إشكالية التعبير هذه هي التي تجعل، إلى جانب عوامل أخرى، بعض الأعمال تلاقي إقبالاً منقطع النظير بينما ينزوي ويغيب العديد من الأعمال والمؤلفات القيّمة التي لم تحسن التعامل مع اللغة، أو تتفاعل بالنسبة (الذهبية) المطلوبة مع تقنيّاتها وجمالياتها.

في العلم والإيمان

العلم والإيمان في المنظور الإسلامي وجهان لحقيقة واحدة، وهما في كثير من الأحيان يتداخلان بسبب من عمق الوشائج بينهما فيصيران وجهاً متوحداً يصعب القول على المتمعّنين في نسيجه بأن هذه المسألة تعالج قضية العلم وتلك تتعامل مع الإيمان.

حيثما أديرت الكاميرا في رحاب الكون الكبير.. تحت سماء الله الواسعة.. عبر أغوار النفس البشرية.. في مسارب الأرض والجبال والشلالات والأنهار.. جاءت (اللقطة) لكي تمنحنا منظراً مؤثراً.. أو حقيقة مدهشة.. أو كشفاً علمياً، يزيدنا إيماناً على إيماننا.. ونحن نتذكر كيف أن هذا كله من عند الله جل في علاه، خلقاً وإبداعاً واتقاناً وإحكاماً وصيرورة وإمساكاً بالمصائر والمقدرات.. ونتذكر ـ مع هذا ـ وعد القرآن المؤكد بالتكشّف المتواصل لآيات الله في الأنفس والآفاق، وكيف أن مرور الزمن كفيل بتأويل ما لم يحط به الأوّلون علماً فكذبوا به.. والمرء ـ كما هو معروف ـ عدوّ ما جهل.

ومداخل العلم إلى الإيمان كثيرة، تماماً كما أن دروب الإيمان إلى العلم لا تعدّ ولا تحصىٰ..

فثمة الخلق من العدم ابتداء، هذا الذي لم يتأتّ لأحد من العالمين وظل مفتاحه الوحيد، وسيظل بيد الله سبحانه، وقدرته اللامتناهية على

الخلق والإيجاد: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[1] ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله...﴾[2].

وثمة الإبداع والاتقان في الموجودات.. أشياء جامدة كانت أم حيوات ﴿وأتاكم من كل ما سألتموه وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها..﴾[3] ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾[4].

وثمة الإمساك المدهش والتحكم المعجز بالنسب والعلائق بين الأشياء والموجودات، وسوقها إلى مصائرها بتوافق عجيب حيث لا فوضىٰ ولا تناقض ولا ارتطام: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدّرناه منازل حتىٰ عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾[5] ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾[6] ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده أنه كان حليماً غفوراً﴾[7] ﴿والسماء بيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾[8].

---

(1) سورة الكهف، الآية: 109.
(2) سورة لقمان، الآية: 27.
(3) سورة إبراهيم، الآية: 34.
(4) سورة النحل، الآية: 18.
(5) سورة ياسين، الآيات 38 ـ 40.
(6) سورة الحج، الآية: 65.
(7) سورة فاطر، الآية: 41.
(8) سورة الذاريات، الآية: 47.

وثمة الإرهاصات والكشوف القرآنية عن منظومة الحقائق العلمية والمعرفية التي لم يكن بمقدور الجيل المتلقّي يومها أن يعرف عنها شيئاً فضلاً عن إزاحة النقاب عن أسرارها، فيما حدثتنا عن بعض جوانبه دراسات ومؤلفات شتىٰ بما فيها الكتاب الذي يجده القارىء بين يديه.

والمؤمن الحق يجد نفسه دائماً قبالة كتابين كبيرين: كتاب الكون المنظور وكتاب الله المقروء، وهو في الحالين يتعامل مع مقدّرات الخلق الإلهي في حشود من المعطيات لا نفاد لها.

فيوماً بعد يوم يتكشف كتاب الكون الكبير ـ بقوة العلم ـ عن جملة من الحقائق المذهلة في تركيبه ومساره..

ويوماً بعد يوم يتكشف كتاب الله المعجز عن عجائب لا تنقضي، كما وصفه رسول الله ﷺ.

وفي الحالتين.. في السياقين الكبيرين، يجيء الجهد العلمي طائعاً مختاراً لكي يوظف نفسه لحقائق الإيمان، فيدعمها ويجلّيها ويزيدها تكشفاً وألقاً.. ويعجب المرء ـ والحالة هذه ـ كيف كان العلم يوماً عدوّاً للدين، وكيف كان الإيمان يسارع بنفي الكشف المعرفي قبل أن يتأكد لديه أنه ـ أي الكشف ـ إنما هو فرصة ممتازة لدعم الإيمان.

ولكن العجب يزول إذا تذكرنا كيف أن الالتواء الديني في تاريخ أوروبا النصرانية قاد بالضرورة إلى الالتواء العقلي.. والخطأ لا يتمخض إلا عن الخطأ، والضلا يقود إلى المزيد من الضلالات..

في عقيدتنا ليست ثمة خصومة على الإطلاق بين القطبين.. على العكس تماماً.. أخذ أحدهما بيد الآخر ومضيا قدماً إلى الأمام لكي يصنعا حركة علمية قل نظيرها بين الحركات، وأعانا على قيام حضارة لم يكن ثمة قبلها أو بعدها أكثر منها استجابة لأشواق الأنسان وتوافقاً مع مطالبه!

ويتذكر المرء مقولة الباحث والفنان الإنكليزي المعاصر (روم لاندو)

فهي تضع النقاط على الحروف وتنهي كل جدل: «في الإسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقاً معاكسة، لا، والواقع أن الأوّل كان باعثاً من البواعث الرئيسيّة للثاني.. العلم الإسلامي لم ينفصل عن الدين قط. والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية. ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معاً إلى الوجود لا ليحلاّ محل أُلوهية الدين ولكن لتفسيرها عقلياً، لإقامة الدليل عليها وتمجيدها.. إن المسلمين وفقوا، طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائقه، وإنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وإنجاح لا عامل تعويق وإحباط»[1].

ليس هذا فحسب، بل إن العلم والإيمان تجاوزا، بفعل المنظور الإسلامي، ثنائيّتهما وتوحّدا.. أصبحا حالة واحدة وظاهرة متفردة يصير فيها الدينيّ علمياً والعلمي دينياً.. وتغدو فيها تعاليم الله علماً يزجىٰ للإنسان الضائع لكي يقوده إلىٰ الفلاح، والكشف العلمي ديناً يصلّي به صاحبه ويصوم ويتقرّب إلىٰ الله..

ومنذ عقود عديدة أخذت المكتبة الإسلامية وغير الإسلامية، تشهد سيلاً من البحوث والدراسات التي استهدفت البحث في العلاقة المؤكدة بين العلم والإيمان وقد اتخذت تلك البحوث والدراسات مسارات شتىٰ كان المطاف ينتهي بها جميعاً إلى الحقيقة الواحدة التي لا تقبل مماحكة أو لجاجاً: إخوة العلم والدين وانتمائهما إلى الأب الواحد والأم الواحدة.

بعض هذه البحوث من مثل (العلم يدعو للإيمان) لكريسي موريسون[2] و (الله يتجلى في عصر العلم)[3] لثلاثين عالماً متخصصاً، تعاملت مع إبداع الله

---

(1) الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت ـ 1977م، ص 246، 280ـ 281.

(2) ترجمة محمود صالح الفلكي، ط 4، مكتبة النهضة، القاهرة ـ 1962م.

(3) تحرير جون كلوثر مونسما، ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان، ط 3، مؤسسة الحلبي، القاهرة ـ 1968م.

سبحانه في خلقه، واتقان الصنعة في هذا الخلق الذي لا يقدر عليه سوى الله جلّت قدرته، والذي يقود بالضرورة إليه سبحانه..

وبحوث أخرىٰ من مثل تلك التي أنجزها باحثون من داخل الجغرافيا الإسلامية كعبد الرزاق نوفل ومصطفى محمود ووحيد الدين خان، والزنداني والنّجار وغيرهم كثيرون، مضت لكي تكشف النقاب عن الحقائق العلمية التي انطوىٰ عليها القرآن الكريم والتي جاءت كشوف القرنين الأخيرين لكي تؤكدها أو تزيح عنها النقاب.

وثمة مجموعة ثالثة، اختار أصحابها بحكم تخصصهم وإيغالهم في هذا الفرع المعرفي أو ذاك، أن يكتبوا عن المعطى القرآني في سياق علم من العلوم، فإذا بهم يكشفون عن جملة من الأسرار القرآنية المدهشة التي أغنت الأدلة المتفق عليها بخصوص الإعجاز العلمي لكتاب الله.



والباحثان اللذان سيلتقيهما القارىء في الكتاب الذي بين يديه، الأخ الدكتور محمد جميل الحبال والأخ الدكتور مقداد رحمة الله، ممن أوغلوا في الدرب منذ زمن بعيد، وألقوا المحاضرات وكتبوا البحوث والدراسات، ووظفوا أكثر التقنيات حداثة لإغناء بحوثهم وكشوفهم، كلّ في الفرع الذي تخصّص فيه. ولا يزال القارىء يتذكر الكتاب الذي سبق وأن أصدره الدكتور الحبال بالمشاركة مع الدكتور وميض العمري بعنوان: (الموضوعات الطبية في القرآن الكريم)(1) والذي قدم منهجاً لتفسير الإشارات الطبية في الآيات القرآنية.

وها نحن بإزاء ثمرة أخرىٰ ناضجة، طيبة الأكل بعون الله، في زمن غدا فيه الخطاب العلمي واحداً من أكثر الصيغ فاعلية وإقناعاً وقدرة على اختراق جدران الإلحاد والطيش والضلال، من أجل أن تعدّل الوقفة

---

(1) مكتبة الأرقم، الموصل ـ 1995م.

الجانحة، والقناعات الخاطئة، والعقول الملتوية، وتردّها إلى الصواب.

لقد أحصى المؤلفان الآيات العلمية في كتاب الله فإذا بها تبلغ حوالي الـ (1200) آية، أي بنسبة 20% تقريباً من المجموع الكلي لعدد آيات القرآن الكريم والبالغ (6236) آية. وهذه النسبة تحمل دلالتها الواضحة لكل ذي عينين بخصوص الخطاب العلمي للقرآن الكريم، واعتماده من بين وسائط أخرىٰ، لهزّ الضمير البشري الغافل عن الحقيقة الكبرىٰ وردّه إلى الطريق..

وقد صنّف المؤلفان هذه الآيات حسب الموضوعات العلمية التي تنطوي عليها، وهي وفق تسلسل نسبتها: العلوم الطبية والفيزياء والأحياء والفلك والكون والجغرافية والزراعة والرياضيات والإحصاء وعلم طبقات الأرض وعلوم البحار والأنهار ووسائط النقل وأصل الإنسان وبقية المخلوقات والهندسة والكيمياء ولغة الحيوانات.

هناك بطبيعة الحال آيات تكرر ذكرها في موضوعات علمية عديدة لاحتوائها على أكثر من إشارة علمية بلغ عددها حوالي الـ (170) آية.

ولعلّ من أهم ميزات الكتاب الذي بين أيدينا في أن المؤلفين برمجاه حاسوبياً بأقراص تضع المتابع والباحث ـ وبسهولة بالغة ـ قبالة الجداول والإحصاءات والنتائج التي توصّلا إليها.

والملاحظ أن المؤلفين لم يحاولا إدراج الآيات المتعلقة بالعلوم الإنسانية، واكتفيا بما يصطلح عليه بالعلوم الصرفة أو المحضة. ولعل السبب في ذلك (احتمالية) الكشوف التي تمخضت عنها العلوم الإنسانية كعلم النفس أو الاجتماع أو التاريخ أو الآثار.. إلى آخره، حيث تصعب، وقد تستحيل أحياناً، إحالة اليقيني على الظني. وقد يكون السبب انفساح مدىٰ هذه العلوم ـ بحكم ارتباطها بالإنسان والسلوك البشري ـ في كتاب الله. حيث نجد أن الإخبار بالماضي (أي التاريخ) ـ على سبيل المثال ـ يغطي أكثر من نصف القرآن.

ومهما يكن من أمر فإن بمقدور القارىء أن يرجع في هذا الخصوص إلى المقارنات الدقيقة والاستنتاجات القيمة التي توصل إليها الباحث الفرنسي (موريس بوكاي) في كتابه (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم)[1] بصدد المعطيات القرآنية حول عدد من حقول المعرفة الإنسانية مقارنة بالتوراة والإنجيل من جهة وبالمعارف الحديثة من جهة أخرىٰ. ومن بين هذه الاستنتاجات قوله: «لقد أثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية. فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحدّ من الدعاوىٰ الخاصّة بموضوعات شديدة التنوّع ومطابقته تماماً للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نصّ كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً. في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة»[2] وقوله: «بفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث. وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم يكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل.. فإننا نجد نص إنجيل متي يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض»[3] وما يلبث بوكاي أن يتساءل: «كيف يمكن لإنسان ـ كان في بداية أمره أمياً ـ أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكوّنها،

---

(1) دار المعارف، القاهرة ـ 1978 م.

(2) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ص 144.

(3) نفسه ص 13.

وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة؟»[1].

يحدّد المؤلّفان الأهداف التي توخاها كتاب الله من إشاراته العلمية: بتعزيز أركان الإيمان، والسبق العلمي، والإعجاز العلمي، وإظهار عظمة الخالق سبحانه، وبيان نعمه، وهي أهداف تؤدي أكثر من وظيفة يقف في قمتها ولا ريب تأكيد معجزة القرآن، وتفرّد أسماء الله وصفاته جلّ في علاه، هذا إلىٰ جانب إيجاد مناخ أو بيئة «علمية» مناسبة للتفكر والتدبر والنظر والكشف والإبداع، من أجل الإعانة علىٰ تحقيق خلافة الإنسان في الأرض والإفادة من تسخير الكون القريب لمهمته هذه، ووضعه في نهاية الأمر وبدئه قبالة الهدف الأساسي الذي بعث من أجله إلىٰ العالم: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾**[2]. وهي العبادة الشاملة التي تمثل مشروعاً مفتوحاً لمواصلة الصعود بالبشرية إلى أعلى الدرجات، فيما لا تكاد كل النظم والأديان والمذاهب السماوية أو الوضعية، أن تبلغ عشر معشاره، وفيما يؤكده اليوم تساقط تلك النظم والمذاهب وبقاء هذا الدين وحده، بقرآنه المعجز، وبدعوته المؤكدة للالتحام بالحياة والعالم والوجود من أجل مصير أكثر ملاءمة لإنسانية الإنسان.

بارك الله للمؤلفين العالمين جهدهما القيّم هذا، وجعله في ميزان حسناتهما، وأعانهما على تقديم المزيد.

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد؟﴾**[3].

---

(1) نفسه ص 150.

(2) سورة الذاريات 56 ـ 57.

(3) سورة فصلت، الآية: 53.

في الإسراء والمعراج: الدلالات الأساسية

الجدل حول طبيعة الإسراء والمعراج محسوم في فكر الإسلام ووجدان المسلمين منذ اللحظة التاريخية التي أعلن عنهما فيها رسول الله ﷺ . محسوم باتجاه التوحّد الذي يرفض الثنائية والتجزيء والتقطيع والذي جاء هذا الدين لكي يتعامل بميزانه مع الإنسان.

وكل ما أثير بعد لحظة اليقين تلك والمستمد من عجينة الإسلام لا يعدو أن يكون انحرافاً، بدرجة أو أخرىٰ، عن الصراط، رغم سلامة النية وحسن القصد حيناً بعد حين.

لكن يبقىٰ دائماً ما هو أكثر إلحاحاً وإلزاماً من سلامة النية وحسن القصد، تبقىٰ رؤية الإسلام المؤكدة التي يتميز بها عن سائر الرؤىٰ والمعتقدات: إن هذا الدين جاء لكي يتعامل مع الإنسان، وكل ما سيتمخض عنه، كل ما سيعبّر عنه، منبثقاً من نسيجه المتفرد، أو راجعاً إلى مصبّه المتوحد الكبير، لن يكون إلا الالتحام الفذّ بين الروحي والجسدي. . بين الوجدانيّ والعقلي. . بين المغيّب والمنظور.

ولن نكون مسلمين بحق إن خطر على بالنا لحظة أن العالم والكون والوجود ليست سوىٰ وجهاً واحداً. . بُعْداً واحداً، وأن ليس ثمة وراء الوجه أوجه أخرىٰ وأن وراء البعد أبعاد شتىٰ. .

ذلك هو قدرنا كمسلمين، وذلك ـ أيضاً ـ هو تميزنا على سائر أتباع المذاهب والأديان..

❁ ❁ ❁

ينطلق الأخ الأستاذ (أديب الدباغ)[1] باليقين الذي يبلغ في عفويته أن يكون معادلة من الدرجة الرابعة، بما يتضمنه من حيثيات المنطق الصارم والتحليل العقلي المقنع، ينطلق لكي يتعامل مع الحدث الذي هو رغم كل شيء ليس كالأحداث، ينطلق من هذا المنظور المتوحد الذي يرفض التزييف باسم العقلانية نفسها!

إن إسراء رسولنا المعلّم عليه أفضل الصلاة والسلام، ومعراجه من بعد إلى السماء، بعيداً عن الحيثيات المنظورة للزمن والمكان.. بل بمواجهتهما تماماً، لأمر يثير الدهشة، ومن ثم فهو يحتمل المزيد من القول.

ولقد قيل في الحدث ـ فعلاً ـ قولاً كثيراً وكتب فيه بكرة وأصيلاً، ويبقىٰ رغم كل ما قيل وكتب يتطلب المزيد.

فمن بداهة أستاذه (النورسي) الذي طالما قرأ له وتعامل مع كلماته.. من حذقه الفكري، ووجدانه المتألق كالجمر، من رؤيته الإيمانية الكونية للحياة، تلك الي تلمّ في كلٍّ متوحد: الظاهر والباطن، العقل والروح، العلم والوجدان، من هذا كله يمضي (الدباغ) في رحلة مؤثرة مع الحدث، لكي يقدّم، في سياق تأكيده على حسّيته وتوحده، المزيد من الإشارات التي تدعم هذا التأكيد وتزيده ألقاً ووضوحاً..

---

(1) انظر كتاب: البعد الحسّي في الإسراء والمعراج للمؤلف المذكور، شركة الزهراء، الموصل ـ 1988 م.

والذي يقرأ الصفحات العشر أو العشرين التي استجاشتها معطيات (النورسي) في وجدان (الدباغ) يضع يديه بكل تأكيد على أكثر من معْلم، أو مغزىً أو إشارة، قد تعين على فهم أعمق لهذا الحدث المتفرد في تاريخ الرسالات. . وليست هذه التقدمة ـ إذا جازت التسمية ـ سوى قراءة ثانية للحدث من خلال التصوّر الموجز والمتكامل في الوقت نفسه، ذلك الذي عرضه (الدباغ) في صفحاته التي بين أيدينا.



فلسفياً: فإن الحدث يحمل مغزاه الواضح على التوجه الكوني لهذا الدين. . رفض الأسْر في حيّز العالم الضيق والانحسار في فضائه القريب. . الانطلاق بعيداً في المدىٰ حيث تتساقط الحواجز وتذوب الفواصل ولا تكون الأمكنة والأزمنة التي قطّعتها المذاهب والأديان سوىٰ مكاناً واحداً وزماناً موصولاً أريد لهذا الدين أن يضع الإنسان في ساحته الكبرى ويدفع به في مجراه الذي يصل بين الأبدية والخلود.

لقد قالها الفاتحون الذين خرجوا لممارسة مهمتهم التحريرية في العالم: «جئنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها. .».

إن انفكاك رسول الله ﷺ من الارتباط بالأرض ومضيّه صعداً صوب الأعالي، لهو واحد من المؤشرات التي سنتأكد تاريخياً فيما بعد. فلم تكن مهمة المسلم في العالم، ولن تكون، سوى المضي بالإنسان صعداً، وتحريره من كل ما من شأنه أن يصدّه عن أن يكون في حالة تقابل فعّال مع السماوات!

إن المذاهب الوضعية تضع الإنسان حيناً في دائرة الحسّ وحيناً في رغبات الجسد وحيناً في مطالب الجغرافيا أو البيئة أو الطبقة. . ولكن هاهنا، في دائرة الفعل الإسلامي، فإن الإنسان يراد له أن يتحرّر، يُطلب منه أن يتحرر من هذا كله، وذلك بحدّ ذاته كسب لا يعدِله كسب: لأننا

هاهنا سنكون بإزاء الإنسان الكوني الذي يكون كفاء مهمته في العالم وخلافته في الأرض.

❁ ❁ ❁

نفسياً: فإن الوضعيات البشرية والكهنوتيات المحرّفة للأديان، مزّقت الإنسان وأقامت بين أشلائه وتفاريقه الحواجز والأسلاك الشائكة، وكان مردود ذلك، وسيظل، مزيداً من التعاسة والتمزق والشقاء.. أما هنا، حيث يكون الحدث الكبير تأكيداً للتوحد البشري بين الروح والجسد، فإن الوئام النّفسي يبلغ مداه في دين أريد له أن يحمي وحدة ابن آدم من التشتت والتبعثر وأن يدفع بها في قلب العالم أكثر توحداً وسعادة وائتماناً.. وأكثر، بالتالي، قدرة على الفاعلية والعطاء..

❁ ❁ ❁

تاريخياً: فإن المؤلف يلحظ ذلك التوازي الحسي بين تجربتهﷺ على أرض الواقع، وبين رحلته السماوية الفذة.. فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن في التاريخ يقاتل بالأدعية والمأثورات وهو قاعد مستريح ولكنه كان يقاتل بها وهو يتألّم، ويعاني، ويتعذّب، ويطارد، ويقذف بالحجارة، ويجرح بالشوك، وترمىٰ على رأسه الشريف الجزور المتعفّنة! وعندما نادى في لحظات (بدرٍ) الصعبة «اللهم أن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعدها في الأرض أبداً» ما كان ليقولها لو لم يكن سيفه يعمل في رقاب المشركين ويذبح الطاغوت الذي طالما عبد الناس لنفسه من دون الله..

ودعاؤه وهو يتجرّع مرارة الخذلان في الطائف منادياً ربّه «إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي».. يبالي بم؟ بالنصب والعذاب والملاحقة والآلام الحسية التي كان يعيشها لحظة بلحظة وخطوة بخطوة.. إن رحلته هذه إلى السماء، والتي تجيء موازية تماماً لمعاناته في العالم.. في التاريخ.. يتحتّم بالضرورة أن تكون في المساق ذاته.. نسيجها هو هاهنا

كما هو هناك معجوناً من تراب الأرض وشفافية السماء!

❁ ❁ ❁

علمياً.. فإن أحدث النظريات في مجالي التشريح والفيزياء الذرّية علىٰ وجه الخصوص، فضلاً عن فلسفات العلم في أكثر عروضها جدّة وحداثة، تؤكد، أكثر فأكثر، انفتاح المنظور على الغيب، والظاهر على الباطن، وتشير أكثر فأكثر إلى لقاء محتوم، تحقق أو هو في طريقه إلى التحقق، بين الروحي والمادي.. ويكفي أن نقرأ ما كتبه علماء كبار كإينشتين وجينيز وكاريل وسوليفان لكي يتبين لنا هذا.. بل ما هو أكثر من هذا: إن مكوّنات الذرات الخفية التي لا تراها العيون، تملك قدراً من الوعي الحرّ الذي يدفعها إلى التسبيح للخلاّق الذي فطرها.. سبحانه..

وإن هذا الكون في صفحته الظاهرة ليس سوى تعبير مؤكد على عقلٍ مركزي فعّال هو الذي يصمّم ويصنع ويخلق، ويحيل الكتل الصمّاء إلى تصاميم صالحة لاستقبال الحياة، قديرة على إعانة الإنسان على مواصلة سعيه الهادف في هذا العالم.

أفلا يكون إسراء رسولنا عليه السلام ومعراجه إلى السماء، مباركة وتزكية لهذا اللقاء الذي سيقدّر له أن يتكشف بعد قرون من تحقّقه كحدث معجز يصعب تبيّن أبعاده للوهلة الأولى؟؟

❁ ❁ ❁

حضارياً: فإن رحلة رسول الله ﷺ كانت بمثابة اكتشاف كوني للسنن والنواميس الإلهية التي تصنع الأشياء وتسيّر الموجودات وتسوق العالم إلى مصائره وفق أشد الطرق استعصاء على التعامل المسطّح ذي المنظور الأحادي والنزعة المستسلمة التي لا تبحث ولا تنقّب ولا تسعىٰ إلى الكشف والتنقيب عن السرّ المكنون.

إن الفعل الحضاري هو في أساسه ممارسة اكتشافية، وإنه لا حضارة

بدون عقل توّاق للبحث والاكتشاف والتنقيب.. بل، وأقولها متردّداً، بدون مجازفة أو مغامرة كونية.. فإن الحضارات تصنعها، فضلاً عن الكشوف، المغامرات الكبيرة التي لا بدّ أن يضحىٰ من أجلها بالدعة والأمان!

لقد صنع المسلمون، فيما بعد، حضارتهم المتفوقة بكل المقاييس.. ولكن اللبنة الأولى.. حجر الزاوية.. يتحتم أن نبحث عنها هناك.. في كتاب الله وسنة رسوله، وفيما يحدثنا عنه كتاب الله وسنة رسوله من رحلة كهذه الرحلة التي أتيح للرسول عليه السلام أن يكتشف بها المجاهيل.

إنني لأتذكر هنا، ملزماً نفسي بالإيجاز، واحدة فحسب من هذه الاكتشافات حيث يقول الرسولﷺ وهو يتحدث عن سدرة المنتهىٰ «لقد غشيتني ألوان لا أدري ما هي».. وأتذكر معها ما يقوله العالم الأمريكي المعاصر (كريسي موريسون) من أن أجهزتنا الحسيّة، هاهنا في هذا العالم، مهيأة فقط للتعامل مع مقادير محدودة من المرئيات، أما هناك، فإنها قد تمنح بقوة الروح الخالدة مساحة أوسع للاستقبال، فتكون الألوان التي لم يدر رسول اللهﷺ كيف يصفها لأصحابه لأنه لم يجد اللغة التي تنقلها إليهم.

❀ ❀ ❀

أخلاقياً: فإن رسول اللهﷺ ، الصادق الأمين، الذي رفضته قوىٰ الشرك في كل شيء وعلىٰ كل مسار إلاّ في هذه: صدقه المطلق.. إنه ينقل، في أعقاب رحلته المتفردة هذه حدثاً ليس كالأحداث. وكما أن على المرء أن يكون قبالة الله مؤمناً أو كافراً، إذ ليس ثمة من موقف وسط، فإننا هاهنا إزاء هذا الصوت الكوني العائد من الرحلة الكبرى يتحتم أن نكون مؤمنين بصدقه، وإلاّ فإننا، وحاشا لله، لن نظل لحظة واحدة في دائرة الإيمان..

لقد سمي الصديق أبو بكر رضي الله عنه «صدّيقاً» لأنه كان أول من

أدرك المغزى الأخلاقي العميق للخبر العجيب، وكان تعليقه الذي عبّر بدقة بالغة عن هذا البعد، قوله المعروف: إننا كنا نسلّم بخبر السماء يأتيه عن طريق الوحي، أفلا نصدّق بخبر هذه الرحلة التي هي جزئية فحسب من جزئيات الخبر المدهش الكبير؟

ومع الصدق المطلق ثمة ما يحمل قيمته التي لا تقل أهمية في دائرة الأخلاق.. إنها البطولة..

البطولة الفذة الطموحة التي أريد لها أن تتجاوز تحديات العالم صوب الكون وأن تسعىٰ لتغيير التاريخ وإعادة تصميم الحياة بما يجعلها أكثر سعة وتحرّراً وتوحداً وامتداداً..

وإذا كان رسول الله ﷺ قد تلقى، لحظة إسرائه، تذكرة عبور للعالم وصعود للسماوات العليا، فيما منحه الفرح والسعادة بمواجهة، أو فوق، كل الأحزان والمرارات التي حاصرته وعذّبته طويلاً.. فإنها ستظل التذكرة نفسها التي ستعبر بالبشرية كلها تخوم العالم الضيّق إلى الكون، وتمنح الإنسان في كل زمن ومكان، الفرح والسعادة التي تعلو به على الأحزان والمرارات، وتفكّه من أصفاد الحصار والعذاب.. وما أكثرها وأمرّها!!

حول بحث
«الخلود في تراث وادي الرافدين والفكر المعاصر»

[1]

في ختام بحثٍ للأستاذ الدكتور يوسف حبّي، نشر في العدد الرابع (السنة العاشرة) من «آفاق عربية» بعنوان «الخلود في تراث وادي الرافدين والفكر المعاصر»، ترد العبارة التالية «لم يقبل الفكر الأصيل لإنسان الرافدين والإنسان المعاصر، بالمفهوم الفوقي ـ الغيبي، أو الساكن الجامد للحياة والخلود، إنما جاء تأكيده على مفهوم واقعي دايناميِ نابع من العظمة الكامنة أصلاً في الإنسان، مروراً بالعمل الجاد والنضال الإيجابي لتحقيق اسم عظيم هو شخصية وذكر خالد، فهي الحياة في صيرورة، والخلود في تكوين، ما يعني هذا الإنسان»(1).

وبما أن الأديان السماوية ـ عموماً ـ تنزلّت من فوق، كما يدلّ اسمها بوضوح، وتضمّنت ـ بل قامت في أساسها ـ على المعطيات والحقائق الغيبية: الله، الوحي، البعث، الثواب والعقاب، الآخرة... إلىٰ آخره...

---

(1) مجلة آفاق عربية (بغداد)، العدد الرابع، السنة العاشرة (كانون الأول 1984 م) ص 111.

فمعنىٰ هذا أن الباحث المذكور يضع نفسه في معادلة غير مقنعة باعتباره ـ هو نفسه ـ مسؤولاً دينياً كاثوليكياً.

الفكر الأصيل للإنسان هو «نقيض»، وليس «مع» المفهوم الفوقي الغيبي.

والمفهوم الفوقي الغيبي هو مفهوم ساكن، جامد، للحياة والخلود، ليس واقعياً ولا حركياً (ديناميا).

ويستطيع المرء أن يلحظ بوضوح، التزام الباحث ـ وهو رجل دين ـ بالطرف الأول من المعادلة التي أبىٰ إلا أن يجعل فيها الثنائيات تصطرع مع بعضها، أو تتناقض، بدلاً من التساوق والتناغم والانسجام.

الفكر البشري ضد المعطيات الفوقية (السماوية؟).

والمنظور ضد الغيب.

والتحقّق بالخلود في الأرض ضد عقيدة الخلود في الآخرة.

ومن عجب ـ كذلك ـ أن الرجل يناقض نفسه مرة أُخرى؛ فلو أن القارىء رجع قليلاً إلى الوراء، ثلاث فقرات فحسب، لوجد نفسه يلتقي بالعبارة التالية: «أجري استفتاء ـ مؤخراً ـ شارك فيه أشخاص يمثلون كل الفئات العلمية، المثقفة والعادية، ودار السؤال حول الحياة الأخرى، فكان جواب حملة الشهادات العليا على السؤال: (هل تؤمن بالحياة الأخرى؟)، نعم 78%، ربما 8,6%، كلا 4,3% وكان جواب حملة الشهادة الإعدادية: نعم 89%، ربما 35% وجواب حملة الشادة الابتدائية: نعم 71%، ربما 18,8%، كلا 6,6%، وجواب أناس مختلفين من غير حملة الشهادات: نعم 62%، ربما 20,6%، كلا 13,7%»[1].

ورغم أن الباحث لم يشر إلى مصدر هذا الاستفتاء، والهيئة التي

---

(1) نفسه، ص 111.

قامت به، ولا إلى مكانه، فإنه يدعو للثقة ولا ريب. فلقد كان الإيمان بالحياة الأخرىٰ ـ وفق المفهوم الديني المستمد من السماء، من فوق، لا المفهوم الأسطوري المستمدّ من الملاحم السومرية والبابلية ـ بمثابة بديهة من بداهات الأكثريات الواسعة من الناس، على مدار الأزمنة واختلاف الأماكن والبيئات.

وها نحن نجد كيف أن هذه الحقيقة تعبّر عن نفسها بالأرقام عبر شرائح مختلفة، ما بين مثقفين في القمة وأناس عاديين، فتتراوح نسبة الإيمان بين 89% و 62% بينما تتراوح نسبة الرفض بين 13,7% و 4,3%، وهو فارق واضح تماماً.

ليس هذا فحسب، بل إن نسبة الإيمان ـ في الغالب ـ تزداد طرداً مع ارتفاع نسبة الثقافة، كما هو واضح كذلك من ملاحظة الأرقام.

أما التعقيب الذي يعلّق به الباحث على هذا الاستفتاء فهو تناقض آخر يسوق نفسه إليه. إنه يقول «النتيجة جيدة رغم التباسات الطرح وتعقيدات المشكلة، ونحن نعتقد أنها تكون أفضل إيمانياً وإنسانياً، وعلى جميع الأصعدة، لو تمّ تعميق المسألة وفق المفهوم الذي عرضناه هنا»[1].

أي أن يكون الإيمان بالحياة الأخرىٰ على الطريقة الجلجامشية التي يستنتج الرجل أنها تدعو إلى خلودٍ في هذه الحياة.. نوع من خلود الذكر!!

ومن أجل ألا يتهمنا القارىء بتحوير أفكار الرجل، فإننا نحيله إلى ما يقوله، بعد ذلك مباشرة. عبارة ينقلها عن الأديب الإنكليزي (د. هـ. لورانس 1885 ـ 1930) يقول فيها «إن الأحياء منا يطلبون الموت، وخليق بالأحياء أن يطلبوا الحياة»[2]. وهي عبارة تحمل دلالتها الواضحة فيما نحن بصدده، سيّما إذا تذكرنا أن الروائي المعروف كرّس معظم أعماله

(1) نفسه، ص 111.

(2) نفسه، ص 111.

الأدبية للتحقق على مستوى التعبير الجنسي، وكان يمثل ـ بشكل من الأشكال ـ إمتداداً أدبياً لنظرية (التحليل النفسي) لفرويْد. ومعظمنا يذكر عبارته المعروفة «إن ديانتي الكبرى هي الإيمان بأن الدم واللحم أحكم من العقل. فقد تخطىء عقولنا، ولكن ما تشعر به دماؤنا، وتعتقده وتعبر عنه، صادق دائماً»[1].

وذلك هو تناقض آخر يقع فيه الباحث.

ولماذا نذهب بعيداً وهو يقولها بصراحة في آخر فقرة من بحثه «الخلود الحق هو هذا: أن تمرّ بشخص، بشيء، في مكان وزمان وواقع ووجود، فتترك أثراً عميقاً يجعلك تكون حياً فيه إلى الأبد. وبقدر ما يكثر ويكبر الأثر، بقدر ذلك يكون حجم خلودك، فيتحوّل من الذاتي إلى الشخصي، إلى الجماعي، إلى الكوني الشامل»[2].

و «الحياة الأخرى» في الرؤية الدينية تحمل دلالتها الواضحة من الاسم نفسه. حياة أخرى غير هذه الحياة. والرجل يدعو، أو يستنتج حياة أخرى في هذه الحياة.. والفرق واضح.

والذي قاله وآمن به، أولئك الذين استفتوا، كان بكل تأكيد الحياة الأخرى، لأن السؤال الذي طرح عليهم هو «هل تؤمن بالحياة الأخرى؟».

الخلود كما يطرحه الدين، لا الملاحم والأساطير، فكان جواب الأكثرية: نعم **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾**[3].

في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) الذي أشرف على تحريره

---

(1) انظر: فؤاد دوّارة: هكذا كتبوا، ص 203 ـ 211 (الدار المصرية للتأليف، القاهرة ـ 1966).

(2) مجلة آفاق عربية، العدد الرابع، السنة العاشرة، ص 112.

(3) سورة الروم، آية: 30.

(جون كلوفر مونسما)[1] نلتقي بثلاثين من العلماء المتخصّصين في الرياضيات والطبيعة وعلوم الحياة والكيمياء. . إلى آخره، يقولون جميعاً «نعم» لله، والغيب، والدين القادم من فوق. .

و (كريسي موريسون) يصل بنا، عبر رحلة علمية شيقة في كتابه (الإنسان لا يقوم وحده Man Does Not Stand Alone)[2] إلى النتيجة نفسها.

وثمة فرق كبير بين ما يقوله العلم وما تقوله الملاحم والأساطير. . فرق كبير بين ما يقوله المختبر وما يقوله الفلاسفة والأدباء القابعون وراء مكاتبهم. .

ويتساءل المرء: كيف يبيح الأب الدكتور يوسف حبّي لنفسه أن يغلّب الأسطورة على الدين، ويتشبث بصيغة الخلود التي تطرحها ملحمة جلجامش بدلاً من تلك التي يطرحها رسل الله عليهم السلام؟

أهو تناقض آخر؟

مهما يكن من أمر فإنه لا بدّ من وقفة عجلىٰ ـ قدر ما يسمح به المجال ـ عند المفهوم الغيبي الذي يرفضه الباحث عندما يضعه نقيضاً «للفكر الأصيل».

[2]

إن أول ما يطالعنا في القرآن الكريم آيات ثلاث من سورة البقرة تقول: **﴿الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين * الذين يؤمنون**

---

(1) ترجمة د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، الطبعة الثالثة (مؤسسة الحلبي، القاهرة ـ 1968).

(2) ترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان (العلم يدعو للإيمان)، الطبعة الرابعة (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ 1962).

بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون﴾[1].

وهذا يعني ـ بوضوح ـ أن حجر الزاوية في ديننا، وفي كل دين سماوي، هو الإيمان بالغيب، لأن الخالق سبحانه، نفسه، لا تدركه الأبصار فهو من الغيب، ولأن طرائقه في (الوحي) إلى الأنبياء عليهم السلام تنأى عن أجهزتنا وقدراتنا الحسّية، فهي من الغيب. ومن ثم فإن الدعوة إلى التخلّي عن الإيمان بالمفاهيم الغيبية واعتبارها نقائض للفكر الأصيل، إنما هي إنكار للأساس العميق لبنية الفكر الديني ابتداء.

إننا حيث تلفّتنا طالعتنا في القرآن الكريم فقرات ومقاطع وآيات حول مسألة الإيمان بالغيب واعتبارها مصدر التصوّر والسلوك الديني على السواء، فضلاً عن تأكيد القرآن المستمر على أن الغيب من (علم الله) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذي وسع كل شيء علماً **﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾**[2] **﴿ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله﴾**[3] **﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾**[4].

وهكذا يبدو (الغيب) في القرآن الكريم (علماً) إلهياً شاملاً، وضبطاً كلياً لنواميس السماوات والأرض، تلك التي لا يتسنىٰ لأجهزتنا وقدراتنا الحسيّة الإحاطة بها. ويمكن أن نشير هنا إلى أن كلمة (الغيب)، بتصريفاتها المختلفة، وردت في القرآن الكريم أكثر من خمسين مرة.

ونحن لا نستطيع ـ منطقياً ـ أن نرفض قضية ما مجهولة لدينا، أو ننفيها، إلاّ بعد أن يتأكد لنا ذلك بالأدلة (الحسيّة) القاطعة. وهنالك،

---

(1) سورة البقرة، الآيات: 1 ـ 3.

(2) سورة الأنعام، الآية: 59.

(3) سورة هود، الآية: 123.

(4) سورة الجمعة، الآية: 8.

قوانين ووقائع (علمية) لم تهيّأ أجهزتنا الحسية لتلمّسها والتواصل معها بشكل مباشر، فالذبذبات الصوتية التي تتضاءل وتندّ عن مقدرة الإذن على تمييز الأصوات، والأشعة ما فوق البنفسجية التي يستحيل على العين المجردة تمييزها، وغيرهما كثير، (حقائق) لم يتمكن الإنسان من الإحاطة بها إلاّ بعد أن ابتكر من الأجهزة والوسائل ما أعان به قدراته الحسّية على الرؤية والمعرفة، ومع ذلك فإن (غياب) هذه الأصوات والأضواء عن الإدراك المباشر لا يسمح لنا بأن نرفضها باعتبارها أموراً غيبية تندّ عن المعرفة اليقينية المباشرة. وهل ثمة ما يقال بعد ما تبيّن لعلماء الطبيعة، في هذا القرن، أن البنية الأساسية للكون تقوم على (الطاقة) لا (المادة)، وهل يبقىٰ مبرّر للتفريق بين (ما يرىٰ) وما (لا يرىٰ) خلال تنقيبنا في الكون وكشفنا عن قوانينه وأسراره؟

إن التقدم العلمي المذهل في العقود الأخيرة يعرض علينا المسألة في طرفيها: إن قدراتنا العقلية والحسّية ـ من جهة ـ لا تستطيع أن تحيط بالحقيقة المطلقة علماً[1]، وأن (نسبية) المعرفة البشرية ـ من جهة أخرى ـ تفرض الاعتقاد بأنه ليس كل ما لا تراه أجهزتنا ليس بموجود. ومن ثم يبدو أن رفض الغيب بالسهولة التي يمارسها بعض المتعالمين، إنما هو ـ وفق التحليل العلمي نفسه ـ جهالة ترتكب باسم العلم والواقعية.

وإذا كان بعض الفلاسفة والمفكرين الوضعيين قد مارسوا في معالجاتهم ودراساتهم لما (وراء الطبيعة) الكثير من الضبابيات والمثاليات الغيبية (لاحظ ـ مثلاً ـ مثالية هيغل التي وصفت بأنها تمشي على رأسها!)، ووضعوا مذاهب ونظريات ما أنزل الله بها من سلطان، ولا تنسجم بحال مع اليقين العلمي التجريبي، أو الواقع الحركي (الديناميكي) المتطور، فهذا أمرٌ طبيعي لأن وسائل الإنسان الحسّية والحدسية والعقلية،

---

(1) يعد كتابا ألكسيس كاريل (الإنسان ذلك المجهول) Man the Unknown وسوليفان (حدود العلم) Limitation of Science من أحدث ما كتب في هذا السياق.

غير قادرة على خوض عالم غير منظور كهذا، ومن ثم تأتي النتائج غامضة ومعمّاة.

إلاّ أن الخطأ لا يبرّر الخطأ، وما يصدر عن الله الخالق العالم المريد في قضايا الغيب عن طريق الوحي الأمين غير ما يصدر عن الفلاسفة والمفكرين من غموض واضطراب ومثاليات لا رصيد لها في عالم الواقع.

[3]

وهذا ينقلنا إلى السمة الأخرى التي نعت بها الدكتور حبّي المفهوم الغيبي وهي أنه مفهوم «ساكن ـ جامد» ليس واقعياً ولا ديناميأ، لكي ما نلبث أن نضع أيدينا على خطيئة أخرى يمارسها الرجل بحق الغيب، والدين الذي يقوم عليه.

فإذا كان القرآن الكريم قد بنىٰ التصوّر الديني على أساس (الغيب) باعتباره المصدر اليقيني للمعرفة، فإنه أكّد في الوقت نفسه على ضرورة وأهمية (التجريب)، واعتماد (الحواس)، وتعميق صلة (العقل) بما حوله في حقول النفس والطبيعة والحياة والكون القريب، لاكتشافها وتسخيرها لخدمة الحضارة البشرية ورقيّها. ونحن نجد هذه (المسؤولية) الملقاة على عاتق العقل والحواس في الآية **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد، كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾**[1]. وهناك ما يزيد على خمسين وسبعمائة آية ـ على وجه التقريب ـ دعت المؤمنين إلى ضرورة اعتماد الطاقات الحسّية والعقلية والتجريبية لاكتشاف قوانين الطبيعة والحياة وتسخيرها لخدمة الإنسان.

إن تأكيد القرآن الكريم على الإيمان (بالغيب) لم يمنعه من التأكيد على التجريب والاختبار والنشاط العقلي والممارسة الواقعية.. بل على

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 36.

العكس. . يتساوق معه، يوازيه، ويعتمده في تعميق الإيمان بالغيب كتفسير يقيني للوجود بما فيه من دقة وضبط وتوافق ونظام.

يؤكد هذا أن ما طرحه القرآن الكريم حول بعض القوانين والسنن الكونية من معطيات (في حقول الحياة والطبيعة والفلك. . إلىٰ آخره) جاءت النظريات العلمية ـ أخيراً ـ لكي تعززها وتوضّح أبعادها التي خفيت على أفهام أجيال كثيرة في الماضي، وهذا هو مصداق الآية الكريمة **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق، وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك إنه على كل شيء شهيد؟﴾**[1].

والتحقّق الذي تشير إليه الآية القرآنية، تؤكده وتشهد به آخر معطيات العلم، والاستنتاجات التي تقوم عليها، وهي كثيرة متنوعة، ويكفي هاهنا أن نشير إلى واحدة منها فحسب تكسب أهميتها من كونها تجيء من خارج دائرة الإسلام. شهادة الباحث الفرنسي المعاصر (موريس بوكاي) الذي قضى شطراً من عمره يدرس الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة.

إنه يقول «إن الإسلام قد اعتبر دائماً. . إن هناك اتفاقاً بين معطيات الكتاب المقدس والواقع العلمي، وإن دراسة نصّ القرآن في العصر الحديث لم تكشف عن الحاجة إلى إعادة النظر في هذا. وسوف نرىٰ فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية، وهي وقائع كثيرة جداً، خلافاً لقلّتها في التوراة، إذ ليس هناك أي وجه للمقارنة بين القليل جداً لما أثارته التوراة من الأمور ذات الصفة العلمية، وبين تعدّد وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية في القرآن، وأنه لا يتناقض موضوع ما من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية. وتلك هي النتيجة الأساسية التي تخرج بها دراستنا.

«لقد قمتُ أولاً بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أي فكر مسبق

---

(1) سورة فصّلت، آية: 53.

وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث»[1].

[4]

ليس ثمة موقف وسط، فإما أن نكون (ملحدين) نصدر في تفكيرنا وممارساتنا عن وجهة نظر، أو فلسفة، مادية صرفة لا تتجاوز القيم المرئية إلى ما وراء العيان، وتكفر بعالم (الغيب)، وترفض، بالتالي، (الوحي) كمصدر للمعرفة البشرية؛ وهذا ما لا يمكن في بلاد عاشت تجربة الإيمان والتوازن بين قيم الحضور والغياب، والمادة والروح، والوحي والتجريب، أربعة عشر قرناً، وأصبح ذلك جزء من تاريخها وحضارتها ووجودها. وإما أن نكون منسجمين مع هذا التاريخ والحضارة والوجود فنصدر عن رؤية شاملة وموقف كلّي يوحّد بين الطبيعة وما وراءها، وبين الوحي والعقل والحس. . وأخيراً بين دوام الذكر في الدنيا والخلود في الآخرة، حيث لا تعارض ـ أساساً ـ بين الطرفين.

---

(1) موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص 11 ـ 12، 13 (دار المعارف، القاهرة ـ 1977).

فهل ثبت أنه ليس من وضعهم؟!
حول بروتوكولات حكماء صهيون

[1]

بعد سنة كاملة من صدوره، أتيح لي أن اطلع على العدد الثالث والأربعين من «الأمة» الصادر في نيسان عام 1984 م. ولسوء حظي فإنني لا اطلع، عبر كل سنة من سنوات المجلة التي تتضمن اثني عشر عدداً سوى على عددين أو ثلاثة!

تصفحت العدد المذكور فوجدتني في الصفحة الثالثة والعشرين أمام «قضية للمناقشة» آثارها الأخ الفاضل الأستاذ عارف عطاري حول مقال، أو خاطرة بعبارة أدقّ، كنت قد نشرتها في العدد الحادي والأربعين من «الأمة» بعنوان «بروتوكولات حكماء صهيون مرة أخرىٰ» ضمن سلسلة من الخواطر بعنوان «حتى يتبين لهم أنه الحق».

ينطلق الأستاذ عطاري من التساؤل التالي «إلى أي مدى يمكن الاعتماد على بروتوكولات حكماء صهيون كمرجع؟».

سؤال في محله تماماً، وفرصة طيبة يثيرها لمناقشة متأنية لواحدة من المسائل المهمة في الثقافة والتاريخ المعاصر. ومن يدري فقد يقدم قناعات مقبولة تجعل المرء يتراجع عن رأيه ويتحقق بفضيلة الإنابة إلى الصواب.

قرأت المقال مرة ومرتين وثلاثاً، لكنني ـ للأسف ـ لم أعثر على القناعة التي كنت أتمناها.

يقول الرجل «..إنه لم يثبت علمياً أن هذا الكتاب (أي البروتوكولات) من وضع اليهود أو حكمائهم».

فهل ثبت علمياً أنه ليس من وضعهم؟

الأستاذ عطاري لا يجيب، ولكنه يعتبر إنكار اليهود للكتاب طعناً في نسبته إليهم، ويجرده ـ بالتالي ـ من صفته المرجعية، ويطعن في قيمة الأبحاث والنتائج التي ترتكز عليه.

أي أن اليهود ما داموا قد أنكروه فإن علينا أن نشك في قيمته! وبما أنه ليس كتاباً في الفيزياء أو الجغرافية الاقتصادية، ولكن في استراتيجية التخريب اليهودي المعروف، فإن ما يقوله اليهود أنفسهم فيه ليس حكماً بحال من الأحوال، ولسنا ملزمين في الأخذ به.

ويبدو أن الرجل لم يطمئن إلى سلامة استنتاجه، لذا نراه يسارع إلى القول أن «هذا الطعن لا ينفي احتمال أنه قد يكون من وضع اليهود، ولكن فرق كبير بين الاحتمال والثبات، الاحتمال لا يسمح باستخدامه مرجعاً رئيساً».

يعود مرة أخرىٰ إلى تشبث اليهود بنفي نسبة الكتاب إليهم وأن خصومهم الاسلاميين هم الذين ألصقوه بهم، ويعتبر هذا التشبث «المضلّل» احتمالاً وارداً ينفي عن الكتاب صفته كمرجع.

باختصار.. أن الرجل لم يستطع أن يحدّد علمياً هل أن الكتاب من وضع اليهود أم أنه ليس من وضعهم؟ لكنه ما يلبث، في نهاية الأمر، أن يميل إلى كونه من وضعهم، فيقول «إن البروتوكولات، حتى على افتراض نسبتها لليهود، ليست محاضر جلسات لما يسمىٰ بالحكومة الخفية السرّية اليهودية التي تدير العالم كما هو شائع، بل هي محاضرات ألقاها يهودي

يعتقد أنه (مونتيغوري) على ثلاث جلسات وتحدث فيها عن الأساليب التي تمكن اليهود من السيطرة على العالم».

فالخلاف إذن لا ينصبّ على كون الكتاب من صنع اليهود أم لا، ولكنه ينحرف باتجاه «الصيغة» أو «الأسلوب» الذي أخرجه به العقل اليهودي، وهي مسألة لا تكاد تمس جوهر الموضوع، أي توثيق الكتاب.

فسواء جاء وضعه على يد حكيم أو شيخ يهودي واحد هو (مونتيغوري) أو مجموعة حكماء أو شيوخ، وسواء تمت صياغته على شكل مقررات سرية أم محاضرات علنية، فإنه لا يعدو في كل الأحوال أن يكون تخطيطاً يهودياً[1].

هذا «التخطيط» الذي لم أغفل في خاطرتي الموجزة تلك عن أنه قد يكون «صيغة من صيغ الحرب النفسية»، أو «حلم»، أو «تخيّل لما يتمنىٰ اليهود تحقيقه بأي أسلوب»، لكنني لم أغفل أيضاً التطابق العجيب بين مضامينه وبين معطيات الواقع المشهود.

[2]

مهما يكن من أمر، فإنه لما كانت العبرة بالنتائج، كما هو معروف، وكانت القرينة تستمدّ قوتها من المعطيات المنظورة والمؤكدة، فإن المرء يميل إلى الاستنتاج الأول، أي أنه من وضعهم، ما دام أن حشود الممارسات والتجارب والسياسات المعاصرة، تجيء منطبقة بشكل ملحوظ

---

(1) للاطلاع على تفاصيل الحيثيات التوثيقية للبروتوكولات يمكن الرجوع إلى الدراسة التي قدم بها مترجم الكتاب الأستاذ محمد خليفة التونسي للبروتوكولات، وبخاصة الصفحات 33 ـ 54 (الطبعة الرابعة، دار الكتاب العربي، بيروت ـ 1961) والجزء الأول من كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) للأستاذ عجاج نويهض، ط 2، منشورات فلسطين، بيروت ـ 1980.

على مقررات ذلك الكتاب الذي يجب إلاّ نتوهم فيه قوة سحرية أو عجائبية، كما يريدنا الأستاذ عطاري أن نتوهم؛ ولكن كأي «محضر» سرّي أو علني، من بين مئات المحاضر التي رسم حيثياتها المؤتمرون: الاستعماريون الصليبيون حيناً، الشيوعيون الملحدون حيناً آخر، واليهود المخرّبون حيناً ثالثاً؛ وجاءت الوقائع لكي تؤكد أن ما يجري، في هذه السياقات الثلاثة، ليس صدفة أو إرتجالاً، ولكنه عمل مبرمج مرسوم، وأن علينا كي نجابه «المحنة» ونتفوق عليها، أن نعرف أبعادها جيداً، ونخبر نسيجها بشكل دقيق، وأن نخطط ونبرمج نحن كذلك لكي نردّ على التحدّي باستجابة تكون على المستوى المطلوب فتحقق النجاح.

فليس كما يتصور الرجل، أن الاعتماد على (البروتوكولات) يقود إلى هزيمة نفسية، أو توهم أشباح غير مرئية، أو الاعتقاد بأن اليهود قوة لا تغلب!

[3]

إن المزايدة على مصائر أمتنا التي أرهقها البلاء، بتخويفها من الخصم وتعجيزها عن مجابهته، حرام.. وحرام ـ كذلك ـ أن نسوقها إلى دفن رأسها بالرمال، مطمئنين إياها أنه ليس ما يحاك ضدها في الخفاء، وأنه لا مؤتمرات سرية، ولا مقررات علنية، ولا بروتوكولات.

وأن أي حديث في هذا المجال، واعتماد لمراجع من هذا القبيل إنما هو ترويج لمعطيات حرب نفسية قد تصيبنا بالشلل، وتضع بيد الخصم السلاح الذي يقتلنا به.

إن المرء ليتذكر ـ ها هنا ـ ما قاله الأستاذ محمد خليفة التونسي، في تقديمه للترجمة العربية للبروتوكولات، مع اطّراح المفردات التي اعتمدها الرجل والتي تتميز بقسوة لا تنسجم والنقاش الهادىء الرصين، رغم أن الأستاذ عطاري انزلق ـ للأسف ـ صوب بعض منها، من مثل «الكسل

الفكري الذي يريح صاحبه من البحث وراء الأسباب»، «الحالة المرضية التي تبرر الفشل والقصور والتقاعس»، «النزعة التعجيزية التي تؤدي إلى الاستسلام»، «الهوس»، «علبة الهندسة»... الخ. «وهكذا ـ يقول الأستاذ التونسي ـ يظهر لنا.... والتهافت في المؤاخذة التي يعقب بها النقاد المتعجلون على نقل البروتوكولات بين اللغات، ونشرها بين الأمم، ليحذّروها الخطر اليهودي، مع أن هذا النشر والتحذير واجب حتمٌ على كل من استطاعه بقوّته وأمانته وفرصته. وهذا النوع من المؤاخذات... المتهافتة التي ينزلق إليها الفكر الضيّق... بلاء قديم أيضاً في تاريخ البشر، فعندما نشر أديبنا الجاحظ قبل أحد عشر قرناً كتابه (حيل اللصوص) آخذه بعض معاصريه وتابعيهم بين أعدائه.. بأنه يروّج هذه الحيل فيعلّم السرقة ويغري بها، كأنهم لم يفطنوا إلى حقيقة لا خفاء فيها على نظر بريء من الغرض، هي أن الجاحظ أراد من كشف هذه الحيل تحذير الناس من الوقوع فيها، وتبصيرهم بها، حتى لا تكون أموالهم وأرواحهم نهباً يسيراً للمحتالين. وكذلك اتهموه بتعليم التجار الغش وإغرائهم به حين كتب يكشف وسائل غش السلع، ولم يكن الرجل في هذه التهم إلا مظلوماً في نيّته ونتيجة عمله معاً، فإن عدد الأشرار من اللصوص وغششة التجار لم يزد واحداً بعد انتشار كتب الجاحظ في حيل اللصوص وغش التجارة، بل نقص عدد المخدوعين كثيراً»[1].

طبعاً، فإن خاطرة «صحفية» كالتي وردت في مقالي آنف الذكر، تستهدف إحالة بعض الممارسات والخبرات «اليهودية» المنظورة، على جذورها في مقررات وخطط اليهود السرّية والمعلنة، من خلال قرائن نوعية واضحة، أمرٌ لا يحتاج إلى قائمة طويلة من التوثيقات لكي تصحّ المقارنة، فهي ليست أمراً تعسّفياً أو اعتباطياً، كما يتصور الرجل، ولكنه واقع

(1) المرجع السابق ص 85 ـ 86.

مشهود: منظمة يهودية، تعتمد صيغ الدمار الخلقي، لاستعباد الساسة والمتنفذين وتسخيرهم لخدمة أهدافها.

إن هذا يحدث كل يوم، ليس على أيدي اليهود وحدهم، ولكن على أيدي خصومنا جميعاً، بما فيها المؤسسات الكنسية التي اعتمدت الأسلوب نفسه.

كما أنه ليس أمراً تعسّفياً أو اعتباطياً، كما يتصور الرجل، أن يحكم اليهود سيطرتهم على مساحات واسعة من النشاط الإعلامي، دون أن يربط المرء بين ذلك وبين خططهم التي سبق وأن اتفقوا عليها في البروتوكولات وفي غير البروتوكولات لتحقيق هذا الغرض الحيوي. ولنضرب على ذلك مثلاً، فحتى عام 1984 أصبح اليهود يمتلكون 244 صحيفة في الولايات المتحدة و 30 دورية في كندا و 118 صحيفة في أمريكا اللاتينية و 348 صحيفة في أوروبا بجميع اللغات الأوروبية و 3 صحف في الهند و 5 دوريات في تركيا و 42 دورية في أفريقيا. كما تشير بعض الإحصاءات إلى أن أكثر من 90% من مجموع العاملين في الحقل السينمائي الأمريكي إنتاجاً وإخراجاً وتمثيلاً وتصويراً ومونتاجاً، من اليهود[1].

والعبرة، مرة أخرى، بالنتائج، ما دمنا بصدد تعزيز القيم الوعيية والعقيدية والتربوية. يقول الصحفي الإنكليزي شسترتون Chesterton في مناقشته للكاتب الإسرائيلي لفتوتش Leftwich بصدد تأكيد الواقع المفهوم من البروتوكولات: «إن لسان الحال أصدق من لسان المقال، وأن مشيخة صهيون أو حكماء صهيون قد يكون لهم وجود تاريخي صحيح، أو يكونون جميعاً من خلق التصور والخيال، ولكن الحقيقة الموجودة التي لا شك فيها أن النفوذ الذي يحاولونه ويصلون إليه قائم ملموس الوقائع والآثار.. ويبدو لي أن البروتوكولات تستوي روحياً على نفس القاعدة التي استوت

---

(1) انظر مجلة الأمة، العدد الخامس والأربعين، حزيران 1984، ص 53، 61.

عليها فقرات من كتاب التلمود تنزع إلى رسم العلاقات التي يلتزمها اليهود مع عالم الأمم أو الغرباء..»[1].

ويعقب الأستاذ العقاد (رحمه الله) بقوله: «نستطيع نحن أن نضيف إلى قول شسترتون أقوالاً كثيرة من قبيلها وفي مثل معناها واستدلالها، فهذا الدولاب الهائل الذي دار على حين فجأة من الآستانة إلى أمريكا إلى أفريقيا الجنوبية لتنفيذ البروتوكولات شاهد من شواهد العصبة العالمية التي تعمل باتفاق في الغاية، إن لم تعمل باتفاق في التدبير..»[2].

إن البروتوكولات، مهما تكن ملابساتها الزمنية والمكانية، تمثل على مستوى «الموضوع» سياقاً طبيعياً مقبولاً لسياسات يهود في العالم، منذ بدء انحرافهم عن المسار التوحيدي الصحيح حتى اللحظات الراهنة، مع ازدياد هذه السياسات خبثاً وانحرافاً، بتراكم الخبرة التخريبية، وأن قراءة التلمود وبالمقابل متابعة المعطيات القرآنية التي خصّصت السور والمقاطع والآيات، بمساحات ملفتة للنظر، للحديث عن يهود، والتحذير منهم، والكشف عن خططهم، تكفي للتأكد من ذلك. وإنني لأذكر هنا ـ على سبيل المقارنة ـ اعتراض أحد الأساتذة (الآثاريين) على إلحاح القرآن الكريم في الحديث عن اليهود. «إن القرآن ـ قال الرجل ـ لا يفعل بذلك سوى أن يخدم اليهود دعائياً، ويؤكد ادّعاءهم بكونهم شعب الله المختار، ويضخّم دورهم أكبر بكثير من حجمه الحقيقي!».

ثم إن الخاطرة «المذكورة» لا تعزّز «النزعة التعجيزية» كما يستنتج الأستاذ عطاري، أيضاً، لأن حصيلتها واضحة لكل ذي عينين: أن ترسانة الإيمان التي يتحصن بها «المسلم» هي الجدار الوحيد الذي يتأبىٰ على محاولات الاختراق اليهودي، وغير اليهودي بطبيعة الحال، من أجل ألاّ

---

(1) بروتوكولات حكماء صهيون، المقدمة ص 14 ـ 15.

(2) المرجع السابق ص 15.

يفرّط هذا «المسلم» بما يعطيه القدرة على المقاومة، والتفوّق، رغم محاولات عاتية، جرت ولا تزال، ومن غير اليهود كذلك!، لتدمير هذه القدرة!

أهي دعوة للتحدّي بالإيمان، أم التعجيز بالفرار والخذلان؟!

[5]

والأستاذ عطاري لم يأت بجديد بصدد أن الهيمنة الصهيونية ليست حتمية مقفلة، أو تحدياً تستحيل الاستجابة له (مع تنبيهه المناسب إلى خطورة الإنزلاق في الخط النقيضي من التفكير والذي يهوّن من شأن إسرائيل والنفوذ اليهودي والصهيوني العالمي، لأن هذا النمط خطيرٌ أيضاً وله عواقب وخيمة). لقد سبق وأن أشرت إلى هذا مراراً وأكدته تكراراً[1]. لقد انتصرنا على اليهود أكثر من مرة، في الماضي والحاضر، وسننتصر عليهم مستقبلاً بإذن الله، بمجرد أن نعدّ العدة ونستكمل الشروط، ومن بين هذه الشروط أن نعرفهم جيداً، ونخبر خططهم وأساليبهم في العمل لكي نتحرك ونحن على بيّنة من الأمر.

إن النظرة أحادية الجانب تمثل ولا ريب واحدة من أشد الثغرات عمقاً في منهج البحث، ومن أجل تجاوز هذه الخطيئة يتحتم علينا ألاّ نتصوّر الخطر اليهودي قدراً تراجيدياً لا فكاك منه ولا قدرة على مجابهته والتغلّب عليه؛ وألاّ نتصوّر ـ في الوقت نفسه ـ أن ليس ثمة خطط سرية، ومؤامرات تحاك بليل، ضد عقيدتنا ووجودنا، مهما كانت أسماء تلك الخطط والمؤامرات، فالعبرة بالمسمّيات نفسها.

إن معطيات سياسات الوفاق الدولي بين المعسكرين الكبيرين، على مستوى التنفيذ، وكتاب مايلز كوبلاند المعروف (لعبة الأمم) على مستوى التنظير، ليقدمان لنا يوماً بعد يوم، وغيرهما كثير، تأكيداً لهذه المقولة:

---

(1) يمكن الرجوع إلى كتاب «أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار» للمؤلف.

التخطيط الذي تُرسم ملامحه بدقة متناهية وراء الكواليس، والذي يقدم لنا مفاتيح الدمار الذي لا يزال يحيق بنا، يعبث بطاقاتنا البشرية، باقتصادياتنا وبمصائرنا العقيدية والسياسية والثقافية، وكل إنكار لهذا وادّعاء بغيره إنما يحرمنا من فرص الرؤية الأكثر وضوحاً ونفاذاً، والتي نحن بأمس الحاجة إليها، رغم الهزة النفسية التي قد تحدثها، ولكنها الهزة التي تعقب استعداداً أكثر وعياً لما يجري، وأشد تحصّناً إزاء عوامل التفكيك والتدمير.

وهكذا، وحيث لم يثبت علمياً كون البروتوكولات من وضع اليهود، ولم يثبت علمياً كذلك، كونها ليست من وضعهم، فإن القرينة التي تميل بها إلى الاستنتاج الإيجابي، وهي التطابق الذي يكرر نفسه بين معطياتها وبين الواقع، تجعل المرء يميل إلى توظيفها، كنموذج من بين نماذج عديدة أخرى للعقل اليهودي لكي يحذّر منها ويستفزّ روح التحدي في الوقت نفسه. إن نفيها من الحساب ليس موقفاً علمياً، كما أنه ليس ضرورة عقيدية أو حتى نفسية.

[6]

ومن قبيل ردّ الفعل، وتجاهل معطيات الواقع المنظور، تصوّر الأستاذ عطّاري أن الولايات المتحدة الأمريكية ليست خاضعة تماماً لليهود وأن هذا القول «فيه مبالغة». «فهناك رؤساء في الولايات المتحدة وصلوا إلى الرئاسة بدون أصوات اليهود، وهناك رؤساء أمريكيون تحدّوا النفوذ اليهودي، وهناك قوى كثيرة في الولايات المتحدة وخارجها غير خاضعة لهم». وعندما يتساءل «لكن حتى أولئك الرؤساء لم يتخلوا عن إسرائيل» ويجد نفسه أمام حقيقة واضحة تماماً للعيان، يسوق الجواب باتجاه معاكس تماماً، فيجعل إسرائيل «رصيداً غربياً» و «استثماراً أمريكياً»، بل أنه لا يتردد عن جعلها «ولاية أمريكية».

هل يتسع المجال المحدود هنا لردّ هذه المقولة بسيلٍ من الشواهد

التي تؤكد «الإنسياق الأمريكي» وراء المصلحة والاستراتيجية اليهودية بدءً من القمة: انتخابات الرئاسة وعضوية الكونگرس، ونزولاً باتجاه المؤسسة والإعلام والثقافة والمجتمع؟ ولا زلنا نذكر الأمريكيين «المخلصين» الذين تساقطوا ضحايا لهذا الإنسياق، ولا زلنا نرى هيمنة اليهود على الكونگرس صاحب القرار الأمريكي، ولا زلنا نتذكر تصريحات رونالد ريگان في حملته الثانية لانتخابات الرئاسة.

وعلى سبيل المثال فإن «تقرير المراقبين لسير الحملات الانتخابية للرئاسة الأمريكية تشير إلى أنه على الرغم من أن الولايات المتحدة تحتفظ بعلاقات متميزة منذ 36 عاماً مع إسرائيل، إلا أنه لم يسبق لإدارة أمريكية أن أرسلت جنودها لدعم إسرائيل في حروبها ضد البلدان العربية، إلى أن جاءت إدارة ريجان فأحدثت تغييراً مفاجئاً في تلك السياسة، بفعل اتفاق التعاون الاستراتيجي بين الولايات المتحدة وإسرائيل. وتضيف التقارير أن الذين اقترحوا الإجراءات الأخيرة لدعم إسرائيل أشخاص من اليهود يعملون داخل الإدارة الأمريكية ويحتلون مراكز في البنتاجون ووزارة الخارجية والكونجرس والبيت الأبيض، بالإضافة إلى الوضع الذي لم يعد خافياً وهو أن اليهود يتحكمون فعلياً في سير الانتخابات الأمريكية بواسطة سيطرتهم على مسائل الدعاية والإعلام هناك، وبقوة نفوذ المؤسسات المالية اليهودية الكبرىٰ والمرشحون للرئاسة الأمريكية (12 مرشحاً) ومنهم ريجان يتبارون في إعلان دعمهم وتأييدهم لإسرائيل وسياستها في المنطقة. وفي سعيه لضمان إعادة انتخابه صرح ريجان أمام حشد من اليهود الأمريكيين ـ يصوتون في العادة لصالح الديمقراطيين ـ بقوله: إن الروابط بين شعبينا تزداد متانة ويجب ألا تنقطع أبداً. وإن سعي إسرائيل من أجل الأمن والسلام (!) في خطر مستمر من قبل الذين يدفعهم الحقد والعنف.. ولإسرائيل صديق هو الولايات المتحدة، والأصدقاء المخلصون يقفون دائماً متحدين»[1].

---

(1) مجلة الأمة، العدد السابع والأربعين، آب 1984، ص 87.

إن تصريحات كهذه، وما أكثرها عبر العقود الأخيرة، حتى لو كانت تستهدف اللعب على اليهود، أو استغلالهم، للحصول على المزيد من الأصوات، فإنها تحمل مغزاها لأنها تستهدف ولا ريب استمالة مركز للقوى يلعب دوره الحاسم في رسم سياسات أمريكا والتخطيط لمصائرها.

وفي سياق هذا التخطيط الذي لا ينسجم والمصلحة الأمريكية، بل يتناقض معها ـ أحياناً ـ من أجل مصلحة إسرائيل، ويردّ بالتالي مقولة أن إسرائيل ولاية أمريكية، ما ذكرته الهيرالد تربيون من أن «السياسة الأمريكية بانحيازها الأعمى لإسرائيل عمقت العداء بين العرب وأمريكا مما سوف يؤدي إلى أعمال ضد المصالح الأمريكية أكثر مما كان في الماضي.. وهناك قناعات راسخة لدى الإنسان العربي بأن الولايات المتحدة كانت وراء الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982 م. كذلك فإن الموقف الأمريكي غير المبالي تجاه الممارسات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة، وتوقيع واشنطون معاهدة التحالف الاستراتيجي مع إسرائيل، قد قوّض أسس (النزاهة الأمريكية) وكان من شأن ذلك أيضاً أن أضعف نفوذ أصدقاء الولايات المتحدة في بلادهم وفي المنطقة ككل. إن للولايات المتحدة مصالحها في المنطقة، وأن المحافظة على هذه المصالح تتطلب تغيير المسار الحالي للسياسة الأمريكية»[1].

ترىٰ هل ثمة ضرورة لإيراد المزيد من الشواهد؟ وها هي صرخة النائب اللبناني ريمون إده لا تزال تطرق أسماعنا «... أمريكا باعت نفسها وروحها وعقلها لإسرائيل.. إسرائيل هي التي تقرر وأمريكا هي التي تنفذ؟»[2].

---

(1) المرجع السابق، ص 93.

(2) المرجع السابق، العدد الحادي والخمسين، كانون الأول 1984، ص 64، وانظر ـ كذلك ـ العدد الثالث والخمسين، شباط 1985، ص 88، العدد الثالث والثلاثين، حزيران 1983، ص 85، العدد الثامن والثلاثين، تشرين الثاني=

إن المنظور الماركسي نفسه، والذي يرى في إسرئيل امتداداً رأسمالياً امبريالياً للغرب، يسقط بالممارسة الماركسية نفسها، تلك التي أعانت إسرائيل على القيام، قبل غيرها، وأمدتها، ولا تزال، بالطاقات البشرية والخبرات، وغلّت أيدي العرب عن أن تضرب اليهود بسلاح روسي ضربة موجعة حقاً.

ثم أننا لو اعتمدنا منطق الأستاذ عطاري في «التخويف» و «التعجيز» لقلنا أنه باستنتاجه هذا يمارس الخطيئة نفسها.. فما دامت إسرائيل «ولاية أمريكية»، فمن يجرؤ على إعلان الحرب ضد أمريكا؟

أليس هذا ما قيل في حرب حزيران لتبرير الهزيمة النكراء؟!

= 1983، ص 85. ويمكن التذكير ـ كذلك ـ بالمعطيات التي شهدتها السنوات التي أعقبت كتابة هذا المقال والتي راحت تزداد كثافة سنة بعد أخرى. وسنكتفي ـ توخياً للإيجاز ـ بإيراد اثنتين منها، أولاهما تصريح (لي هاملتون) رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الأمريكي حول أنه «لا توجد جماعة أخرى متنفذة في السياسة الأمريكية مثل اللوبي الإسرائيلي، إذ أنها تحتل مركزاً لا ينازعها فيه أحد».

وأما الثانية فهي ما وصفت به صحيفة (كريستيان ساينس مونيتر) الأمريكية نفوذ اللوبي الإسرائيلي في الأوساط الأمريكية من أنه «نفوذ لا يجارىٰ» وقد أشارت الصحيفة في معرض تقرير نشرته عن «العلاقة المتميزة بين الولايات المتحدة وإسرائيل» وتأثير اللوبي الإسرائيلي على مصادر القرار في السياسة الأمريكية، إلى حوادث «أثبت فيها اللوبي أنه يستطيع الحصول على موافقة الكونغرس على ما تريده إسرائيل من مساعدات بسهولة تدهش حتى المسؤولين في الحكومة الأمريكية»!

الخطاب اليهودي بين الماضي والحاضر
دراسة تحليلية نقدية في ضوء القرآن الكريم

للدكتور زياد حماد عليان الحسنات

على مدى أشهر معدودات ينجز اثنان من الباحثين الفلسطينيين رسالتين للدكتوراه في جامعة بغداد ترتبطان بشكل أو آخر بطبيعة العلاقة بين المسلم واليهودي على مستوى التاريخ، وبين الإسلام واليهودي على مستوى الصراع العقدي والمصيري.

وهي ظاهرة إيجابية تعد بالكثير، فمن جرّب ليس كمن لم يجرّب.. صحيح أننا كأمة مسلمة اكتوينا جميعاً بنار الصهيونية وعدوانية إسرائيل، ولكن (الفلسطيني) بالذات أدرىٰ بشعابه، كما يقول المثل المعروف، ومن ثم فلا عجب أن تحظى الرسالتان بتقدير «الامتياز» وأن يكون الباحثان فرسيْ رهان عرفا كيف يواصلان سعيهما الصبور لكي يقدّما عملين يستحقان كل تقدير.

كانت الرسالة الأولى عن «اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس» للأخ الدكتور خالد يونس الخالدي. وها هي ذي الرسالة الثانية عن «الخطاب اليهودي بين الماضي والحاضر: دراسة تحليلية نقدية في ضوء القرآن الكريم» للأخ الدكتور زياد حمّاد عليان الحسنات.

تقوم البنية المنهجية للرسالة على تمهيد وستّة فصول وخاتمة. فأما التمهيد فيعالج المصطلح، ومفهوم الخطاب اليهودي، ومرتكزاته، وصيغ التعامل معه، وأهمية دراسة الشخصية اليهودية. وأما الفصل الأوّل فيتناول الخطاب اليهودي التأسيسي من خلال التوراة والتلمود، ويمضي الفصل الثاني لتحليل هذا الخطاب في (بروتوكولات حكماء صهيون) وأقوال حاخامات اليهود وزعمائهم، وأما الفصل الثالث الذي يُعدّ ـ بحقّ ـ إضافة قيّمة للدراسات القرآنية، فيتعامل مع الخطاب اليهودي في ضوء القرآن الكريم، ويتحرك على محاور ثلاثة: موقف القرآن الكريم من اليهود، والخطاب اليهودي في عقائد اليهود، وفي شرائعهم.

ويكاد الفصل الرابع يخرج عن السياق المنهجي المحكم للرسالة، بتناوله الشخصية اليهودية وأخلاقها في مباحث ثلاثة يفضّل إلغاؤها من الرسالة وتناولها في بحث مستقل.

ويعود الفصل الخامس لكي يعالج الحركة الصهيونية وخطابها اليهودي المعاصر، ويمضي الفصل السادس صوب المستقبل لتقديم رؤية نافذة عن الكيان الصيهوني وأخطاره على الأمة العربية والإسلامية. ثم تجيء الخاتمة لكي تعرض لأهمّ النتائج والتوصيات.

وبذلك يكون الباحث قد تابع «الخطاب اليهودي» منذ تأسيساته الأولى في التوراة والتلمود، حتى اللحظات الراهنة حيث تجسد الصهيونية وإسرائيل مفردات هذا الخطاب، وتنسجان مشروعاً ينطوي على جملة من المخاطر التي تنذر العرب والمسلمين بالمزيد من التداعيات والانكسارات، إن لم يتحركوا، وبمشروع مضاد، لوقف السرطان الذي افترس الكثير من مقوّمات الأمة، ولا يزال..

والرسالة ـ على ذلك ـ لا تحمل قيمتها العلمية الأكاديمية فحسب وإنما تضيف إليها جملة من المؤشرات والاستنتاجات وصيغ العمل التي يمكن أن تنير السبيل أمام المشروع المضاد الذي إن لم تتداع له الأمة فإن ما سيجيء قد يكون أشدّ هوْلاً مما كان.

ويكفي أن نتذكر المساحات الواسعة التي محّضها كتاب الله لبني إسرائيل.. إنه لم يرد أن يحدثنا عن تاريخهم لمجرد السرد التاريخي، وإنما لاستخلاص مؤشرات العمل في مواجهة جرثومة الفساد في الأرض قبل أن تمضي لكي تتسلّل إلى مفاصل الإنسانية وشرايينها، وتأتي على الأخضر واليابس.

ويكفي أن نتذكر ـ كذلك ـ الخاتمة التي ضمّنها الباحث جملة قيّمة من النتائج والتوصيات التي تستمد من الخبرة التاريخية الكثير من حيثياتها، ولكنها تتجاوز التاريخ، لكي تمارس حضورها المؤثّر في الحاضر والمستقبل، بعيداً عن ردود الأفعال، والممارسات الارتجالية وانتظار المفاجآت. فليس ثمة كالأخذ بالأسباب في ضوء الخبرة التاريخية، أسلوباً لمجابهة التحديات التي تحيق بالأمة.. ولطالما أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة التي جاءت رسالة الباحث لتكون انعكاساً علمياً أميناً لحيثياتها: ﴿**ليس بأمانيكم ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءً يجز به..**﴾ [النساء: الآية: 123]، ﴿**أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنىٰ هذا؟ قل: هو من عند أنفسكم..**﴾ [آل عمران، الآية: 165].

ويبقىٰ على الأخ الدكتور زياد الحسنات، وقد قطع شوطاً من الطريق، أن يواصل الكدح للمضيّ حتى آخره، ولن يكون ذلك بدون تعلّم لغة القوم من أجل أن نتعرف أكثر على طبيعة خطابهم العدواني ونأمن مكرهم كما سبق وأن أوصانا رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

تقديم لرسالة: القاضي عبد الجبار مفسراً

للدكتور عبد الستار فاضل النعيمي

في ضوء خطة محكمة لم تدع جانباً من الموضوع لم تسلّط الضوء عليه، استقصاءً وتحليلاً واستنتاجاً، مضى الباحث الأخ عبد الستار فاضل النعيمي في إنجاز رسالته للدكتوراه عن (القاضي عبد الجبار مفسّراً) فتناول حياته الشخصية، والعلمية، ومؤلّفاته في التفسير، ومنهجه، وموقع هذا المنهج من مناهج التفسير قبله، والموضوعات الكبرى لتفسيره، ومصادر هذا التفسير، وقيمته العلمية. فأوفىٰ على المطلب، واستحقّ بجدارة الحصول على اللقب بتقدير (امتياز).

ويكفي أن يشير في مقدمته إلى رؤيته المرنة، السمحة، المستمدة من روح هذا الدين، في قبول وتقييم كل إنجاز يضع صاحبه نصب عينيه خدمة هذا الدين، والتقرّب إلى الله، بنيّة حسنة، وإخلاص للحق، وتمكّن من أدوات العمل، بغض النظر عن الخلاف في المنهج، والاجتهاد في التعامل مع النصّ. ولقد كان القاضي عبد الجبار (المعتزلي) واحداً من هؤلاء الذين أسهموا، على تغاير توجّهاتهم، وربما بسببها، في إغناء تراثنا العقدي والتشريعي، وإرفاد المعرفة الإسلامية بحلقاتها الخصبة.

والأخ الباحث يقول في هذا الصدد وكأنه يستهدف إقناع أولئك الذين قد يعترضون على كل من يحمل هموم أهل السنة والجماعة، في استنزاف

جهده فيمن قد يبدو ـ ظاهراً ـ من المفارقين لهم، أو ـ في الأقلّ ـ من السالكين طريقاً ومنهجاً يغاير في بعض حلقاته طريقهم ومنهجهم: «والمنهج العقلي، وإن كانت جذوره الأولى ترجع إلى عصر الصحابة (رضي الله عنهم) إلاّ أن أكثر من عرف به هم المعتزلة الذين أولوا العقل اهتماماً كبيراً، إذ ظهروا في عصر توالت فيه الطعون وحملات التشكيك بالإسلام وكتابه، من قبل أناس لا يعترفون بالنقل فكان المعتزلة ـ على الرغم من بعض أخطائهم ـ قد أسهموا في صدّ تلك الهجمات، وإن ما قيل ويقال عنهم في بعض الجوانب ينبغي ألاّ ينسينا دورهم البارز في الذود عن حمىٰ الإسلام والقرآن، وإن الخلافات التي حصلت بينهم وبين أهل السنة والجماعة كان أكثرها لفظياً. إلاّ أن الذي وسّع شقة الخلاف بينهم أمران نخرا في الجسد الإسلامي هما: إقحام السلطة أوّلاً، والعوام ثانياً في تلك الخلافات.. في حين أنه لولاهما لبقي الخلاف منحصراً بين الخاصة من العلماء، وكان بالإمكان الاتفاق على كثير من مسائل الخلاف ما دام الكل منطلقين من دافع تنزيه الله تعالىٰ عما لا يليق به. وهذا ما أدركه الإمام أبو الحسن الأشعري حين أراد أن يزيل التطرّف الذي أصاب منهج المعتزلة، فقام بعملية توفيق وتقريب بين مناهج المعتزلة وأهل الحديث من أجل الوصول إلى صيغة عقيدية تنقذ المسلمين من الصراع الذي أضرّ بوحدتهم، ولذا نجده في منهجه لا يرمي أحداً من الطرفين بالكفر، لأنهم جميعاً من أهل القبلة، ويعبدون ربّاً واحداً، وقد أوصى وصية قبل وفاته ساقها ابن عساكر، رواية عن تلميذه أبي زاهر قال: لما قرب حضور أجل الأشعري (رحمه الله) في داري ببغداد دعاني فأتيته، فقال: اشهد أني لا أكفّر أحداً من أهل هذه القبلة، لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد وإنما هذا كلّه اختلاف العبارات»!!

ولا يجادل أحد في أن الإسلام هو ـ بمعنى من المعاني ـ دين العقل وأن النصّ القرآني انطوىٰ عبر المئات من الآيات، على خطابٍ عقلاني في التعامل مع الظواهر والموجودات والأشياء، وأن الأجداد مارسوا زمن

تألّقهم الحضاري، جهداً عقلياً مؤكداً في تفسير النصّ ومحاولة إدراك دلالاته ومقاصده.

إلاّ أن المشكلة الأساسية كانت تكمن ـ معظم الأحيان ـ في الغلوّ الذي طالما حذّر منه رسول اللهﷺ ، وعالجه من منظور شامل وعبر فضاءٍ معرفي يرتبط في نهاية الأمر بالفاعلية الحضارية حيث يصير الغلوّ أو التشدّد سكيناً تذبح قدرتها على الصيرورة والإبداع.

المشكلة في أن يصير العقل ـ لدىٰ البعض ـ حاكماً على الوحي فيما هو خرق لمعلومٍ من الدين بالضرورة، أو في أن يغدو مذهباً قسرياً تتولى السلطة إرغام النّاس على قبول معطياته التي قد تخطىء وقد تصيب.

وفيما عدا هذا فإن التعامل مع العقل في حدوده المشروعة، لن يكون إلاّ فرصة طيبة لإضاءة النصّ الديني وتمكينه في الوقت نفسه من مجابهة الخصوم.

إن إشكالية الجدل، والصراع بين المعتزلة وأهل السنة والجماعة بعامة، والحنابلة على وجه الخصوص، لا تكمن ـ ابتداءً ـ في الموقف من العقل، وإنما في تحويل هذا الموقف إلىٰ مذهب قسري تتبنّاه السلطة وتحاول أن ترغم الناس على قبوله. ولما كانت هذه حالة مرضية تخرج عن الحدود السوية المتفق عليها بين كل المنتمين لهذا الدين، فإنها لم يقدّر لها الدوام، وسرعان ما عادت مؤسسة الخلافة العباسية زمن المتوكل عن موقفها هذا، وبرز في الوقت نفسه خارج نطاق الممارسة السياسية، مصلح كالأشعري بذل جهده المعروف لردّ الأشياء إلى أصولها وتقليم أظافر التوجّهات الاعتزالية الحادّة ومحاولة توظيف فعّالياتها البنائية، بخصوص اعتماد العقل، لإرفاد الحياة الإسلامية بدفقة جديدة من الحيوية والعطاء.

لقد اعتمد القاضي عبد الجبار أسلوباً في التفسير يندرج ضمن المنهج العقلي المنضبط بضوابط النقل واللغة والعقل، فإذا كان الضابط الثالث

سمة المنهج الاعتزالي، فإن ضابطيْ النقل واللغة يجيئان لكي يحميانه من الشطط والجنوح، فيما يجعل محاولاته في التفسير إضافة قيّمة في التعامل مع النصّ القرآني قد تنطوي على العديد من الاستنتاجات التي لا يمكن التسليم بها بسهولة، والتي قد تتعارض ـ أحياناً ـ مع ثوابت أهل السنة والجماعة، وبخاصة في اعتمادها (التأويل) الذي ينكره عالم جليل كابن تيمية الذي يرى بأن أصحّ طرق التفسير أن يفسّر القرآن بالقرآن، ثم يطلب تفسيره بالسنّة، ثم في أقوال الصحابة فالتابعين، وأن المؤوّل غالباً ما يكون معتقداً لرأي سابق يحاول أن يحمل ألفاظ القرآن عليه، وهو ما يؤخذ على المعتزلة عموماً.

إلاّ أن القاضي يؤكد أنه إنما أراد بالتأويل ـ كما يشير الباحث ـ «إزالة ما قد يظن من تناقض بين ظاهر القرآن وأدلّة العقل. وهو في كثير من الأحيان يحاول الاكتفاء بظاهر النصّ، وإذا ما أوّله فإنه يعتمد على الضوابط التي ذكرناها..».

ولا ينسىٰ الباحث أن يشير في خاتمة رسالته إلى أن الأثر الكبير لسلطان العقل في تفسير المعتزلة، اضطرهم أحياناً إلى ردّ ما يعارضهم من النقل، إلاّ أن ذلك لا يعني أنهم كانوا يقصدون الخروج على الحديث، أو عدم الاعتراف به، أو بالتفسير بالمأثور.

ومهما يكن من أمر فإن جهود القاضي في إطارها العام، وبانضباطها بالدلالات النقلية واللغوية، يمكن أن تقدّم إضافة ذات غناء للمكتبة القرآنية خاصة إذا ما أضفنا إليها كشوف القاضي في مجال الإعجاز القرآني واعتبارها من ممهّدات نظرية النظم التي قال بها عبد القاهر الجرجاني والتي جاءت بمثابة فتح قيّم، ليس فقط في سياق الدراسات القرآنية وإنما في سياق الجهد الدلالي والنقدي بشكل عام.

ولن يكون منهج القاضي، بل المعتزلة جميعاً، الحكم الفصل في التعامل مع النصّ القرآني، أو الطريق الوحيد، ولكنه مجرد حلقة أو إضاءة

مضافة إلى جهود خطّ طويل من مفسّري القرآن الكريم اعتمدوا مناهج عديدة، يمكن بإضافة بعضها إلىٰ بعض، لا بنفي بعضها البعض الآخر، أن تمنح الدارسين المحدثين فرصة أكثر خصباً وانضباطاً ـ في الوقت نفسه ـ وهم يتدبّرون كتاب الله المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق علىٰ كثرة الردّ..

تقديم لكتاب «نفحات علمية من القرآن والسنّة»

للدكتور دلاور محمد صابر

يوماً بعد يوم تتكشف الحقائق، أكثر فأكثر، عما ينطوي عليه القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة من معطيات تتوافق ـ ابتداء ـ مع نتائج الجهد العلمي في سياقاته كافة.

وليس ثمة غرابة في هذا على الإطلاق، فإن الكتاب المسطور الذي تنزّل على محمدﷺ بعِلم الله سبحانه، وأحاديث رسولهﷺ وأفعاله التي جاءت لتشرح وتوضح وتضيف على ما أوجز فيه الكتاب المسطور أو تجاوز ذكره.. هذا كلّه، أريد له أن يكون في حالة توافق وتطابق مع معطيات الكتاب المنظور في الأنفس والآفاق وعبر طبقاتهما ومفرداتهما كافة.

فالكتابان من خلق الله سبحانه الذي شاءت إرادته (جل جلاله) أن يكون النشاط المعرفي عامة، والعلمي بوجه الخصوص، الجسر الذي يصل بين الكتابين!

وإذا كان متكلمونا القدماء قد انهمكوا في متابعة العلاقة ين الكلمة والخلق، وجادلوا كثيراً في مسألة أزلية القرآن أو خلقه، ربما بسبب إغراءات الفلسفة اليونانية، فوضعوا أنفسهم ـ بذلك ـ رهن الاعتقال في الحيثيات الكلامية، والتجريدات الذهنية، والتأويلات الفلسفية التي لا تكاد

تتمخّض عن إضافة ذات غناء للمهمة (العمرانية) التي أنيطت بالأمة المسلمة لحظة استخلافها في الأرض.. فإن الجيل الجديد من العلماء والمفكرين الإسلاميين، تجاوزوا التعامل مع الثنائية بهذه الصيغة ومضوا لكي يبحثوا عن طبيعة العلاقة بين الكلمة والخلق بقدر تعلّق الأمر بالحقائق المعرفية والعلمية التي تغذي الجهد الحضاري (العمراني) وتدفع به قدماً إلى الأمام، فضلاً عن تأكيدها ـ ابتداء ـ للموقف الإيماني في العالم، ومصداقيته، من خلال هذا التوافق المدهش بين الخلق والكلمة، أو بين الحقائق الكونية والإنسانية، وبين معطيات كتاب الله وسنة رسولهﷺ .

يتعامل الأخ الباحث في كتابه هذا مع جملة من الآيات والأحاديث، أو الحقائق القرآنية والنبوية، التي جاء البحث العلمي، والجهد المختبري لكي يؤكدا مدى تطابقها مع الكشوف المتمخضة عن هذا النشاط.

والحق أن معظم مفردات الكتاب تنصبّ على الجانب الطبيّ، بل الصحيّ على وجه التحديد، من مثل: أضرار الخمر وعلاقته بمرض السرطان، وحديث الرسولﷺ عن الأكل والشرب والتنفّس، والفوائد الصحية والوقائية المترتبة على تناول خلّ التفّاح، وفيتامين E، وزيت الزيتون، والثوم، والبصل، والسمك، واليقطين، فضلاً عن هدْي رسول اللهﷺ في الرياضة، والنوم، ودور التوكّل على الله في كيمياء جسم الإنسان.

ولا يتبقىٰ ـ ثمة ـ سوى مفردات محدودة تخرج عن هذا السياق الطبي ـ الصحّي من مثل: التوازن الرقمي واللفظي المترابط في القرآن العظيم، والدلالات العلمية لآية ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حيّ**﴾، وغرائب في عالم الحشرات، ونظرات في آية الإنفاق.

وعلى ذلك، ومن أجل أن يكون الكتاب أكثر إحكاماً على المستوىٰ المنهجي، كان يمكن الاقتصار على الموضوعات الصحيّة المذكورة، وربما إضافة مفردات أخرىٰ إليها في السياق نفسه، وتسمية الكتاب بـ (نفحات

طبية من القرآن والسنة) أما المفردات الأخرىٰ فيمكن أن تكون نويات لبحوث تخصّصية أخرى. والأمر نفسه ينطبق على الكتاب السابق للمؤلف بعنوان (العلم والإعجاز)، الذي تنصبّ معظم بحوثه على الجانب الطبي ـ الصحيّ.

مهما يكن من أمر فإن الأخ الباحث عرف كيف يحشد للموضوع الواحد جملة من الشواهد والكشوف العلمية الأكثر حداثة، والتي يلحظها القارىء منتشرة بسخاء في ثنايا الكتاب من أجل تأكيد التوافق المدهش بين معطيات وإرشادات وتعاليم كتاب الله وسنة رسولهﷺ وبين حقائق العلم في أكثر كشوفها دقة وإحكاماً.

ويلحظ القارىء كيف أن الباحث يملك قدرة تثير الإعجاب ليس في هذا فحسب، وإنما في مجال المقارنة بين معطيات القرآن والسنة وبين دقائق الكشوف العلمية وتفاصيلها.

وعلى كثرة ما أخذت مكتبة العلم والإيمان تتلقاه من بحوث ومؤلفات، فإن كتاب (نفحات علميّة) يقدّم ـ بالفعل ـ إضافات ذات غناء، فهو لا يكاد يتعامل مع موضوعات مستهلكة وإنما يطمح لتقديم منظومة من الكشوف الجديدة، التي تضيء أكثر فأكثر ما سبق وأن أشار إليه كتاب الله وسنة رسولهﷺ.

وأغلب الظن فإن الباحث يملك الكثير مما لم يقله بعد في كتابه هذا وصنوه الذي سبقه إلى الصدور بعام واحد، وأنه يعد بمشاريع قادمة ستضيف لمكتبة العلم والإيمان رصيداً قيّماً..

وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماءُ إن الله عزيز غفور﴾**.

تقديم لكتاب
(أضواء إسلامية)

للدكتور طارق شريف

عرفت الأخ الدكتور طارق شريف يونس منذ حوالي العشرين عاماً.. كان يملك ما لا يملكه الكثير من الأكاديميين في ديارنا: البحث عن الموضوعات الأكثر صعوبة والأقلّ استهلاكاً في السياق المعرفي والإيغال في دراستها وتحليلها.

وبسبب من امتلاكه رؤية إسلامية أصيلة، فإنه كان يبذل جهده (لأسلمة) الظاهرة أو الحالة التي يتحدث عنها.. تأصيلها إسلامياً بتعبير أدق.. ليس على حساب المطالب المنهجية وإنما في سياقها وفي توازٍ معها.. فإن أسلمة المعرفة في فروعها الإنسانية، هي إذا أردنا الحق تعديل للوقفة الخاطئة وردّ الأمور إلى نصابها.

فإن تصميم إدارة إسلامية، أو البحث عن فن إسلامي، أو إعادة صياغة الاقتصاد فيما يجعله ينسجم ويتوافق مع ثوابت الفقه الإسلامي ومقاصد الشريعة العليا.. وإعادة التاريخ إلى رحمه الإسلامي الذي تخلّق فيه.. بل حتى توظيف نتائج وكشوف العلوم الصرفة، ولا أقول اختراق المختبر بالمرئيات الإسلامية فيما يخرج عن سويّة الأشياء.. حتى هاهنا نجد أن استدعاء الخبرة الإسلامية ضروري جداً لكي نحسن التعامل ـ مثلاً

ـ مع الذرّة ونجعلها في خدمة الأهداف الإنسانية وليس على النقيض منها، كالذي شهدناه ـ مثلاً ـ في مأساتيْ (هيروشيما) و (ناغازاكي) اليابانيّتين.

مهما يكن من أمر فإن الأخ الدكتور طارق شريف كان ينطلق من تخصّصه في (الإدارة الاستراتيجية) بحثاً عن الموضوعات الأكثر إلحاحاً لكي يقدّمها في إطار إسلامي أصيل.. وكان يملك، من وراء الجزئيات والتفاصيل التي يتعامل معها، رؤية شمولية تقرّبه من الاستراتيجية التي تعالج المساحات الأكثر امتداداً في الزمن والمكان. ولقد قدّم في هذا المجال كشوفاً طيّبة يشار إليها بالبنان، ويُتوقّع أن يقدم المزيد إن شاء الله.

الكتاب الذي بين يدي القارىء والذي يحمل عنوان (أضواء إسلامية) ينطوي على جملة بحوث تعكس ـ بشكل أو بآخر ـ رؤية المؤلف الإسلامية الأصيلة. ويمكن تصنيفها إلى سياقات ثلاثة، تناول في أوّلها مسائل تمسّ الوجود الحضاري للمسلمين، وإشكالية الصراع بين الشرق والغرب، وذلك من خلال عرضه لكتاب (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) وبحثه عن (الإسلام في معترك صراع الشرق والغرب).

وتناول في ثانيها قضايا تمسّ العلاقة الوثيقة بين النصّ القرآني والحديث النبوي الشريف وبين معطيات وكشوف العلم الحديث.

أما في السياق الثالث فقد مضىٰ لمعالجة موضوعين تربويين عرف كيف يلمّ مفرداتهما ويمسك بخيوطهما، وهما (منهج القرآن في تربية النشىء المسلم) و (التحليل اللفظي لمدلولات النظافة المعنوية في الإسلام: رؤية عصرية لوقاية سلوك المسلم).

وهو في بحوثه هذه جميعاً يعرف كيف يستدعي الشاهد من القرآن الكريم أو الحديث الشريف، وكيف يحلّل ويستنتج لمنح القارىء القناعة بما يذهب إليه.

وهو في كل ما يكتب يطلّ على قرائه من منظور حضاري بما أن هذا الدين هو في جوهره مشروع حضاري كان قد أدّىٰ دوره يوماً، وهو لا

يزال، رغم الانكسار الحضاري للأمة، يعد بنهوض جديد.

ونسمعه يقول وهو يتحدث عن العلم في موضوع (كتاب في مقال): «العلم الحديث أداة حيادية ينبغي للأمة الإسلامية أن توظفها لتعزيز موقفنا الحضاري، ولا سيما أن العلم يعد تراكماً للخبرة البشرية وأسهمت فيه الشعوب عبر عمقها التاريخي وكان للإسلام حظّ وافر في وضع دعائمه وتصحيح مناهجه وطرح معطياته». ونسمعه يقول في آخر بحثه عن «الإسلام في معترك صراع الشرق والغرب»: «إن التعبير عن الحلّ الإسلامي ليس مناداة بهدف نروم من ورائه الدفاع عن الذات الإسلامية، إنما هو استنفار لسنن إصلاح المجتمع الإسلامي من خلال أسلمة العلوم.. ووضع التكنولوجيا المعاصرة والعلوم الأخرى في خدمة القرآن الكريم. ذلك كلّه يعد شرطاً مهماً في صيرورة الموقف الإسلامي. وينبغي أن نعي بأن الإسلام مدخل لهذه العلوم وأنها موطن قوته. أليس مخجلاً عندما نشهد دولة وثنية كاليابان استطاعت أن تبني لها نهضة حضارية بعد أن حققت شروط ذلك البناء علمياً في فترة زمنية لا تتجاوز النصف قرن دونما امتلاكها قاعدة عقائدية صلبة؟ فكيف إذن وقد أعزّنا الله بالاسلام وأسس لنا قاعده حضارية وعقائدية وثقافية متكاملة، تتفرد في منهجها الربّاني الذي زاوج بين العقل والفهم والعلم؟.. ومن ثم علينا نحن المسلمين أن نتجاوز سلبيات المراحل السابقة جملة وتفصيلاً وتخليص أفكارنا وتطهيرها مما هو خاطىء لا يسانده عقل ولا حكم ولا فقه لسنن الله».

تقديم لكتاب «التأصيل الشرعي لفقه الواقع»

لمحمّد الهسنياني

يتحرك «فقه الواقع» وينسج معطياته بين حدّيّ تقديم الحلول الفقهية بمفهومها الحِرَفي (بكسر الحاء وفتح الراء)، وصياغة منظومة من الأفكار والتصوّرات والضوابط والشروط المعنية بتقديم المشروع الحضاري الإسلامي.

والهدف في الحالتين هو إعادة صياغة مفردات الحياة بجزئياتها وكلّياتها وفق مقاصد الشريعة العليا.

ولقد كان المسلمون زمن تألّقهم الحضاري في القرون المبكرة من تاريخ الإسلام، فقهاء بحقّ، في المستويين معاً.. ولذا قدروا على تحقيق المعجزة، وصنعوا الحياة الإسلامية التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسولهﷺ

ثم جاءت عصور الانكسار الحضاري، والانسحاب من حركة التاريخ، وغاب الإبداع والابتكار والتوقّد العقلي، فأصيب فقه الواقع بالعقم والشلل وغياب الفاعلية.

وها قد آن الأوان، عبر مناخ مترع بالتحديات والمحفّزات الحضارية لاستعادة الدور الضائع، ولن يكون ذلك إلاّ بفهم الواقع الذي تعانيه المجتمعات الإسلامية، والتفقّه في مطالبه وضروراته.

ويجيىء كتاب الأخ الأستاذ محمد الهسنياني، حلقة في سلسلته الواعدة التي أطلق عليها اسم (سلسلة إحياء فقه الواقع) في هذا السياق الذي ينطوي على أهميته البالغة والذي سبق وإن صدر بخصوصه عدد من البحوث والمؤلفات ولكنه لا يزال ينتظر الكثير.

ومنذ عصر الرسالة، وفيما بعد، كان (الواقع) دائماً هو نقطة الارتكاز، وكان فقهه، أي إدراك ضروراته وفق سلّم أولوياتها، هو المفتاح الذي مكن الأمة الإسلامية من الاستجابة للتحديات وإعادة صياغة (الوجود) وفق (الوحي) القادم من السماء.

إن الاستمداد من الخبرة التاريخية لا يكفي وحده.. ومحاولة استشراف آفاق المستقبل لن تتحقق ما لم يكن الواقع الراهن هو نقطة الرصد والانطلاق.

ورغم أن القرآن الكريم محّضَ أكثر من ثلثيْ مساحته للتاريخ، فإنه لم يشأ أن يضع المسلمين تحت وقر الماضي، وإنما أكد علىٰ التحرّر منه حيثما تطلّب الأمر ذلك، وأعلن عبر آيتين في سورة البقرة: ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كان يعملون**﴾.. ذلك من أجل أن يكون المسلمون أكثر التحاماً بالواقع وإدراكاً لمطالبه وضروراته.

يبدأ الأخ المؤلف كتابه بالتعريف بمصطلح (فقه الواقع) وتحليل مفاهيمه، ثم يستعرض مبرّراته الأساسية، لكي ما يلبث أن ينتقل لمتابعة الموضوع في كتاب الله وعبر عصر الرسالة والراشدين والتابعين، ثم عصر أئمة المذاهب الذين مارسوا دوراً واسعاً في صياغة فقه الواقع تأصيلاً وتطبيقاً وأعانوا، بجهودهم المعروفة، علىٰ حماية وتأكيد الملامح الإسلامية للأمة.

وهذه المتابعة التاريخية لمسيرة (فقه الواقع) ضرورية لعرض وتحليل

المفاهيم الأساسية للمصطلح. ولعلّ الأخ المؤلف يمضي في الحلقات التالية لمؤلّفه هذا لمتابعة الجوانب الأخرىٰ لهذا الموضوع الملحّ، لكي يصل بقارئه إلى العصر الذي نعيشه بكل ما ينطوي عليه من معطيات وتحدّيات تتطلب استدعاء هذا الفقه لمجابهة محنة الاحتواء والتغريب، والعولمة، وصراع الحضارات، في عالم يضيع فيه من لا يملك فقهاً عميقاً للواقع بكل حيثياته التاريخية والعقدية.. والحضارية في نهاية المطاف.

كتب للمؤلف

أ ـ بحوث تاريخية

١ ـ ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، (الطبعة الثامنة) مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٢ ـ عماد الدين زنكي، (الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة.

٣ ـ دراسة في السيرة، (الطبعة ١٧) مؤسسة الرسالة ـ دار النفائس.

٤ ـ الحصار القاسي: ملامح مأساتنا في إفريقيا، (الطبعة الثالثة) مؤسسة الرسالة.

٥ ـ التفسير الإسلامي للتاريخ، (الطبعة الخامسة) دار العلم للملايين ـ بيروت.

٦ ـ نور الدين محمود: الرجل والتجربة، (الطبعة الثانية) دار القلم ـ دمشق.

٧ ـ الإمارات الارتقية في الجزيرة والشام: أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر، (الطبعة الأولىٰ) مؤسسة الرسالة.

٨ ـ في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل، (الطبعة الأولى) المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٩ ـ المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في

الموصل، (الطبعة الأولى) مكتبة المعارف ـ الرياض.

١٠ ـ ابن خلدون إسلامياً، (الطبعة الثانية) المكتب الإسلامي.

١١ ـ دراسات تاريخية، (الطبعة الأولى) المكتب الإسلامي.

١٢ ـ حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي، (الطبعة الأولى) دار الثقافة ـ الدوحة.

١٣ ـ المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر: مونتغمري وات، (الطبعة الأولىٰ) دار الثقافة.

١٤ ـ تحليل للتاريخ الإسلامي: إطار عام، (الطبعة الأولى) دار الثقافة.

١٥ ـ المنظور التاريخي في فكر سيّد قطب، (الطبعة الأولى) دار القلم ـ بيروت.

١٦ ـ حاضر المسلمين ومستقبلهم من منظور غربي، دار النفائس ـ بيروت.

١٧ ـ دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية الشريفة (بالاشتراك)، (الطبعة الأولى) المعهد العالمي ـ فيرجينيا.

١٨ ـ الوحدة والتنوّع في تاريخ المسلمين، (قيد النشر) دار الفكر ـ دمشق.

ب ـ بحوث إسلامية

١ ـ لعبة اليمين واليسار، (الطبعة الخامسة) مؤسسة الرسالة.

٢ ـ تهافت العلمانية، (الطبعة الخامسة) مؤسسة الرسالة.

٣ ـ مقال في العدل الاجتماعي، (الطبعة الرابعة) مؤسسة الرسالة.

٤ ـ مع القرآن في عالمه الرحيب، (الطبعة الثالثة) دار العلم للملايين.

٥ ـ آفاق قرآنية، (الطبعة الثانية) دار العلم للملايين.

٦ ـ كتابات على بوابة القرن الخامس عشر (بالاشتراك)، (الطبعة الأولى) دار العلوم ـ الرياض.

٧ ـ كتابات إسلامية، (الطبعة الأولى) المكتب الإسلامي ـ مكتبة الحرمين.

٨ ـ أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار، (الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة.

٩ ـ مدخل إلى موقف القرآن من العلم الحديث، (الطبعة الأولى) مؤسسة الرسالة.

١٠ ـ العلم في مواجهة المادية: قراءة في كتاب (حدود العلم)، (الطبعة الثالثة) مؤسسة الرسالة.

١١ ـ مؤشرات إسلامية في زمن السرعة، (الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة.

١٢ ـ حول إعادة تشكيل العقل المسلم، (الطبعة الخامسة) كتاب الأمة ـ الدوحة.

١٣ ـ في الرؤية الإسلامية، (الطبعة الأولى) دار الثقافة.

١٤ ـ حوار في المعمار الكوني، (الطبعة الأولى) دار الثقافة.

١٥ ـ الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي: قراءات، (الطبعة الأولىٰ) دار النفائس ـ بيروت.

١٦ ـ في إسلامية المعرفة: بحوث ومقترحات، (الطبعة الثالثة) المعهد العالمي ـ فيرجينيا.

١٧ ـ قالوا في الإسلام، (الطبعة الأولى) الندوة العالمية ـ الرياض.

١٨ ـ رؤية إسلامية في قضايا معاصرة، (الطبعة الأولى) كتاب الأمة ـ الدوحة.

١٩ ـ القرآن الكريم من منظور غربي، (الطبعة الأولى) دار الفرقان ـ عمّان.

٢٠ ـ المرأة والأسرة من منظور غربي، دار الفرقان.

٢١ ـ الرؤية الآن، (الطبعة الأولى) منشورات فلسطين المسلمة ـ لندن.

ج ـ أعمال أدبية

١ ـ المأسورون (مسرحية ذات أربعة فصول)، (الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٢ ـ في النقد الإسلامي المعاصر (نقد)، (الطبعة الرابعة) مؤسسة الرسالة.

٣ ـ فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (دراسة)، (الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة.

٤ ـ الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (دراسة)، (الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة.

٥ ـ جداول الحبّ واليقين (شعر)، (الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة.

٦ ـ معجزة في الضفّة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد)، (الطبعة الأولى) مؤسسة الرسالة.

٧ ـ خمس مسرحيات إسلامية (ذات فصل واحد)، (الطبعة الأولى) مؤسسة الرسالة.

٨ ـ محاولات جديدة في النقد الإسلامي (نقد)، (الطبعة الأولى) مؤسسة الرسالة.

٩ ـ الشمس والدنس (مسرحية ذات أربعة فصول)، (الطبعة الأولى) دار الاعتصام ـ القاهرة.

١٠ ـ مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (دراسة)، (الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة.

١١ ـ الإعصار والمئذنة (رواية)، (الطبعة الأولى) مؤسسة الرسالة.

١٢ ـ المغول (مسرحية ذات سبعة مشاهد)، (الطبعة الأولى) مؤسسة الرسالة.

١٣ ـ العبور (مسرحيات ذات فصل واحد)، (الطبعة الأولى) دار المنارة ـ جدّة.

١٤ ـ متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (نقد)، (قيد النشر) مؤسسة الرسالة.

١٥ ـ الفن والعقيدة (دراسة)، (الطبعة الأولى) مؤسسة الرسالة.

١٦ ـ الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي، دار الضياء ـ عمان.

١٧ ـ ابتهالات في زمن الغربة (شعر)، دار الوفاء ـ المنصورة.

١٨ ـ في النقد التطبيقي، دار البشير ـ عمان.

١٩ ـ من أدب الرحلات، دار حضرموت ـ المكلاّ.

٢٠ ـ ريبورتاج: حوار في الهموم الإسلامية، دار الحكمة ـ لندن.

٢١ ـ كلمة الله (قصص)، دار حضرموت.

الفهرست